

آخر أساطير الحب^٣



كمال السيّد

كامل

مركز
القدير
www.alqadir.net

www.alqadir.net



أخر أساطير الحبّ



مركز القدير للدراسات والنشر والتوزيع

لبنان - بيروت - حارة حريك - شارع السيد عباس الموسوي - بناية مركز القدير
تلفاكس: ٥٥٨٢١٥ / ٠١ - ٥٥٢٢٦٢ / ٠١ خليوي: ٦٤٤٦٦٢ / ٠٣
ص.ب. ٥٠١ / ٢٤ - الرمز البريدي ١٠١٧٠ - ٢٠١٠ - برج البراجنة

www.alqadir.org

www.alqadir.net

الطبعة الثانية

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

الحقوق جميعها محفوظة

لمركز القدير للدراسات والنشر والتوزيع

ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة. أو جهة

إعادة طبع الكتاب أو ترجمته إلا بترخيص خطي من إدارة المركز

كمال السيد

آخر أساطير الحب

رواية تسجيلية

مركز
التقدير
بيروت - لبنان



عزيزي القارئ . . .

ها هي أقدمها إليك

كما ولدت

ربما لا تجد في سطورها شيئاً

إلا إنك ستلمح ما بين السطور

طيوفاً هائمةً من الأحلام

وآثاراً دارسةً من الآلام.

شواطئ الفرات - 1

على ضفاف ذلك الشط الذي ينتمي إلى الفرات تنهض قرية جنوبية بكل ما تنطوي عليه قرى الجنوب من ملامح في سمرتها وفي أحلامها وناسها وحكايات الحب والعشق والثأر، ولقرب القرية من حوض الفرات الأوسط اكسبها قدراً من تقاليد بعض المدن الهادئة وشيء آخر ميزها أيضاً هو ظهور أفكار ثورية لدى شبابها في فترة مبكرة مع مطلع الستينيات، ولماذا نخوض في مثل هذه التفاصيل قبل أن نتلمس الخيوط الأولى التي ستكون نسيج آخر أساطير الحب في الربع الأخير من القرن العشرين.

بالقرب من مسجد الشط يقع بيت قروي يعد من معالم تلك القرية التي بدا وكأنها تحاول أن ترتدي ثوب مدينة صغيرة أنه بيت الحاج حامد مؤذن جامع الشط وهو رجل مهيب في قامته وقد اكسبته لحيته قدراً من الوقار، وبالرغم من أنه لم يناهز الستين من العمر حتى الآن، إلا أنّ لحيته التي اشتعل فيها الشيب وزواج ابنه حميد منذ عشر سنوات قد جعله في مصاف الأجداد .

وأصبح الحاج حامد معلماً في تلك البلدة حيث تغفو بيوتها المتواضعة على شطآن نهر الرفاعي شمال مدينة الناصرية.

كان الحاج حامداً جالساً على جرف الشط إذ يجلو له في بعض الأصائل الجلوس، حتى إذا جنحت الشمس للمغيب نهض ليؤذن أما حفيده حسام فلم يكن يرمي حصاته كما هو في كل مرة فقد ظل يراقب قطع الأغنام يسوقه جاسم إلى حظائره عبر الطريق الزراعية.

وهذا التغيير الذي طرأ عليه لم يحصل فجأة فقد سبقه شعور بالزهو لأنه استطاع أن يعلم صديقه خيّن الصلاة.

من بعد كان قارب ينساب ماضياً في طريقه بعكس تيار النهر وكان صوت حزين لأشعار شاعت حديثاً:

وأنه من دم ولحم

مو من صخر ... جبدة العندي

والله مليت الصبر وامگاطر الدمعة

اعله خدي..

وأنه خلاني الوكت

ناعور بس اترس وأبدي

وفيا كان الجدّ ينظر إلى مياه الشط وإلى تدافع أمواجه الصغيرة كان

خليل قد ظهر ومن وراء نخلة ونادى على حسام الذي شعر البهجة لرؤية

صديقه الذي يصغره بعامين.

وانطلقا يعبران السواقي في المزارع الممتدة إلى ما وراء حدود القرية.
وكان الحاج حامد ينظر إلى حفيده بأمل وحبّ، ثم استقرت نظراته على
المياه مرّة أخرى؛ وقد اندمجت مع رنين أجراس الأغنام والماعز ولم تمنع
شمس تموز من هبوب نسيمات ما قبل الغروب المنعشة وراح الحاج حامد
يسبغ وضوءه وقد امتلأ صدره بعبير الزرع، وراحت عيناه تتابعان زهرة
طافية على الماء يحملها النهر بعيداً.

وتراجعت الأصوات شيئاً فشيئاً لتحل سكينة الغروب بكل جلاله في ذلك
المشهد الريفي الحالم وما هي إلا لحظات حتى كانت كلمات الأذان بصوت
شجي تنساب من مكبرة الصوت الوحيدة المشدودة إلى المئذنة الصغيرة.

وشيئاً فشيئاً انبعثت من قرب الشيطان ومن بعض البرك التي تجتمع فيها
المياه مئات الأصوات فتختلط مع بعضها مؤلفة سمفونية الوجود وهو يلج
محراب الليل... فالأصوات التي تصدرها الهوام ونقيق الضفادع وثرغاء
بعض الخراف ونباح الكلاب وعواء ذئاب بعيدة تمتزج مع بعضها في ليالي
صيف تموز ومع كل هذا الضجيج الذي تصدره الكائنات إلا أن النفس
تشعر بقدر رائع من الطمأنينة والسلام، هل يكمن من وراء ذلك ادراك
فطري لتسييح الكائنات أو تناغم اجزاء الوجود؟!!

كانت أم حسام قد أعدت ساحة الدار لإستقبال الحاج حامد وعودة

زوجها الذي يعمل في حقل قريب.

وكانت آخر ما تقوم به هو رش الماء حول البسط التي تتوسط البواري، فتصاعد رائحة الأرض الندية إلى توقظ في النفوس عبير الزخات الأولى للمطر.

كانت السماء مرصعة بالنجوم، وقد ظهرت ثلثة في القمر فوق ذرى الأشجار.

الفانوس الذي يتوسط المجلس يرسل ضوءه الخافت وقد هيمن الحاج حامد بوقاره ومهابته على المكان، كان حسام قد أخذ مكانه بالقرب من جدّه وقد جلست إلى جانبه شقيقته أنعام في حين كانت الأم تحتضن رضيعتها وترمق زوجها الذي كان يغسل يديه للوضوء فهو يفضل الصلاة في داره وهذا ما كان يغيظ والده مؤذن الجامع.

وضعت أم حسام الطبق المصنوع من خوص النخيل وفيه صحن كبير مليء بالتمن العنبر وثلاث أوان فخارية ملأى باللبن الرائب وأرغفة الخبز وتناول حسام عشاءه مع أبيه وجدّه وقد هيمن صمت مفعم بالسلام وكان الجميع يفضل الاصغاء إلى آلاف الأصوات التي تصدر عن كائنات لا حصر لها. كان حامد قد سأل جدّه عن ذلك ذات مساء فقال إنها تسبح الله فشعر بقشعريرة تسري في جسمه.

وكعادته كان حسام ينتظر حكاية جدّه قبل أن يأوي إلى فراشه قال الجدّ

بعد أن ارتشف الشاي وأوشكت سيجارته التي يلقها بنفسه على الانتهاء:
- كان يوسف صبيّاً طاهراً جميلاً وكان يعقوب النبي يحبه كثيراً فحسده
أخوته واضمروا له الحقد وتآمروا عليه وكانوا عشرة يعملون في رعي الأغنام
فجاؤوا إلى أبيهم وقالوا: لماذا لا ترسل معنا يوسف ليلعب في البراري والحقوا
عليه وكان يوسف يحب الذهاب مع أخوته ليلعب معهم في البرية.
ونجحت خطتهم وفرح يوسف كثيراً وهو يرى أخوته يلاعبونه
ويضاحكونه حتى إذا صاروا في البرية إذا بأحدهم يفاجئ يوسف بصفعة
اوقعته أرضاً.

نظر يوسف إليه بدهشة قال: لماذا يا أخي؟! وشعر بالخوف وهو يرى
عيني أخيه يهوا تبارقان بالشرّ وظهرت أسنانه كأنها أنياب ذئب؛ نهض
يوسف وراح ينفض التراب عن ثيابه وإذا بأخ آخر يركله بقسوة قال
يوسف بألم:

- لماذا يا شمعون؟ أنا أخوك.

وضربه رابين وهو يصرخ:

- أنت عدونا الوحيد.

اجتمعوا عليه يضربونه واستل أحدهم خنجره وأراد أن يقتله، ركض
يوسف فركضوا خلفه وأمسكوا به قال أحدهم: لا تقتلوا يوسف وألقوه
في ظلمة البئر فأما أن يموت أو تنتشله القوافل وتأخذه بعيداً.

ثمّ إتهم أخذوا يوسف إلى بئر عميقة ودفعوه فيها فسقط في ظلمات البئر...

سكت الجدّ لحظات ثمّ قال: غداً سأحكى لك بقية القصة نهض الجدّ إلى فراشه.

كان القمر المثلوم قد توسط السماء وهو يغمر القرية بفضته فتعكس صورته في البرك وتتكسر في مياه النهر. وظهرت غيومات صغيرة كنفس تائهة ومن خلال هدأة الليل والأشجار كان صوت شجي يشق على وهن طريقه إلى الأذان.

- يا ليل... يا ليل... طال السهر وطال الفراغ - يا ليل .

وفي ساعة السحر التي تسافر فيها الروح إلى عوالم مليئة بالنبوءات والرموز عوالم لا يعرف كنهها الإنسان... كانت آلاف الذئاب تتدفق بجنون من مغارة ما... كانت الذئاب تجوس خلال القرى الغارقة في الظلام... السماء بلا قمر ولا نجوم كانت أشبه بالقار... العواء يملأ الفضاء... عواء آلاف الذئاب... ذئاب... ذئاب... ذئاب!!

وهب من نومه... واستيقظت الأم:

- اسم الله عليك وليدي!

- ذيا به يمّه ذيا به...

استيقظ الجدّ:

- بسم الله الرحمن الرحيم... انشاء الله خير... توضأ لتذهب معي إلى
الجامع .

واستيقظت القرية فجر ذلك اليوم على صوت أذان صبي يناهز التاسعة
من العمر...

وعندما عاد حسام وجد أمه تنظر إليه بعينين تبتسمان من خلال دموع
الفرح.

شواطئ دجلة - 1

بالقرب من شواطئ دجلة عندما يخترق النهر مدينة بغداد وفي ذلك الشارع الذي تظله أشجار النخيل تنساب الحياة هادئة أشرقت شمس تموز وتدفقت أنوارها شلالات من الذهب.

كان أبو ميسون قد غادر منزله قبل بزوغ الشمس وقطع المسافة بين منزله وتلك الساحة القريبة من مرقد الإمام حيث يقصدها القرويون لبيع منتجاتهم من البيض والقيمر والجبنه والزبدة، وكان القيمر أول المبيعات التي تنفذ لهذا يحرص الكثيرون على التبكير خاصة في صباحات الجمعة حيث يجتمع شمل الأسرة على تناول الإفطار.

كانت الساحة تضيّج بالحياة بعكس الشوارع التي بدت مقفّرة في زرقة الفجر، وعندما وصل أبو ميسون كانت أنوار الشمس قد غمرت ذرى النخيل أما القبة الذهبية فقد بدت تحت دفق النور شمساً هبطت من غور المجرات البعيدة .

عندما عاد أبو ميسون إلى منزله كانت الجدران قد غمرتها أضواء شمس

الصباح وكانت الظلال الوارفة تغطي معظم الحديقة والثيل بخضرتة الزاهية وفي ركن الحديقة بدت شجرة البرتقال عروساً تستحم في شلال من الضوء تحت عريشة العنب فقد كانت مساقط الضوء قد جعلها أكثر جمالاً وبدت السيارة الحديثة تتألق في ذلك الصباح. كان أبو ميسون الذي تجاوز الثلاثين بعامين يشعر بالرضا فقد شعر بأن أبواب السماء قد تفتحت عليه، خاصة عندما ولدت ابنته ميسون.

ومضت تلك الذكرى في ذهنه كقوس قزح فقد اتصلت به أخت زوجته، وبشرته قائلة:

- أبشرك الله رزقك حورية!

وخلال الطريق قفزت في رأسه عشرات الأسماء كغزلان يمرحن في وديان خضراء ... ليلي ... سلمى ... ميساء ... هناء ... هيفاء ... ناهدة ... سميرة ... وشيئاً فشيئاً كانت الغزلان يختبئن وراء الخمائل وعندما وصل إلى البيت لم يبق في ذهنه أي اسم واقفر الوادي تماماً.

وجدها في أحضان زوجته لأولؤة تتألق ... إنها حورية حقاً ... قبل زوجته في جبينها فأشرقت ابتسامه كما تشرق الشمس ثم قبل ابنته، كانت تغفو بسلام ...

قالت أخت زوجته:

- مبروك أبو ميسون الله يحفظها ويصونها من كل شر.

- لم يقل شيئاً اكتفى بابتسامة رضا... التقت نظراته مع نظرات زوجته...
لقد جاءت باسمها.

منذ أن كان في دراسة الثانوية كانت مسألة الأسماء تحيّره، أسماء الناس
وأسماء المدن كيف تظهر وتختفي وكيف تغير المدن أسماءها!!
أنّه يستطيع أن يعرف السبب الذي يكمن وراء اسمه، كثيرون جداً
الذين سمّوا بأسماء الملوك أما من أجل أن يكسب أبناءهم المجد
عندما يصبحون رجالاً أو لأن ولادتهم صادفت اعتلاء ملك أو حاكم
البلاد...

لقد كان غازي ملكاً على العراق وقد صادفت ولادته ذلك فومض
الاسم في تفكير والدته أو والده أو كليهما معاً فإذا غازي الأسدي من قبيلة
بني أسد التي تكاد تنتشر في كل الفرات الأوسط ويهاجر بعض أبنائها إلى
نقاط كثيرة في العراق كما هاجر والده...

انتبه إلى نفسه وهو يدخل صالة استقبال الضيوف متجهاً إلى المطبخ
حانت منه التفاته فرأى زوجته عند سرير ابنته ميسون تداعب شعرها
الذهبي الذي يشبه نبعاً صغيراً يجري فوق الوسادة:

- صباح الخير... اشو عايفه الرضيعة وجالسة عند أم عيون الوسيعة.

- صباح الخير.. تأخرت!!

- تريدن الصدغ اليوم لزمتم أبو إحسان وحقبت له قصة حياتي..

امچلب لي استاد ما استاد... .

- مرة مرتين شايفك شايل كتاب اتصورك استاد.

- هسه ميخالف معلّم.. مدرس مو أستاذ جامعي.

- يا الله يا معود قابل أستاذ الجامعة أحسن منك!!

- القضية غير شي يا أم ميسون... .

وجاء صوت ميسون الطفولي يتخلل ملاءة من النعاس:

- بابا أمي شافت حلم.

قال الأب وهو يقبل ابنته في سريرها.

- ليش هاي أول مرّة ... امچ عايشة بالأحلام.

والتفت إلى زوجته!

- خير انشاء الله؟

لم يجد رغبة لديها في الحديث فغير الموضوع.. .

- ريحة الچاي تفوح.. .

جلس الثلاثة في حديقة المنزل.. لتناول طعام الافطار... طلبت ميسون

استكان شاي فقال الأب:

- العسل والگيمر أطيب بنتي.

- چاي حليب بابا ما يهم!؟

التفت إلى زوجته.

- بنتج عنوديه شويه تدرين؟
- طالعه على أمها مو هذا قصدك؟
وجاء صوت طفل رضيع يهم بالبكاء.
بادرت ميسون ولكن الأم قالت:
- آني حروح.. اختج جوعانه ماما...
قالت ميسون:
- أمي شافتني بالحلم حورية أطير للسماء.
قال الأب وهو ينظر إليها بفرح!
- بابا هذا مو حلم هاي حقيقة.. والله أنت مثل الحورية شعرك خيوط
مثل شمس الصباح.. عيونج يفيضن شهد، الرموش مثل النخيل على
جرف دجلة
ابتسمت ميسون بفرح واستأنف الأب:
- أسنانك مثل اللؤلؤ المنضود...
عادت زوجته تحمل طفلتها الرضيعة قال مخاطباً زوجته:
- لحد الآن أگول ميسون جتنا من السما.
قالت زوجته:
- يمكن حكك لك الحلم؟!
- نص و نص.

- چنت أنه وياك نتمشى بالمحيط وميسون بالوسط بعدين ميسون راحت تمشي بدجله فوگ الماي أنت ركضت عليها لكن ميسون كبرت صارت مثل العروس بعدين شويه شويه راحت ترتفع ... وتطير وعيوننا عليها...

- انشاء الله خير الله يحفظها وتشوف كل الخير ميسون بنية حباة ذكية طالعة على أبوها.

- من عنودية طالعة على امها ومن تكون ذكية حباة طالعة على أبوها؟!
وامتزجت الابتسامات مع رشفات الشاي في تلك الساعة الحاملة من الصباح.

السيارة تتهادى في شوارع بغداد وكانت ميسون تتطلع من النافذة بوجهها البريء وأنسام دجلة من فوق الجسر المؤدي إلى الأعظمية تداعب شعرها الذهبي الأب يقود سيارته على مهل في ذلك الأصيل البغدادي شارع الرشيد العريض حيث تزدهم المحال التجارية والسيارة تجتاز تمثال الرصافي وعينا ميسون تفتحان كنافذتين تنعكس فيهما المرئيات التي تمرّ على هون...

مرّت من أمام سينما علاء الدين ولافته كبيرة ملونة صراع في الوادي بطولة عمر الشريف فاتن حمامة وتصل السيارة إلى الباب الشرقي وساحة التحرير ويبدو نصب الحرية العتيد مهيمناً على المشهد كما بدا تمثال الأمومة

موحياً وهو يتوسط حديقة الأمة...

وعندما وصلوا إلى بيت أخيه في الكرادة كانت الشمس تلامس الأفق
وقد بدت ذرى النخيل تتقد بحمرة أشعتها، قال أخوه وهو يستقبله:
- تأخرتوا!

- طفنا بعض الشوارع ... بغداد اتصير أحلى يوم الجمعة.

- تشربون استكان چاي؟

- ما ظل وقت أبو خولة.

- طلعلنا احنا المطلوبين.

- لا طالب ولا مطلوب.

في ظلال الأشجار في ضريح سيد ادريس على شاطئ دجلة جلسا معاً
قال أبو ميسون.

- أريد ان تبقى بذاكرتها أشياء جميلة وحلوة عندما تكبر...

قاطعة أخوه:

- أنت متشائم كثيراً في رأي الواحد لازم ينظر للمستقبل نظرة أمل.

- والله يا أبو خولة أنا اتعجب أنت مدرس تاريخ... يقولون التاريخ
يعيد نفسه.

واستطرد هامساً:

- ليش أنت نسيت الحرس القومي وفضائهم!؟

- لحد الآن ماكو شي صافيه دافية.

- صافية؟! قبل أيام طلع سيد مهدي جاسوس والله الساتر من المستقبل!

هذولة عندهم نية كشره.

جاء صوت زوجته وكانت مشغولة بالحديث مع أم خولة على مقربة

من النهر.

- الشموع حاضرة حتى خولة و شياء يعني كل واحد شمعة.

نهض أبو ميسون وأوقد سبع شموع وانحدروا إلى الجرف. كانت مياه

دجلة تلامس الشيطان برفق وكانت تحمل شمعتها على صحن خشبي وقد

تشبشت بوالدها ملأت رائحة النهر انوفهم .

قال أبو خولة:

- صاير تدور خرافات هاي الأيام!

- أبو خولة والله راح تتحسر على مثل هاي الأيام.

بدت الشموع في ظلمة الغروب كسفن الأحلام وكانت ميسون تراقب

شمعتها بفرح وانتشاء، أغمضت أم ميسون عينيها وكان مرادها أن ترى

ميسون في حفلة العرس و ثياب الزفاف...

ومضت في ذاكرتها مشاهد من عرسها ومراسم الزفاف في الكاظمية له

مشاهد لا يمكن أن تنسى .

شطان الفرات - 2

لشهر محرم نكهة حزن خاصة لا يدركها إلا أهل الجنوب وسكان
الفرات الأوسط ... حتى المدن المقدسة تفتقد هذه المسحة من الأسى الذي
يعتصر قلوب الناس الفقراء...

حلّ الحزن في الرفاعي كما هو شأنه في كل عام إلا أن هذا العام قد بدا
جديداً في أساه بعد رحيل السيد محسن الحكيم وما شاع أنه توفي بعد اتهام
ابنه سيد مهدي بأنه جاسوس!

وما تزال مشاهد تشييعه الذي استمر ثلاثة أيام من بغداد إلى النجف
مروراً بكربلاء ماثلة في العيان وكيف دخل الجيش حالة الانذار «جيم».
استمرت مجالس العزاء اربعين يوماً في كل أنحاء العراق وكانت
الرفاعي ترتدي ثوب الحزن لكثرة الذين يقلدون المرجع الراحل الذي ملأ
جوامع العراق بالمكتبات فأصبح للجامع دور ثقافي وفكري وواجهة
عصرية.

صادف شهر محرم فصل الخريف ما ضاعف من مشاعر الناس بالحنين والأسى أما الأطفال فكان لهم شأن آخر... فقد بدأوا في تحضير الأعلام والسيوف المصنوعة من العصي والدرق من علب الزيت الكبيرة..
فيما كان الكبار يستعدون لإقامة التشابيه في يوم العاشر من المحرم والفتيات والنسوة لعرس القاسم واعداد صواني الشموع والحناء وعيدان البخور..

حتى الطبيعة تكتسب ملامح تاريخية قديمة فالشط يبدو شط الفرات والنخيل الممتد على ضفاف نهر الرفاعي يمثل المشرعة والساحة الممتدة من الضفاف وحتى حقول الحنطة ستكون أرض الطفوف .
الشرية على ضفاف الشط سيكون معسكر يزيد، أما أصحاب الحسين فسيكون مخيمهم على مشارف الحقول بعيداً عن النهر.

سبق الصغار الكبار في إقامة التشابيه إذ انطلقوا في السادس من المحرم إلى تخوم المزارع وقد انقسموا إلى فريقين، فريق مؤلف من عشرين صبياً تتراوح أعمارهم بين السابعة إلى الثالثة عشر من العمر وفريق صغير مؤلف من سبعة أطفال وبأيدي الجميع سيوف خشبية ودرق وكان حسام مع الفريق الصغير وكان يجب أن يمثل دور أبي الفضل الذي يهزم الأعداء مرتين.

راح فريق يزيد المؤلف من داغر وجسام وصغبان يجولون عند الساقية

وقد ملاؤا الفضاء ضجيجاً بصياحهم:

«الدولة دولة يزيد الدولة دولة يزيد!».

كان حسام قد أكثر من ملازمة جدّه وكان يسأله عن يوم العاشر وما جرى في كربلاء وحفظ بعض الأشعار خاصة أشعار أبي الفضل عندما قطعوا يديه وهو يحاول جلب الماء للأطفال.

وقد اقنع حسام أخته أن ترتدي عباءة أمها وتحمل دميتها وكذلك فعل خليل الذي مثل دور الإمام إذ أحضر معه ابنة عمته الصغيرة كان الضجيج ما يزال يعلو!

الدولة دولة يزيد الدولة دولة يزيد

انطلقت صرخة من فريق الإمام:

«الله أكبر الله أكبر» وهجم ثلاثة منهم فاشتبكوا مع فريق يزيد وكانت صوت العصي وهي تتلاقى مثيراً وسقط الثلاثة صرعى وتظاهر جنود يزيد بقطع رؤوسهم وهنا هجم حسام فبدهم...

وفي هجوم آخر كان يحمل القربة فوصل إلى الساقية بعد قتال شديد واستطاع أن يملأ القربة بالماء ويعود ولكن ...

وكان صوته ينطلق أثناء المعركة:

والله إن قطعتموا يميني إني أحامي أبداً عن ديني

وتنتهي المعركة مع سقوط الجميع بينما يعلو هتاف:

«الدولة دولة يزيد الدولة دولة يزيد».

وخلال الأيام التي تلت ذلك كان حسام يتساءل في نفسه بدهشة كيف ارتضى كل هذا العدد من اترابه أن يكونوا مع جيش يزيد ويهتفون بحناجرهم: الدولة دولة يزيد؟! كيف?!

في صباح يوم العاشر من المحرم كانت المنطقة المحاذية لحقول القمح والتي تنتهي من طرفها الآخر عند الشط قد أعدت لتكون مسرحاً للتشابه فقد نصبت بعض الخيم الصغيرة والكبيرة عند حافة الزرع وظهر شبان ورجال يرتدون ثياباً يغلب عليها اللون الأزرق الفاتح والأخضر البراق وكان الأطفال يرتدون ثياباً وردية اللون...

وعلى حافة النهر كانت الخيام التي ترمز لجيش يزيد من اللون الذي يشبه بدلات الجنود المشاة أما الرجال فقد غلب على أزيائهم اللون الأحمر، وقد شهروا سيوفهم التي كانت تبرق كجلود الأفاعي...

تميز هذا العام عن الأعوام السابقة باستعدادات أكثر من حيث كثره المشاركين في المعسكرين وحماس الجميع، وأيضاً حضور مفرزة مسلحة من الشرطة أوقفت سيارتها قريباً من معسكر يزيد وحضور شخصيات عشائرية في طليعتها شيخ عشائر بني ركاب حربي آل مزعل وحضور شيخ وصل من النجف الأشرف قيل أنه وكيل يمثل السيد محمد باقر الصدر.

كان جنود يزيد يقرعون طبول الحرب ويجولون في ساحة المعركة

ويقومون بحركات استفزازية متوعددين أصحاب الحسين بالقتل والذبح.

كان قد انبرى إلى تمثيل دور الحسين رجل وقور من السادة وقد بان الشيب على لحيته.

وكان رائعاً في وقفته التي عبرت عن بطولة واباء ممتزجة بالمظلومية، حتى أن النسوة - خاصة النسوة اللائي اجتزن مرحلة الشباب - قد شرعن بالبكاء لمشهد الرجل وقد حف به صبية وأطفال والى جانبه وقف شبيه أبي الفضل العباس وهو يرتدي لامة الحرب وكانت الراية الخضراء التي خط عليها:

«نصر من الله وفتح قريب» تخفق فوق هامته.

ويبدو ان الجمهور قد اندمج بالمشهد بعد ما علا صوت شبيه الحسين بالخطاب وسط قرع الطبول...

- أيها الناس إن الله تعالى خلق الدنيا فجعلها دار فناء وزوال متصرفة بأهلها حالاً بعد حال فالمغرور من غرّته والشقي من فتنته فلا تغرنكم هذه الدنيا..

تزايد قرع الطبول والتشويش على الخطاب الحسيني الذي حرص الشبيه على إلقائه بطريقة الشيخ عبد الزهرة الكعبي الذي منع بشه عبر الإذاعة.

وتطور الوضع عندما قام جنود يزيد برمي السهام فالتفت الحسين إلى اصحابه قائلاً:

- قوموا إلى الموت الذي لا بد منه فإن هذه السهام رسل القوم اليكم.
والتحم الفريقان في القتال وقد التهب شعور الجماهير حتى خيل إليهم أن ما يجري هو حقيقي وواقعي وليس بتمثيل.

وهوى عدد من أصحاب الحسين صرعى على الأرض وراح أبو الفضل وعلي الأكبر يحملان الشهداء إلى داخل خيمة وعلا البكاء والنحيب عندما وصل الدور إلى أهل البيت في الاستشهاد والواحد بعد الآخر ولم يبق سوى أبي الفضل وكانت الراية ما تزال تخفق..

وعندما استأذن أخاه في الهجوم علت أصوات طفولية: تهتف بحرقه وألم: العطش العطش.

كان حسام مأخوذاً بما يجري وكانت قبضته تشد على حجر فقد صمم مع صديقه خليل على رمي الشمر بعد انتهاء المعركة..

لمح الحاج حامد حفيده وعرف أن حسام سوف يقوم بذلك وتصوّر ما سيحصل فابتسم على الرغم منه وقال:

- ابني! أنه مجرد تمثيل.. بارك الله فيك وفي غيرتك واجرك على الحسين..
ولكن ما ذنب هؤلاء المساكين.

نظر حسام إلى جدّه وتراخت قبضته وسقط الحجر من يده أما

صديقه خليل فقد اختفى..

لم ينتبه الناس إلى حضور سيارة أخرى للشرطة الذين يعتمرون بيريات حمراء اللون... ترجلوا من سياراتهم ووقفوا قريباً جداً من جيش يزيد حتى بدوا جزءاً من معسكر بني امية .

حان الوقت لهجوم أبي الفضل الذي راح يودع أخاه بشكل مؤثر... ووفقاً لما جرت عليه العادة فإن للعباس ثلاث حملات وفيها يخلخل جيش يزيد ويلحق به هزيمة ساحقة. وفي الحملة الثالثة من أجل ملء القربة بالماء وصل في حملته إلى شرطة الانضباط الذين كانوا يعتدرون البريات الحمر وقد شاهدوا في عينيه ما ينذر بالخطر فولوا هاربين مع من هرب من جنود يزيد .

وانتشى الجمهور بسكرة النصر الذي يراه بأمر عينيه ولكن العباس كان في طريق العودة وتكالب عليه الجموع تكالب الذئب فيصيح باعلى صوته..

- السلام عليك يا أبا عبد الله.

وهنا ينتضي الحسين سيفه ويهجم كالليث الغضبان فيتفرق عنه الاعداء ويجلس الحسين عند رأس أخيه الذي ودع أخاه...

ويعود الحسين إلى المخيم وقد بدا منكسر الظهر لفقده أخيه وحامل الراية..

ويحتفُّ به الأطفال والنساء، يتعلقون به ويبكون ويودع الحسين عياله ويشنّ هجومه الكاسح على جيوش يزيد الذين يتبعثرون قرب الشاطئ... .

وعندما وقف ليستريح يتلقّى الحسين سهماً غادراً يصيب قلبه أو هكذا يبدو فينظر إلى السماء ثم يهوي صريعاً وتهوي الراية فوق الثرى.. وتنبعث من الجمهور صيحات الأسى والبكاء ويبادر الشمر فيرتقي على صدر الحسين.

وهنا حدث ما لم يخطر على الأذهان إذ يصيب حجر رأس الشمر الذي يصرخ ألماً لكنه يبادر إلى استكمال مهمته في ذبح الحسين. وفي هذه اللحظة يتغير الجوّ فقد قام النسوة بالقاء التراب على رؤوسهن وعلا صوت العويل لتتحول تلك البقعة إلى مناخة كبرى..

كان رجال الشرطة من ذوي القبعات الحمر قد استعدوا لإلقاء القبض على بعض الأشخاص من الفريقين بتهمة الفرار من الخدمة العسكرية.. وكانت وتيرة الفرار من معسكرات الجيش قد زادت بشكل ملحوظ بعد انتشار فتوى السيد الحكيم بحرمة محاربة الاكراد....

شطان الفرات - 3

يمكن لمن يمرّ ذلك المساء الخريفي من أمام الدار التي يقطنها وكيل السيد الصدر والذي عرف بالشيخ ابو محمد ان يسمع طرفاً من الحوار الذي دار بينه وبين شيخ حسين وهو شاب من أهالي الرفاعي قصد النجف للدراسة الدينية وقد عاد إلى أهله في شهر محرم وصفر حيث تعطلت الدراسة في الحوزة العلمية بالنجف خلال موسم الحزن .

ولو أرهف المرء سمعه لسمع صوت أحد الشبان وكان نادراً ما يتكلم إلا ان السامع لن يفهم مما يدور شيئاً فقد امتزج مع صوت حزين غير مألوف لشخص يتحدث من دون توقف.. وكان الصوت الذي ينطوي على رنة أسى يمتزج مع أصداء هوام الليل في ذلك المساء الخريفي بالقرب من الشط:

- ان كل محنة لها جانبها الموضوعي وجانبها الذاتي، فلا بدّ - بالاضافة إلى التفكير في الجانب الموضوعي الذي تتولى التفكير فيه الجهات المسؤولة عن تلك المحنة - لا بد للممتحنين جميعاً أن يفكروا في الجانب الذاتي من المحنة أيضاً وأن يعيشوا المحنة كعملية تطهير لأنفسهم وتزكية لأرواحهم وتصميم على التوبة

من التقصيرات المتراكمة المتدافعة التي عاشوها عبر حياتهم العملية والعلمية، هذه التقصيرات قد لا يحسّ بكل واحد منها على حدة.. لكنها حينما تتراكم تتحول إلى فتنة تأكل الاخضر واليابس... تأكل من ساهم ومن لم يساهم... تأكل من قصر ومن لم يقصر... حتى الحسين نفسه أكلته الفتنة بالرغم من أنه كان أنظف الناس وأبعد الناس عن كل تقصير في قول وعمل...

قال شيخ حسين:

- متى ألقى السيد هذه المحاضرة.

قال الشيخ أبو محمد:

- في صفر العام الماضي في أواخر شهر صفر.

وجاء الصوت الحزين.

- أضرب لكم مثلاً قبل أن نأتي إلى الموضوع الذي نتحدث عنه هناك محنة

يعيشها العراق منذ سنين وسنين... محنة صراع مسلح بين أخوين مسلمين في

الشمال... بين بعض الاكراد وبعض العرب هذه محنة يعيشها العراق...

قد يخطر على بال الإنسان.. يعني قد يكون شعور بعض الناس ازاء

هذه المحنة أن هذه المحنة كلفته ولده... كلفته أخاه.. كلفته صديقه...

لأنه أخذ أخوه أو أخذ أبوه أو أخذ صديقه للمعركة فقتل قد يعيش هذه

المحنة على هذا المستوى ويشعر بها بهذه الدرجة وهذا هو الشعور

الشخصي المحدود بالمحنة.. وموقفه ازاء هذا الشعور أن يهرّب أخاه، أن

يهرّب أباه.. أن يتهرّب من واجبات القانون حتى لا ينخرط في مأساة من

هذا القبيل ولا يرى واجباً وراء ذلك..

وأخرى يتعمق هذا الشعور أكثر فأكثر، فيكون شعوره ازاء المحنة شعوراً إقليمياً على أساس أن أبناء البلد الواحد يتصارعون ويتنازعون فيما بينهم، وهذا الشعور والانفعال الأقليمي تجاه المشكلة يؤدي إلى اتخاذ موقف أوسع من الموقف الأول... إلى موقف يفكر فيه بأنه كيف يعيد الصفاء والسلام إلى أبناء البلد الواحد.

وقد يكون شعوره أعمق من هذا وذلك... قد يشعر ولا يرى واجباً وراء ذلك..

وقد يكون شعوره أعمق من هذا وذاك... قد يشعر بأزاء المحنة أن هذه المحنة هي نتاج عدم تطبيق شريعة الله على هؤلاء المسلمين إن عدم تطبيق شريعة الله عليهم هو الذي أدى إلى تعميق التناقض بين الأخ وأخيه حتى ولدت مشكلة بين هذا وذاك وتصارع الكردي والعربي وكذلك المحنة التي نعيشها الآن.

تساءل الشاب:

- ماذا يقصد السيد بذلك؟

قال الشيخ أبو محمد:

- محنة تسفير الطلبة الايرانيين والباكستانيين.

وعلق شيخ حسين:

- أصبحت النجف كربلاء ثانية.

- انهم يستهدفون تدمير الحوزة.. تحطيم هذا الكيان.
- السيد يستشعر الخطر أنه يتصوره على الأبواب لهذا فهو يذكر مأساة الفقيه محمد بن عمير الذي تعرّض لتعذيب رهيب على أيدي جلاوزة هارون وكانوا يطلبون منه الكشف عن أسماء تلامذة الإمام الصادق ولكنه صمد. يقول أنه انتابته لحظة ضعف أثناء التعذيب وأراد الاعتراف لكن تمثّل له أستاذه حمران - وكان قد توفي - يقول له: يا محمد إياك أن تنطق بكلمة ولو مت تحت السياط....

وجاء صوت السيد حزينا لكنه ينطوي على أصداء من الإباء والبطولة.
- حمل هكذا إلى بيته بعد أن عجزوا عن استنطاقه ثم صودرت أملاكه.
كان بزازاً تاجراً واسع النطاق في الثراء والمال واصبح بين عشية وضحاها إنساناً فقيراً لا يملك شيئاً.

تساءل شيخ حسين:

- ترى هل يعيد التاريخ نفسه كما يقال!؟

- من يدري غير اني اؤمن بأن السيد يرى ما وراء ستار المستقبل أنه يرى أهوالاً سوف تحدث ولهذا فإن المرء يلاحظ في عينيه حزناً وأسى أكاد أرى في عينيه سماء ملبّدة بالغيوم... حتى صوته ينطوي على نبرة من حزن جنوبي. اسمع هذا المقطع.

وجاء صوت السيد يقول:

- من أعظم مظاهر هذا الشعور بالمسؤولية هو الشمول.. يعني أن

يكون هذا الانفعال وهذا الغضب وهذا الشعور بالألم.. ان يكون هذا الألم
المأ يعيشه كل أبناء هذا الكيان لا أن يعيشه من يواجه النار وجهاً لوجه...
يجب أن يشعر اي واحد منا بأن الجسم الواحد إذا قطعت يده اليمنى أو
قطعت يده اليسرى فليس بإمكان اليد الأخرى أن تقول: أنا في أمان لاني
أنا لم أقطع قطعت اليد الأخرى وأنا لم أقطع لأن إحدى اليدين إذا قطعت
فاليد الأخرى سوف تشل عن العمل في لحظة عاجلة أو آجلة حتماً.
ثم أولئك الذين يواجهون الأحداث وجهاً لوجه يجب ألا ينهاروا...
ألا يفقدوا إرادتهم بين ساعة وأخرى يجب أن لا يشعروا بأن حل المشكلة
هو أن يغادروا أرض الله الطيبة هنا.

قال ابو محمد:

- لقد بدأت ظاهرة النزوح من النجف اعني عودة الطلبة إلى ديارهم
سواء في الداخل أو الخارج وإذا استمر الوضع على هذا المنوال فإن كيان
الحوزة سوف يتفتت بعد سنوات قلائل.

وحدثت ضجة في هداة المساء فخرج شيخ حسين ومعه الشاب
لاستطلاع الأمر.

وعادا بعد مدة كان شيخ حسين يضحك، سأله ابو محمد:

- ماذا وراءك؟

- الشمر معصوب الرأس ويطارد أخاه!

- لا أكاد أفهم!

- ألم تتبه للمشهد اليوم عندما أراد الشمر ذبح الحسين تلقى حجراً على رأسه.. وتبين أن أخاه هو الذي عصّبه بذلك!!

استطاع خليل الافلات ولجأ إلى بيت صديقه حسام وهذه خامس عملية هروب بعد أن نجح أربعة من الفارين من الخدمة العسكرية في الهروب من قبضة ذوي القبعات الحمر..

وكان الأهالي قد ساعدوا الفارين على الافلات ..

كانت أسرة الحاج حامد تصغي إلى ما يقوله خليل وكان خليل يروي قصته وملامح من خوف يشوبها دهشة تنعكس على وجهه البريء قال:
- ما خطر في بالي أن يكون الشمر هو أخي لقد كان ملثماً.

قال الحاج حامد:

- ومن تظنه سيكون؟ إنه أحد أبناء هذه المنطقة.

- لم أفكر في ذلك أبداً لقد تراءى لي أنه الشمر وشعرت بنار الغضب تستعر في قلبي.

وفي الاثناء سمعت طرقات على الباب وحدث الجميع هوية الطارق.

فتح الحاج حامد الباب بنفسه فجاءه صوت ابو خليل:

- جئنا لنشرب الشاي عندكم.

لم يكن وحده كان معه ابنه فيصل وهو معصوب الرأس..

بعد أن استقر المجلس قال الحاج حامد:

- الزلّة دخيل والدخيل بأمان.

قال الأب وكان قد تجاوز الخمسين بقليل .

- ترضون يضرب رأس أخيه .

- لا والله ما نقبل لكن هو ضرب الشمر .

- هذا لف ودوران يا حجي !!

- على كل حال الله سبحانه يقول: وإن تعفوا أقرب للتقوى .

- على العين والرأس بشرط لا يكررها .

ابتسم الحاج حامد:

- السنة الجاية هو متحلف لابن سعد .

وتشعب الحديث إلى الزرع والأرض . ونهضوا قبل انتصاف الليل وكان خليل قد داخله شعور بالزهو فقد عومل باعتباره زلمة . أما حسام فقد ظل يتساءل في نفسه هل كان صديقه مخطئاً في فعله ومن هو من هو المذنب في ذلك؟ لماذا رضي فيصل أن يقوم بدور الشمر ولماذا ارتضى مجبل دور حرملة وكبرت اسئلته لتصل إلى قوله إذا كان الناس يحبون الحسين فلماذا سمحوا بقتله؟!

لم يكن حسام بالرغم من ذكائه ليستوعب ما يجري وما سيجري في الآتي من الأيام سوف يكبر ويكبر جيله وأبناء منطقتة وسوف تتوزعهم دروب الحياة سيؤدي دوره في الحياة سيصبح بعضهم من ذوي القبعات الحمر وبعض سيؤدي دور المطارد والمشرّد.. قد يصبح أخو خليل سجّاناً وضابط استخبارات وقد يؤدي خليل دور مسلم بن عقيل يطارد فلا يجد مأوى أو ملاذ.. وربما يصبح فلان وفلان الذين يشاركونهم في اللعب

والسباحة في النهر جنوداً في جيش ابن سعد من يدري!
في مساء اليوم التالي وبعد أداء صلاة العشاء وكالمعتاد كان حسام يرافق
جدّه وقد جاء دور المنبر الحسيني فارتقى المنبر وكيل السيد الشيخ ابو محمد
وراح يتحدث عن المجتمع ثم ساق الكلام إلى حديث للإمام زين العابدين
نجل الإمام الحسين:

- يقول سيد الساجدين زين العابدين على بن الحسين عليهم السلام.
وهو يتحدث عن عصره: «الناس في زماننا على ست طبقات أسود
وذئاب وثعالب وكلاب وخنازير وشياه... فإما الأسود فملوك الدنيا يجب
كل واحد أن يغلب ولا يُغلب... وأمّا الذئاب فتجاركم يذّمون إذا اشتروا
ويمدحون إذا باعوا وأمّا الثعالب فهؤلاء الذين يأكلون بأديانهم ولا يكون
في قلوبهم ما يصفون بألسنتهم، وأمّا الكلاب فيهرّون على الناس بألسنتهم
فيكرّمها الناس من شرّ ألسنتها وأمّا الخنازير فهؤلاء المخنثون وأشباههم لا
يُدعون إلى فاحشة إلا أجابوا وأمّا الشياه فهم المؤمنون الذين تجرّ شعورهم
وتؤكل لحومهم وتكسر عظامهم... فكيف تصنع الشاة بين أسد وذئب
وكلب وخنزير!!؟»

دجلة - 2

أجواء محرّم واضحة في مدينة الكاظمية فالأعلام والرايات السود واللافتات كبيرة وكثيرة وكلما ابتعد المرء عن مرقد الإمامين الكاظميين تقل نسبة مظاهر الحزن، كانت هناك بعض الأعلام في الشارع حيث يقع منزل أبو ميسون في منطقة علي الصالح..

انفتح الباب وخرجت سيارة وعندما اخذت موقعاً في جانب الرصيف من الشارع ترجل أبو ميسون، كان يرتدي بدلة داكنة اللون وقميصاً أسود فهو يعتقد بأن محرّم هو شهر حزن ويجب ارتداء السواد طوال الشهر.

نادى:

- يا الله شويه بسرعة ورانا مشوار طويل.

- حاضر.

أجابت أم ميسون وهي تحث اختها وابنتها على الاسراع كانت تمسك بيد ابنتها التي تبلغ من العمر ثلاثة أعوام.

وجاءت ميسون مع خالتها وفتحت الباب الخلفي للسيارة تساءل:

- هل أقفلت الباب في الداخل.

- نعم.

وانسابت السيارة تشق طريقها في ذلك الصباح الخريفي...

قالت ام ميسون:

- انشاء الله ساعتين ثلاثة ونصل النجف.

وبلهجة فيها شيء من التهكم علّق أبو ميسون :

- مضبوط!

- المسافة كلها ١٣٠ كم!

- اضربي الرقم في أربعة.

- ليش يابه؟!

- أنت ما حاسبه حساب السيترات بالطريق.

فتح راديو السيارة وجاء صوت المذيع هنا: إذاعة بغداد تقدم لكم الآن
اغنية لا خبر لا... غير الموجة ثم أطفأ الجهاز كانت السيارة قد وصلت إلى
ساحة التحرير وظهر نصب الحرية...

كانت بغداد هادئة إلى حد ما في ذلك الصباح الحزين.. لم تكن هناك أية
لافتة سوداء او أعلام ولكن بدا المكان حزيناً انها النفس الإنسانية ترى
الأشياء كئيبة إذا مستها موجة حزن وتراها راقصة طروب إذا رجتها
هزّات الفرحة...

لوهلة اشتعلت في ذاكرته ضجيج مظاهرات قديمة في زمن عبد الكريم
قاسم بعد فشل حركة الانقلاب بقيادة عبد السلام عارف.
- لا تكول ما عندي وكت اعدم ... اعدم.
الما يصفق عفلقي والحبال موجودة ...
- هاي شبيك أبو ميسون انتبه للطريق.
- تذكرت الشعارات أيام زمان والآن العفالقة بالحكم والناس يهتفون:
كل الشعب وياك يا مجلس الثورة ... بعدها لما جاء السيّد إلى بغداد الناس
طلعوا بالآلاف يهتفون: كل ارواحنه فدوه لأبو يوسف!
- فدوه ارواح لك لا تدخلنا بالسياسة هؤلاء لا يرحمون صغير ولا كبير
والدي الله يرحمه من سمع بالانقلاب سقط من ايده استكان الشاي وقال:
الله يستر رجعوا الحرس القومي!
وفيا كانت السيارة تعبر نهر دجلة
جاء صوت خالة ميسون.
- عيني ميسون اين وصلت بدرس القراءة
كانت ميسون ومن شدة تعلقها بالمدرسة قد احضرت معها كتاب
القراءة الخلدونية قالت:
- خالة وصلت: إلى متى يبقى البعير على التل؟ إلى المساء. من طوى
ردائي؟ سلمى طوت ردائي.

قالت ذلك وراحت تتصفح كتاب القراءة وظهر البعير واقفاً على التلال التفت ام ميسون إلى زوجها وقالت:

- وصل البلاغ للمدرسة حول القراءة الخلدونية المديرية ابلغتنا أن كتاب القراءة هذا حيلغي من المنهج الدراسي السنة الجاية.

انتظرت تعليقاً من زوجها فرأته يؤثر الصمت فحولت نظرها إلى الجانب الآخر تراقب رتل السيارات الذي راح يخفف من سرعته..

ذهن أبو ميسون سرح إلى ما يخبئه المستقبل وقال في نفسه: إلى متى يبقى البعير على التل؟!!

وصلوا إلى مدينة البياع في تخوم بغداد.. لاحظ ان السيارات التي تسبقه بدأت تخفض من سرعتها بشكل واضح.

- بدت لغاوي التفتيش هذه سيطرة الدورة.

اصطفت السيارات في طابور طويل.

- من هنا نبدأ باحتساب الوقت الضائع.

- ماذا يفتشون؟!!

- الحقائق والسيارات.

- ليش احنا وين مسافرين؟ قابل حروح إلى بلد اجنبي؟

- من سافرت للكويت ما كان تفتيش مثل هذا!

- طول بالك.

ووصل الدور وظهر شخص يتسم وجهه بالصرامة مع شارب كث:

- مرحبه أخي

- أهلا بيك

- هويتك

ابرز له بطاقة نظر فيها ودون أن يحول بصره عنها قال:

- وين تسكن!

- بغداد

- بغداد كبيرة

- على الصالح

- لوين رايح؟

- النجف

- الزيارة

- نعم زيارة أقارب

اعاد له الهوية قائلاً:

- افتح الصندوق

ترجل أبو ميسون وفتح صندوق السيارة وراح الرجل يعبث في

الحقيبة.. التفت إلى أبو ميسون قائلاً.

- تفضل .

وغادرت السيارة بغداد واستوت على الطريق العام وظهرت مجاميع من

الناس من مختلف الاعمار بعضهم يحمل أعلام سود أو خضر.
كان مشهد أولئك الناس وهم يقطعون المسافة إلى كربلاء مشياً على
الأقدام مهيباً ومؤثراً قالت أم ميسون.
- هنيئاً لهم على هذا الإيمان .
- صدق من قال حب الحسين أجنّني .. هؤلاء ليسوا مؤمنين فقط هؤلاء
عشاق ..

وخلال الطريق كانت نقاط التفتيش كثيرة حتى ان أم ميسون قالت:
- ليش كل هذا التفتيش؟؟
- هؤلاء يريدون أن يرهبوا الناس .. اسألني والدك عن الحرس القومي.
مضت ثلاث ساعات إلى أن وصلوا مدينة الكفل وكان حدس أبو
ميسون صحيحاً حتى أنهم بعد أن وصلوا الكوفة كانوا قد اجتازوا الكثير
من نقاط التفتيش قال أبو ميسون.
- هذا الطريق أهون من طريق كربلاء فهناك ما هو ادهى وأمرّ .
ساد الصمت لحظات وكانت السيارة تخترق طريقاً تنتشر على جانبيه
الأشجار وعبرت السيارة نهراً صغيراً... قال أبو ميسون:
- هنا منطقة حلوة على نهر الفرات نرتاح فيها ما رأيكم؟
لم يسمع جواباً نظر من خلال المرأة كانت ميسون نائمة في حضن
خالتها والخالة هي الأخرى قد غلبها النوم .. اما زوجته فقد التزمت

الصمت يبدو انها كانت مستغرقة في الفكر أو أتها على وشك أن تغرق في بحيرة رائعة من خدر النوم ابتسم أبو ميسون وخفض من سرعته وراح يقود السيارة على مهل في طريق فرعية خالية وبعد دقائق اصبح الطريق في محاذة نهر الفرات فبدأ مشهد الفرات تلك الظهيرة العظمى أخاذاً... على ضفاف هذا النهر وقبل ثلاثة عشر قرناً دارت في مثل هذه الأيام أعظم معركة في تاريخ الإنسان... بحيث يبقى اسم البطل قوياً وفي ذروه العنفوان وتبقى كلماته ترنّ في سمع التاريخ: هيهات منا الذلّة.. ويهتف عشاقه على مرّ العصور والاجيال: ابد والله ما ننسى حسيناه... وراح أبو ميسون يسترسل في أفكاره هل كان يفكر في الماضي.. الحاضر.. المستقبل... لا أحد يدري وأفاق إلى نفسه على صوت ميسون.

الفرات - 4

كان الضباب كثيفاً وجائماً على الأرض الموحلة في صبح ذلك اليوم من أخريات كانون الثاني، درجة الحرارة كانت منخفضة ما جعل البرد قارساً والسماء مثقلة بجبال من الغيوم وفي مثل هكذا جوّ حيث تختفي الظلال تفقد الأشياء لونها أو تبدو باهتة لا لون لها.

ذهب حسام إلى مدرسته في أطراف المدينة الصغيرة وسلك طريقاً غير طريقه المعتاد بسبب الوحل الذي يجعل من السير في بعض الطرقات أمراً شاقاً، كان يضع يديه في جيبه وقد تأبط حقيبته ومرّ في طريقه بالمسجد فلفت نظره الباب إذ كان نصف مفتوح لكنه واصل طريقه نحو المدرسة فوصل مع رنين الجرس.

دخل التلاميذ في صفوفهم وجلس حسام في رحلته القريبة من السبورة وساد السكون، تناهى إلى سمعه أصداء موسيقى لم يكن قد سمعها من قبل، وجاء معلم الجغرافية وهو من أهالي الشطرة فبدأ بإلقاء مادّة الدرس وبين فترة وأخرى كان يقترب من باب الصف عندما ينقطع صوت

الموسيقى محاولاً سماع صوت المذيع كانت ملامح الفرح واضحة في وجهه لم يهتم حسام بالأمر وقد انصرف إلى كتاب الجغرافية المفتوح أمامه، كان حسام مجدداً في دروسه وقد اظهر تفوقه في وقت مبكر واصبح معروفاً لدى الجميع حتى مدير المدرسة كان يتسم له كلما رآه... فقد جمع الذكاء إلى الخلق والأدب وكان يبدو أكبر من سنّه.

رنّ جرس الفرصة وقد فضل معظم التلاميذ البقاء في الصفوف بسبب البرد... كان الضباب ما يزال جاثماً ومن خلال نوافذ المدرسة كانت الحقول قد اكتنفها الضباب الكثيف...

وبعد أن رنّ الجرس للمرة الثالثة حضر مدرس الحياتيات الذي بدا ساهماً يكثر من النظر من خلال النافذة إلى السماء الملبدة بالغيوم.لقى المدرس نظرة على السبورة ثم التفت إلى حسام وطلب منه ان يحضر طباشير ملوّنة..

أسرع حسام إلى غرفة الإدارة وطرق الباب مستأذناً كان صوت الموسيقى العسكرية ينبعث من جهاز راديو موضوع على رف النافذة وكان المدير قد أدار وجهه باتجاه النافذة اشار بيده إلى حسام من دون أن يلتفت وكأنه يعرف سبب حضوره...

ومن علبة كارتونية صغيرة أخذ حسام ثلاثة أصابع من الطباشير وفي خروجه ألقى نظرة على المدير الذي بدا نهياً لأفكار لا نهاية لها...

عاد حسام إلى منزله كالعادة كان يتوسط صديقه خليل وجابر وخلال دقائق افترقوا وأخذ كل واحد طريقه...

وجد أخته تنتظره وقد ارتدت حلتها المدرسية إذ عليه أن يوصلها إلى المدرسة في مثل هذا الجو. كانت والدته فيما سبق تقوم بهذه المهمة ولكن بدت تعاني من آلام في الظهر فطلب منها أن يقوم هو بهذه المهمة. وقد ابتهجت الأم كذلك إذ رأت في عينيه شهامة مبكرة لم تجدها حتى في زوجها حتى انها قبلته ورفعت كفيها إلى السماء أن يوفقه الله ويحميه من كل سوء...

وكانت أنعام أكثر سعادة فهي تحب أخاها بشكل عجيب أشار انتباه الأم...

كان حسام يحنو على أخته الصغيرة ويساعدها في درس الحساب ويشجعها على الدراسة وهي لا تنسى العروسة التي اشتراها لها عندما نجحت في الصف الاول... وقد بلغ تعلقها بدميتها انها كانت تأخذها معها إلى المدرسة وتضعها إلى جانبها عند النوم...

حلّ المساء وما تزال الشمس غائبة وراء اكوام السحب، كانت أم حسام قد اسرجت الفانوس الذي راح يبدد الظلام في الحجرة جلس حسام قرب المدفأة التي طالما سبح في خيال لهبها الأزرق أنه يذكر جيداً اليوم الذي اشتراها ابوه عندما ذهب إلى الناصرية قبل عامين وشدّته جملة: «دجلة

ذات اللهب الأزرق»... وتمنى وقتها أن يرى نهر دجلة..
لم يأت الحاج حامد كما هي العادة بعد صلاة العشاء وكذلك والد
حسام وعرف حسام من خلال أمه انهما في مضيف شيخ حربي.
تناول عشاءه بصمت ثم نظر إلى أمه كما لو أنه يستأذنها في الذهاب إلى
هناك... وادركت الأم رغبته فطلبت منه أن يأخذ معه علبة التبغ إلى جدّه
حيث يلف معظم الرجال سجائرهم بأنفسهم... فرح في داخله فقد
وجدت له والدته سبباً في الذهاب إلى المضيف.
أخذ المصباح اليدوي وانطلق إلى المضيف... كانت السماء تنث مطراً
ناعماً وتألقت قطرات المطر في دائرة الضوء. عندما وصل باب المضيف
الكبير المصنوع من حزم كبيرة من القصب والبردي لاح له الموقد الكبير
الذي يتوسط المضيف وقد استقرت دلال القهوة إلى جانبه ما أثار انتباهه
واستغرابه، هو صوت الموسيقى العسكرية ينبعث من جهاز راديو كبير..
كان الوجوم يسيطر على الوجوه... قال حسام وهو يجتاز عتبة المضيف:
سلام عليكم واتجه نحو جدّه ويده علبة التبغ التي بددت نظرات الدهشة
التي أطلقها والده .
سمع في طريقه جواباً لتحيته من هنا وهناك وادرك الجّد أن حفيده لم
يأت من أجل ايصال علبة التبغ لهذا أوماً لحفيده بالجلوس وأفسح له أبوه
إلى جانبه مكاناً فاستقر به .

كانت أمواج الدفء التي أشاعها الموقد في المضيف قد نفذت إلى ضلوعه غير أن الموسيقى التي ما تزال تنبعث بصوت خافت والوجوه الساهمة لم تكن لتوحي بالرضا...

وعندما جاء صوت المذيع مدّ شيخ حربي يده ورفع الصوت قليلاً وجاء صوت المذيع وهو يتكلف الفخامة:

- أيها المواطنون! أن مؤامرة خسيصة قد دبرتها الامبريالية الأمريكية والرجعية الإيرانية مع الرجعية المحلية للإطاحة بالثورة ومكتسباتها لتعيد العراق إلى حظيرة الاستعمار الأمريكي ونفوذه ومخططاته... ولكن الثورة بقيادة حزب البعث العربي الاشتراكي كانت للمؤامرة الدنيئة بالمرصاد فأحبطتها في مهدها وان الرؤوس المدبرة الخائنة ستنال جزاءها الصارم.

وانطلقت الموسيقى العسكرية من جديد تصك الأذان .. وجاء صوت مذيع آخر ليعلن تشكيل محكمة ثورية خاصة في الصباح الباكر برئاسة الرفيق المناضل طه الجزراوي وعضوية الرفيق المناضل ناظم گزار والرفيق المناضل علي رضا .. وتقوم المحكمة الخاصة حالياً بالتحقيق مع المتآمرين واصدار الأحكام وتنفيذها فوراً...

وقد أصدرت محكمة الثورة بحق المتآمرين رشيد عبد المحسن الجنابي. صالح مهدي السامرائي جابر حسن حداد عبد الوهاب عبد الرحمن الداوود.. أحكام الإعدام شنقاً حتى الموت.

وتوقفت الموسيقى مرة أخرى فجاء الصوت الضخم المتكلف:
- أيها المواطنون حكمت محكمة الثورة بالإعدام شنقاً حتى الموت على
المتآمرين الخونة راهي العبد الواحد آل سكر...
وفي هذه اللحظة خرج شيخ حربي عن وقاره وتماسكه وضرب بكفه
على جبينه... وقال: الله ينتقم منكم يا كلاب الآن حلّ الظلام بالعراق...
هؤلاء أنذال لا يؤمن جانبهم، يغدرون حتى بأصدقائهم... تدرون عبد
الوهاب الداود يصير أخو ابراهيم الداود أمر الحرس الجمهوري الذي
جاءهم للحكم البارحة!
والمرحوم راهي العبد الواحد شيخ عشائر قتله شيخ محترم وجابر حسن
حداد ضابط قومي هذا شنو علاقته بإيران؟! شي ما يشبه شي!
وسكت شيخ حربي واطفاً جهاز المذيع فساد سكوت سوى هسهسة
النار في الموقد ووشوشة المطر خارج المضيف.

دجلة - 3

بغداد يغمرها الضباب يجثم على شوارعها وأحيائها فبدت مدينة
موحشة في ذلك المساء الكئيب في أخريات كانون الثاني...
وكان الضباب جاثماً منذ يوم أمس كأنها هو في حلف مع الموسيقى
العسكرية التي ما انفكت منذ صباح أمس تنفثها أجهزة المذيع كأفاعي
رقطاع.

كثيرون من أهالي بغداد انكمشوا في بيوتهم بسبب البرد وما تعلنه
نشرات الأخبار خاصّة وأن مدير الاذاعة والتلفزيون هو الذي أذاع نبأ
المؤامرة وأن قيادة حزب البعث احبطت هذه المؤامرة وبدأت الرؤوس
تساقط الواحد بعد الآخر إلى انتهت حفلات الأعلام بعد أن استكملت
قتل ما يناهز الستين إنسان شيوخ عشائر تجار وضباط وحقوقيون وأطباء .

أي جنون يعصف بهذه المدينة!؟

في صبيحة أمس كان أبو ميسون يستعد للذهاب إلى محل عمله في شارع
النهر.

كان جهاز المذيع على الرف يبث برنامجه العادي عندما توقف فجأة ثم

ظهر صوت غريب لم يكن صوت احد المذيعين.

أيها المواطنين نسترعي الانتباه... أن مؤامرة خسيسة قد دبرتها الامبريالية، الأمريكية والرجعية الإيرانية مع الرجعية العميلة للإطاحة بالثورة...

وعندما سمع بتشكيل المحكمة الثورية الخاصة برئاسة طه الجزراوي سقط كوب الشاي من يده، وألغى فكرة الذهاب إلى محله في شارع النهر، وظل جالساً قرب المذيع ساعتين ثم نهض واقترب من النافذة المطلّة على الحديقة..

الضباب ما يزال جاثماً والغيوم متراكمة بعضها فوق بعض حتى أنه شعر بثقلها في قلبه... لم تستطع ميسون بوجهها البريء وابتسامتها المشرقة أن تبدد سحب الهم التي جثمت على قلبه كما يجثم غراب على غصن ميت في مساء خريفي.

تساءل في نفسه هل حقاً أنه متشائم أم أنه يستشعر خطراً ما.. كل الناس الآن يحيون حياتهم العادية أنه لا يعرف من هؤلاء الذين حوكموا واعدموا بسرعة ثورية أحداً فلماذا هذا الهم؟ ولماذا هذا الحزن؟ حدّثته أمه ذات يوم أنه عندما كان طفلاً رضيعاً كان يبكي إذا سمع بكاء! هل مشاعره الآن استمرار لذلك الماضي البعيد؟!

راحت السماء تنث مطرها على هون فبدت وكأنها تبكي بصمت...

تذكر أخاه وكلماته: لماذا لا تنظر إلى المستقبل بأمل أنت متشائم كثيراً...
ولكن أين هذا الأمل إنني لا أكاد أرى سوى الظلام هكذا كان يحدث
نفسه، وقد تكاثفت ظلمة المساء، وكانت شجرة البرتقال الوحيدة تستحم
في رشاس الغيث المنهمر.. ورنّ جرس التلفون وحدث أن تكون وراء
الخط خالة ميسون أمرها عجيب! كم هي متعلقة بميسون لا تريد أن
تفارقها أبداً رفع سعاة الهاتف:

- الو؟! -

- مساء الخير أنا أبو شياء

- ابو شياء خير انشاء الله!!

- ما كو شي اشتقنا لكم... باختصار شديد احنا جايلكم.

- على العين وعلى الراس لكن الجو بارد والمطر...

- يعني ما تريدون خطاطير؟! -

- الضيف حبيب الله... اهلا وسهلا ببيكم.. اتحبّ اجي عليكم بالسيارة؟! -

- اتفقت مع أحد الجيران عنده سيارة تاكسي... ثلث ساعة واحنا يمك

أريد شاي من راس القوري.

- نحن بانتظاركم.

قال ذلك ولم يجب ان يجاريه في المزاح... فحالته النفسيه لا تشجع على

ذلك.

ومرّت الدقائق بطيئة متناقلة، ونهضت أم ميسون لاعداد الشاي لقد شعرت بالنشاط يدب في داخلها وأصبح قلبها عصفورة تزقزق بفرح.. لقد سرى إليها الحزن من كثرة ما كانت تراقب زوجها بطرف خفي.. لقد كان يمثل مأساة قاتلة..

ميسون هي الأخرى عادت إليها الحيوية والبسمة عندما عرفت ان عمها سيأتي...

كان بخار شفيف يتصاعد من ابريق الشاي عندما جاء صوت بوق سيارة.. ارتدى أبو ميسون معطفه وأخذ مظلته لاستقبال الضيوف.

- مرحبا بيكم

ورحبت ام ميسون بالضيوف.

- كل اهلا بيكم

واتجه الجميع إلى الغرفة فهم يعرفون طبيعة أبو شياء في عدم رغبته في الجلوس في صالة الضيوف وطالما كان يعلق بأنها تذكرني بأن اقامتي مؤقتة. وعندما كانوا يحتسون الشاي قالت أم شياء لزوجها:

- أشو ساكت ليش ما تحجي؟!!

- التفت أبو ميسون وقال لأخيه:

- ها ابو شياء اكو شي؟

- لا والله ماكو شي... بس.

- كمل!

- والله فكرت ان نروح للزيارة ... هل يعتبر هذا خبال؟

- لا مو خبال لكن غير طبيعي... في مثل هذا الجو!

- الجو شاعري وزيارة الإمام أجر وثواب والأجر على قدر المشقة

- قبل ما تبدأ محاضرتك رايح أبدل ملابسي أنا أيضاً أشعر بالضيق

نروح نزور باب الحوائج.

قالت أم شياء:

- نحن همتين نجى للزيارة!؟

قال ابو شياء:

- هذي فرصة يمكن بعدين نمنع من الزيارة.

نظر أبو ميسون إلى أخيه نظرة طويلة ولم يقل شيئاً غير أن ملامح الحزن

عادت من جديد إلى وجهه.

كانت السماء ما تزال تنث المطر ... السيارة تسير في شارع يكاد يكون

خالياً قطرات المطر تتألق أمام دائرة الضوء .. الماسحات تنزلق يميناً وشمالاً

فوق زجاج السيارة فتتألق صفاءً ثم تعود قطرات المطر تتزحلق فوقها من

جديد...

لاحت قبة المرقد الذهبية وإحدى المنارات الأربع وكان المشهد موحياً.

تمتم بصوت هامس:

- السلام عليك يا موسى بن جعفر..
- أراد جلادوه القضاء عليه فاستحال إلى قباب ذهبية ومناثر، أرادوا طمس اسمه فاذا المدن تولد من اسمه توقفت السيارة أمام باب المراد والتفت أبو ميسون إلى زوجته:
- اذهبوا إلى المرقد أنا ساركن السيارة في مكان مناسب.
- بقي ابو شياء إلى جانب أخيه الذي استدار واتجه يساراً ثم توقف إلى جانب مرقد الشيخ المفيد.
- ترجلاً معاً وأقفا الأبوأب ثم اتجها نحو باب القبلة.
- قال أبو ميسون.
- لنسرع قبل ان نبتل
- لا داعي للعجلة
- وعندما وصلا الباب تسمر ابو شياء في مكانه! قال أبو ميسون
- ماذا حصل؟
- أريدك أن تعاهدني على أمر:
- !!؟
- أريد أن تعاهدني على عدم التدخل بالسياسة.
- هاي اشبيك ابو شياء؟
- حتماً سمعت بالمؤامرة؟!!

قال ذلك هامساً ثم اردف:

- هؤلاء لا يتورعون عن قتل أي إنسان... انهم لا يريدون تكرار ما حصل في ثلاثة وستين سيرا تكبون أية جريمة من أجل البقاء في الكراسي!
حاول أبو ميسون أن يهدئ من روع أخيه فابتسم قائلاً:
- أولاً أنا لم ادخل يوماً في الساسية وسأستمر على ذلك في المستقبل...
ولكنك فاجأتني بما تقول وقد كنت توصيني أن أكون متفائلاً بالمستقبل..
- الحقيقة لا أمل في المستقبل في ظل عملاء ابو ناجي.. ودمعت عيناه
وهو يستطرد قائلاً:

- بس الله اليدري شنو نيتهم على هذا الشعب!

- الله كريم... يد الله فوق أيديهم.

الفرات - 5

كان ربيع سنة سبعين أكثر بهجة مما مضى فقد صدر بيان ١١ آذار والقي
السلام ربوعه في وديان الشمال وعاد الجنود إلى اهليهم يتحدثون عن
رقصة الأمل في القرى الكردية أو رقصة الهيوه كما يقولون...
خدت أصوات المدفعية وسكت أزيز الرصاص وانطلقت زغردات
النسوة في الشمال والجنوب...
وابتسمت المرأة الكردية بعد أن كانت تهدد طفلها في المهد وتدندن
قائلة:

- «اصفح عني يا صغيري!

لقد أحكمت قماطك

لأنك طفل كردي

يوماً ما...

سيثب عليك أعداؤك

من الترك

والعرب

والفرس

ويوثقونك

عليك أن تتعلم احتمال الأذى».

كان الأطفال في الرفاعي أكثر سعادة من غيرهم فالربيع يبث في نفوسهم الحيوية والمرح بعد شتاء قارس البرد كانوا ينصتون إلى الرعود وهي تقطع أوصال الأرض فينطلقون سعداء يبحثون عن الكما وقد منحتهم الطبيعة ذكاءً فما أسرع ما يلاحظون تشقق قشر الأرض فيهتفون: «اللهم صل» وتمتد أكفهم الصغيرة لتستخرج الكماء وعندما يهتف أحدهم «اللهم صلّ اللهم صلّ» يعني أنه شاهد تلك الشقوق التي تدلّ على تلك الكنوز الصغيرة...

وكلما دوى الرعد ظهرت شقوق هنا وهناك فيتراكم الأطفال سعداء بما يحصلون عليه من هدايا الأرض السمراء.

لم يشترك حسام ولا صديقه خليل - الذي حصل على لقب أبو حجر بعد أن عصّب (الشمري) بالحجر وهو لا يدري أنه أخوه - خرجا يرافقان الصغار من بنين وبنات إلى البرية وكان حسام يشير بأصبعه إلى هذه الربوة الصغيرة أو تلك وكان سريع الملاحظة...

لقد شعر أنه قد أصبح أكبر من ذلك كما أنه كان يجد السعادة وهو يرى

فرح الأطفال والصغار وخاصة أخته أنعام وكان جدّه قد اخبره بأنّه يتعين عليه الحضور في وليمة زاير محسن بمناسبة عودة ابنه سالماً من الشمال وهذا يعني أنّه قد أصبح عضواً في العشيرة.. هذا وغيره اختصر من فترة طفولته ليدخل عالم الكبار.

توافد عشرات الرجال والشبان على بيت زاير محسن المطل على الشط، وكان فناء البيت الواسع قد ظلل بسقف من "البواري" وقد طرزت مساقط الضوء البسط والسجاد والحصران بالدوائر المضيئة ما اضفى على المناسبة مزيداً من البهجة.. وجمع زاير محسن في وليمته بين المفطح وسمك الشبوط...

وبعد تناول الطعام بدأ الضيوف يغادرون شاكرين للزائر حسن ضيافته ودعوا له... وبقي البعض ممن يعدّون قريبين جداً من أسرة الزاير، كان الحاج حامد ممن بقي فقد أثر الحديث وبقي حسام جالساً إلى جانب جدّه، كان جاسم ابن الزاير قد التزم الصمت طوال مدّة الضيافة ملتزماً بوقاره احتراماً، فعلى شرفه قام والده بهذه الوليمة الكبيرة وربما تمهيداً للتعريف به وربما للقيام بخطوة أخرى في خطبة إحدى بنات الحسب والنسب وشيئاً فشيئاً اقترب الحديث إلى ما كان يجري في الشمال .

كان جاسم حذراً في كلامه ويجنح إلى الاختصار ويمزج بين الفكاهة والجد، تحدث عن احراق بعض القرى الكردية وقصف مدارس ابتدائية

... تحدث عن قسوة بعض الضباط في تعاملهم مع المدنيين أما تعاملهم مع "العصاة" فلا يمكن تصوّره... وبشيء من الأسى ذكر قصة جندي من قرى بعقوبة طعن طفلاً رضيعاً بالحربة وهو في حضن أمه...

ولما رأى الحزن في عيون الحاضرين غير مجرى الحديث فتحدث عن الحياة في الربايا وهي مواضع في رؤوس وقمم الجبال... وفي الشتاء تتوقف العمليات العسكرية أحياناً وينصرف الجنود إلى لعبه الدومينة وذكر قصة جندي من رفاقة كان قد اندمج في اللعبة وفي الأثناء مدّ يده إلى بطل فأفرغ منه في فمه فظهر أنّه أسيد ونقل إلى بغداد للعلاج.

وشاعت حكاية الدببة التي تخطف الجنود والاحتفاظ بهم في الكهوف فتقوم بلحس باطن أقدامهم وركبهم لكي يفقدوا القدرة على الهروب... ولم يكن يصدّق بهذه الحكايات الا القليل فقد سمعت بأن أحد الجنود من المسيحيين من أهل بغداد كان ينام بين الجنود خوفاً من الدبّة فقام أحد رفاقه من أهل العمارة بارتداء المعطف مقلوباً يعني أظهر الفروة للخارج ونام إلى جانب سمير، ولما استيقظ سمير في منتصف الليل وتلمس الفراء وكان حمزة ضخماً بديناً كالدبّ لم يشك في انها الدبّة وأحدثت الصدمة انهياراً عصبياً فأعيد إلى أهله وظل ما حدث له سراً إلى اليوم!!

وسكت قليلاً ليستطرد وكأنه ينظر إلى مشاهد مما مرّ به من أهوال في

حرب الشمال.

- أحياناً تصدر أوامر بالتقدم في ظروف صعبة فالوفر ينزل بغزارة و أحياناً نمرّ بمنعطفات صعبة العبور أو نجد الوادي مليئاً بالماء إلى الرقبة واذكر أن الضابط الذي كان يقودنا كان قاسياً جداً وكان يمتهن الجنود في المعسكر.

وصادف أنه كان يقودنا في ممرات جبلية وصادفنا واد مليء بالماء كنا سبعة وهو ثامننا وقد اعيانا المسير وكان الذي يعبر يتعين عليه حمل بندقيته أعلى من هامته فطلب الضابط من أحد الجنود وهو من أهل العمارة أيضاً أن يحمل عنه رشاشته فما كان من الجندي الذي سئم الحرب إلا أن قال له: انجب سيدي!

وقد فوجئ الضابط لكنه لم يفتح فمه لقد ادرك أنه قد أضحى تافهاً في هذا المكان وأدركنا أن هذا من شيم الجبناء فقد كان يضطهدنا في المعسكر ويحاول إذلالنا بكل وسيلة وظهر أن الجبناء هم الذين يصبحون أسوداً على كراسي الحكم وفتران في سوح الوغى.

الحياة صعبة والحرب مع الأخوة أصعب، البغل هناك يسمونه أبو صابر لأنه بالعواصف الثلجية يحمل العتاد ويصعد جبال... مرّة شفت بعيني بغل توقف بالطريق من ضربه الجندي حتى يتحرك، رمى نفسه بالوادي مع العتاد!!

قدموني محكمة على بغل ضاع مني بالثلج... الحاكم العسكري صرخ

بوجهي : تدري البغل يساوي عشرة مثلك؟

حكمني سبعة أشهر... الحمد لله فرجت.. أود أشوف ذاك الضابط

ومن يسألني ليش ما تاخذ تحية أجابوه: انجب سيدي.

وضحك الجميع.

وبعدها ساد صمت كسره الحاج حامد بسؤاله:

- تعلمتوا شي هناك لو بس الحرب.

قال جاسم:

- والله يا عمي تجي أيام تهدأ الاوضاع وصارت لنا علاقات مع بعض

الأهالي.. الناس في القرى طيبين مسالمين... بعضهم يعتبرنا غرباء محتلين

خاصة الذين فقدوا أبناءهم، وبعضهم يدرك الحقيقة... يعني كلنا سوية

بهذه المصيبة الجندي والكردي..

- تريد ترجعنا للحرب!؟

ضحك جاسم وقال:

- مرّه كنا بقرية تابعة للسليمانية رجل كبير بالسن دعاني للغداء مع

صاحبي.. الشي الحلو بحياتهم النظام والنظافة يعني مرتبين حضروا

صحن كبير مليء بالتمن خلوه وسط السفرة وحضروا صحنون فارغة وكل

واحد يجلي حسب حاجته حتى لا يصير تبذير.

قال أحد الحاضرين:

- هذي ما تصرف لنا! يمكن اكو واحد يشتهي ويستحي.

تدخل الحاج حامد:

- بعد ماذا تعلمت؟

- اكو شغلة كوخ بسيط لكن مرتب دخلت كوخ بالشتاء كان دافئ
والموقد وسط الكوخ لكن دخان مايبه.. تعجبت.. تبين واضعين مدخنة..
هنا الصريفة تصير ظلمة والدخان يحرق العيون.

- الله ينتقم من الذي يبذر العداوة بين الأخوان.

قالها الحاج حامد وهو ينهض وأردف:

- معمور المحل.. بالأفراح انشاء الله..

صافح الحاج حامد زاير محسن بحرارة وكأنه يقول له: لقد أصبح ابنك
من الرجال المحترمين.

وأمضى حسام ساعة ما قبل الرقاد يفكر في كل ما قاله جاسم الذي عاد
سالماً من الشمال.

وفي الأيام التالية كانت الأسرة تستعد للسفر إلى بغداد فقد اجتمعت
أسباب عديدة منها أنّ أحد أصدقاء أبو حسام قد وصلت منه أخبار
مشجعة حول فرص العمل وأم حسام عندها نذر وحتى الحاج حامد
اشتاق لزيارة مرقد الإمام الكاظم وحفيده الجواد.

دجلة - 4

كان أبو ميسون ينتظر أمام مدرسة الحدائق الابتدائية للبنات وقد اسند ظهره إلى السيارة نظر في ساعته بقيت دقائق على الجرس الأخير... الجرس الذي يبهج له التلاميذ في كل انحاء العراق وتنطلق تلك الضوضاء المحببة للنفس عندما تختلط عشرات الأصوات الصادرة من حناجر صافيه وقلوب نقيه... أحياناً يتصور المرء أن الملائكة تزغرد... ولمح الأب ابنته فهي أطول قامه من زميلاتها وتألقت ضفيرتها الذهبية في ضوء شمس نيسان..

جلست ميسون إلى جانب والدها بفرح لقد وفي بوعدده سيأخذها إلى محله الكائن في شارع النهر.

وصلت السيارة إلى ساحة الرصافي وتوقف أمام مطعم صغير فأحضر شطائر من الهمبرغر ثم ركن سيارته في مكان قريب من محلات الصياغة والمجوهرات.

في داخل المحل تناولا على مهل طعامهما.. وأدى صلاته، كانت ميسون قد تعلمت الصلاة قبل عام.

شدّت انتباهه ضجة قريبة ففتح باب المحل المغلق من الداخل وخرج يتفقد فرأى جمهرة عند محل أبو سرمد أقفل الباب على ابنته وأسرع إلى جاره فوجده جالسا على أرضية المحل عند عتبة الباب.

- ها خير أبو سرمد.

- يا خير! أبو ميسون هجموا بيتي أولاد الحرام!

- احجي شنو صار!

- شحجي كنسوا المحل ما خلوا شي... أكثره دين شسوي وين اروح.

- أحسن تبّلغ الشرطة يا الله أنا اجي وياك .

أسرع أبو ميسون إلى محلّه:

- يا الله بابا ميسون عشر دقائق ونرجع.

من بعيد لاحظ لافته: الشرطة في خدمة الشعب .. كان أبو سرمد

يائسا من عودة المسروقات لكنه كان يتشبث بكل شيء، فتح الضابط ملفاً

لتسجيل البلاغ.

- كيف تمت عملية السطو؟

راح أبو سرمد يروي للضابط ما حصل وكأنه يستعيد قصة فلم سينمائي

قال:

- كنت أستعد لاقفال المحل مع صوت الأذان فدخل رجل يرتدي دسداشة بيضاء ناصعه ويضع غترة بيضاء أيضاً فوضع أمامي خاتم فضي وفص عقيق وقال: بالله ما تركب لي هذا الفص قلت له: تعال العصر.. قال لي متوسلاً: عندي سفر وأنا جئت من مكان بعيد.. قلت: تفضل اجلس واستغرقت في العمل بعد لحظات دخل رجل ومعه امرأة وطلب مني اصلاح سوار ذهبي.. قلت: ما تشوف اكو واحد قبلك قال الرجل: وينه؟ قلت: هذا الرجل الخير! فقال ما اشوف أحد. والتفت إلى المرأة: تشوفين أحد! قالت: لا وتظاهرت بالخوف قائلة: يمكن هذا مجنون! وجرت الرجل إلى خارج المحل... ابتسم الرجل وقال: حقهم ما يشوفون لأن بس أهل الجنة يشوفوني.. اني جاي من الجنة وابشرك أنت مرزوق وعاقبتك خير... عندي منديل جبته ويابي من الجنة تحب تشم عطر الجنة.. قلت: نعم بكل سرور فأخرج لي منديلاً أبيض يفوح بالعطر فوضعتة على وجهي واستنشقت حتى امتلا صدري وبعدها لم اشعر بشيء..

وفي هذه اللحظة وضع الضابط القلم جانباً وارتد بظهره إلى الكرسي وراح يقهقه من كل اعماقه.. حتى ابوميسون ابتسم وضحك ابو سرمد ثم انخرط في البكاء.

توقف الضابط عن الضحك واستعاد بعض صرامته:

- زين نكمل المحضر... قائمة المسروقات؟

راح ابو سرمد يسرد الحلي الذهبية من أقراط وأساور وقلائد بعضها
صياغه هندية وأخرى ايطالية..
- طيب راح نقوم باللازم.
ثم قال بصوت خافت:
- هذوله مثل الشياطين يومية يسوون دالغة.. يقون سابقينه بخطوات.
خرج أبو سرمد يجرّ خطاه كأنها يحمل جبلاً من الهمّ حاول أبو ميسون
أن يطيب خاطره.. لا تفقد الأمل أبو سرمد اخوانك ما يتخلّون عنك..
وما يصير إلا الخير..

كانت شمس نيسان تلقي أشعة الأصيل على المنائر والقباب وذرى
النخيل على امتداد ضفاف دجله عندما يخترق النهر بغداد...
ألقت اسرة الحاج حامد رحلها في الصحن الكاظمي وكعادة أهل
الجنوب فقد اختاروا ايواناً من تلك الايوانات المنتشرة على امتداد الجدران
المحيطة بالمرقد.. وبعد استراحة قليلة نهض الحاج حامد ومعه حفيده
حسام للزيارة وبقي ابو حسام وزوجته وابنتاه ينتظرون عودتها..
كان حسام مدهوشاً للاجواء داخل الضريح وقد ألّفت هممة الزائرين
موسيقى هادئة كجدول يترقرق على هون في واد مفعم بالسكينة..
راح حسام يقرأ وهو واقف قبالة الضريح إلى جانب جدّه زيارة وارث:

- السلام عليك يا وارث آدم صفوة الله.

السلام عليك يا وارث نوح نبي الله.

السلام عليك يا وارث ابراهيم خليل الله.

السلام عليك يا وارث موسى كلیم الله.

السلام عليك يا وارث عيسى روح الله.

السلام عليك يا وارث محمد حبيب الله

وتصاعدت في الفضاء آلاف التحية والسلام على الأنبياء والرسل

والأولياء..

وقد استحال الضريح إلى قطب تدور حوله قلوب العاشقين والمتألمين..

تحت هذه القبة تحلّق الروح وتحرّر من أسر المادّة.. وتندمج مع أسراب

الحمام التي كانت تطوف في سماء صافية.

كانت ميسون تنظر من خلال النافذة إلى مياه دجلة وقد بدت المنائر

الذهبية فتألق تحت شمس الأصيل وأسراب من الحمام تحلّق فوق النخيل.

ركن أبو ميسون سيارته في مكان قرب مرقد الشيخ المفيد وترجلت

ميسون بفرح من السيارة، حيث وجدت أباه يمدّ يده ليأخذ بها إلى داخل

المرقد.

في داخلها شوق إلى هذا المكان الجميل ستجد امها وخالتها في زاوية ما

تحت القباب المزينة بالمرايا وستستنشق عبير هذا المكان الطاهر حيث

الجميع يهمس بدعواته وتحياته وكانت طيور الحمام تشيع الاحساس
بالسلام في المكان وقف حسام وهو يمسك بيد اخته أنعام قرب حمام
الزاجل الذي راح يلتقط الحب بكل طمأنينة.

عشرات الطيور بعضها يلتقط الحب وبعضها يخلق في فضاء قريب من
القبة وبعضها اتخذ اماكنه هنا وهناك في الشرفات وفوق المنائر وصل أبو
ميسون ومعه ابنته بزيها المدرسي الأنيق وقد استقرت ضفيرتها الذهبية بين
كتفيها.. ولفت نظرها منظر عائلة جنوبية جلست في احد الايوانات
الكثيرة وكان منظر رجل يمشي بوقار ويمسك بيد ابنته قد لفت نظر
العائلة أيضاً..

والتقت النظرات ابتسمت أم حسام إلى هذه البنت الحلوة التي بدت
وردة ربيعية أو زهرة من أزهار المشمش.. حتى الحاج محمود وجد نفسه
مشدوداً إلى هذا الشاب الوقور وإلى ابنته التي تفيض حيوية وأملاً لهذا
استوقفه قائلاً:

- من رخصتك استاد!

ثم شرح له باختصار بأنهم قادمون من الرفاعي لزيارة أحد معارفهم في
مدينة الثورة..

ابتسم أبو ميسون:

- تفضلوا عندنا الليلة نحن بالخدمة.

- دايم

- الثورة مدينة جبيرة حجي عندك عنوان مضبوط؟

نظر الحاج محمود إلى حفيده واخرج حسام من جيبه ورقة صغيرة ناوها إلى الرجل الذي يرتدي بدلة يرتديها المعلمون عادة والموظفون في منطقتهم والتقت نظراته بنظرات ميسون التي راحت تتأمل في وجه الفتى الحنطي الوجه وعينيه النجلاوين.

- مضبوط .. الثورة داخل .. قطاع... بلوك رقم الدار بدون مجامله حجي تفضلوا الليلة يمنا وباجر الله كريم.

- دايم ابني ... يظنون بقلق.. عندهم خبر.. ساعنا عطلناك عن شغلك.

- لا حجي على بختك بالخدمة.

ثم ارشدهم إلى الشارع الذي يؤدي إلى الساحة حيث توجد سيارات فورد تنادي على الركاب: ثورة ثورة ثورة داخل ثورة داخل.

- في امان الله وحفظه..

والتفت الحاج حامد إلى كتته.

- ها أم حسام شبعتي شوف؟

- لا والله عمي ما ينشبع منها شوف چنهه ورد.

وراحت ترنو إلى ابنها حسام وقد اشتعلت في اعماقها عشرات الاماني.

وراح أبو ميسون يحدث ابنته عن نهر الفرات الذي يشبه نهر دجلة وكيف يخترق الصحاري السهول ثم يلتقي بنهر دجلة في منطقة تدعى القرنة. وهناك توجد شجرة "نبق" مكتوب إلى جانبها على لوح:
«في هذه الأرض المقدسة حيث يلتقي نهر دجلة والفرات نبتت شجرة آدم المقدسة.. كأثر لجنة عدن على الأرض»

حدثها عن عشرات القرى الجنوبية التي تعيش على ضفاف الفرات عن الناس الطيبين الذين يأتون لزيارة مرقد الإمام الكاظم وحفيده الجواد... حدثها عن كرمهم وسخائهم عن شجاعتهم وإبائهم عن طبيبتهم عن أزيائهم وعن الكوفية والعقال... واسترسل في حديثه مع إنه يعلم أن ابنته لا تفهم مما يقول إلا القليل وأخرج من جيبه كيساً ورقياً وقال:
- هل تحبين نثر الحب على الطيور؟

وكادت ميسون تطير فرحاً وهي تتناول الكيس وتتجه نحو عشرات الطيور التي تلتقط الحب.. نثرت بكفها الصغيرة الحب وهي تدخل في منتصف المكان وأصبح منظرها والحمام يتطاير حولها موحياً في تلك الساعة وقد أشرفت الابتسامة في وجهها وراحت تشع من عينيها العسليتين.
واقبلت امرأتان ترتديان العباءة إحداها تحمل طفلة في الثالثة عرف انها زوجته وأختها..

واكتملت فرحة ميسون برؤية امها وخالتها وكانت الحمام تلتقط الحب

عند قدميها فكان منظرها مفعماً بالفرح..

وتمنت الخالة وجود كاميرا لتلتقط لميسون هذا المنظر.

- احسن معايدة تصوير.

ابتسم أبو ميسون ابتسامة عريضة ونظر إلى ابنته بحب وشوق..

أما الأم فقد كانت تسرح في خيالات العرس فاختلطت ذكريات

عرسها مع أحلام عرس ميسون ذات أمسية من أمامي الكاظمية أن امنيتها

أن ترى ميسون سعيدة في حياتها...

وانطلقت السيارة إلى منزل في شارع المحيط تلبية لدعوة صديق...

الفرات - 6

كانت الشمس قد لامست الأفق الغربي وقد توهجت الغيوم باللون الأحمر واستحال الأفق الذي تخللته الغيوم إلى قطع من الجمر المتقد...
قبل أن تصل السيارة إلى القناة كان " السكين " قد جمع الكروة وصلت السيارة إلى ساحة كبيرة صاح السكن: خمسة وخمسين اكونازل؟
جاء صوت من رجل في الأربعين:
- عندك نازل.

صاح السكن: تانكي؟

- عندك نازل

ومع نهاية التبليط لم يبق في السيارة أحد سوى أسرة الحاج حامد التفت السائق ويبدو انه من أهالي العمارة:

- حجبي ماتيهون العنوان سهل ... شويه تتمشون توصلون قطاع رقم

... تسألون عن بلوك رقم (..) من تدخلون الدربونة تسألون عن رقم

الدار.. الله وياكم حجبي.

شكر الحاج حامد السائق من كل قلبه .

في البداية لم يعرف معنى القطاع ثم تبين أنه مجموعة من البيوت الكثيرة تحيط بها أربعة شوارع ترابية عريضة على شكل مربع وفي وسط القطاع ساحة كبيرة وفي كل قطاع مقهى يكون عادة عند الشارع .

كان البلوك أو الدربونة الذي يسكن فيه ابو محسن يفضي إلى الساحة . وشدهم منظر مجلس الرجال يرتدون الكوفية والعقال أمام أحد البيوت وقد كنس المكان ورشّ بالماء فتصاعدت رائحة طيبة تشبه رائحة الأرض عند تتلقى زخات مطر نيسان أما في وسط الساحة فقد تجمع الأطفال يلعبون مختلف الالعاب .

سرعان ما عثروا على الدار وخرج اليهم أبو محسن مرحباً وادرك الحاج حامد سرّ الهجرة من الجنوب إلى هذه المدينة ففرص العمل متوفرة والمجتمع هنا مجتمع عشائري فالذين جاءوا للعيش في مدينة الثورة نقلوا معهم تقاليدهم وأزياءهم وأعرافهم .

وجيل كبار السن ما يزال كما هو حمل معه جذوره وملامح نشأته الجنوبية .

أما الشباب فقد ظهر عليهم تغيير ملحوظ لقربهم من بغداد كما أن المعلمين والمدرسين في الغالب قدموا من العاصمة وحتى المدرسين الذين لهم جذور جنوبية تأثروا خلال دراستهم الجامعية .. لكن هذه المدينة التي بدا أنها ستدمج

بين تقاليد عشائر الجنوب وحضارة العاصمة ما زالت تعيش حالة مخاض عسيرة وقد يولد جيل يجمع بين تقاليد الجنوب الراسخة والقيم الحضارية الجديدة التي تتدفق من خلال مدارسها الكثيرة ومن خلال هوائيات التلفزيون حيث بدأت اجهزته تنتشر في المقاهي أولاً ثم البيوت.

ومع ذلك فقد كان من المبكر أن تصبح الثورة مدينة فالناس هنا قادمون في الغالب من ريف الجنوب، بحيث كانوا يتجمعون من عشيرة واحدة في قطاع واحد فيكون البلوك الواحد قد حل مكان السلف فالذهبيات تجتمعوا في قطاع واحد والزهيووات في قطاع آخر وكان من الطبيعي أن يسأل عن فلان من يا عمّام؟ ومن يا حمولة؟

وما زالت البيارق ترتفع ويدور حولها المهوسجيه بهوسات جاءوا بها من مناطقهم الأصلية... غير أن البيوت ذات الغرف المطلية بالحصص قد ظهرت فيها رفوف كثيرة وعلى الرفوف ظهرت كتب كثيرة قادمة من مصر ومن لبنان وقد اخذت أماكنها بالقرب من المصاحف وكتب الدعاء.. ثم ظهرت المكتبات في الجوامع وهي تضم مختلف الكتب المطبوعة في النجف. ومن الطبيعي أن تحدث تفاعلات وتغييرات عميقة ولكنها تجري بهدوء وصمت.

خلال الأيام العشرة التي قضتها أسرة الحاج حامد في مدينة الثورة كان ابو حسام يذهب مع والد محسن إلى ساحة الخلاني حيث توجد بناية كبيرة

فيها عدّة مؤسسات اضافة إلى وزارة التجارة ففي الطوابق العالية كانت شركة اعادة التأمين برئاسة الدكتور مصطفى رجب حيث يعمل حجي محمود الجايحي وهو من أهالي الثورة أما ابو محسن فيعمل فَراشاً في الشركة الافريقية العراقية وقد تعرف هناك على رجل من سكنة الثورة من أهالي العماره يشتغل عامل في المصعد الخاص بالوزير.

كان ابو حسام يحاول أن يقنع نفسه بالهجرة إلى هذه المدينة لكن شيئاً لا يعرف كنهه كان يشدّه إلى هناك إلى داره في الرفاعي؛ فالحياة هناك رغم بعض المصاعب أكثر هدوءاً كما أن هذه المدينة وبالرغم من انتائها الواضح في ثقافتها إلى الجنوب إلا إنها تبدو ملفقة أحياناً سوف يضطر الإنسان إلى السكن في جوار ناس لا يعرفهم ولا يعرفونه ... لهذا فقد شطب على فكرة النزوح إلى الثورة بعد يومين أو ثلاثة لكنه ظل يجامل مضيفه وبعض الناس الذين تعرّف عليهم بعدة جمل عامة تحتمل أكثر من تفسير أو يفهمها السامع بحسب تصوره.

وكانت أنعام قد احبّت لعبة طم خريزة وبيت البيوت فكانت تقضي نهارها في اللعب مع اخت محسن ومع بنات الجيران في مثل سنّها.
أما حسام فقد كان يتجول مع محسن في شوارع المدينة وأحياناً يذهبان في الصباح فيعودان عند الظهر، أو يذهبان في العصر ويعودان عند المساء..
وفي جولاتها العديدة ذهباً مرّة إلى السدّة وهو سائر تراي كبير يحيط بالثورة

في حدودها الشرقية الشمالية وكان البعض يتصور أن الحكومة قد انشأت هذا السد لمد سكك الحديد ولكن الحقيقة أنه من أجل حماية بغداد من طغيان نهر دجلة ذهباً في جولتهما فوق السدّة باتجاه منطقة الرشاد وأشار إلى وجود نهر يدعى نهر ديالى يقع ما وراء الرشاد وأشار إلى بيوت نظيفة وقال أن عائلات كردية تسكن فيها ولاح لهما مسجد في وسط برية كان المسجد مهجوراً لم يكتمل بناؤه ويقال لهذه المنطقة الاورفلي وقد سمع من بعض كبار السن في القطاع أن الجنّ هم الذين يحولون دون اكمال بنائه وكانوا يحدرون الأطفال من الاقتراب منه لأن الجنّ يقذفون بالحجارة كل من يقرب منه!

وما وراء هذا الجامع يوجد خط حديدي وبالقرب منه يقع مستشفى "الشامعية" حيث يوجد المجانين وبعضهم يزرع الأرض حول بناية المستشفى بأعقاب السجائر "القطوف" ويتنظرون ان تنمو وتصبح سجائر!!
وحدثه عن شاب في السنة الأخيرة من دراسته الجامعية احب فتاة لكن أهلها زوجها وجنّ بسبب ذلك وقد حاول أهله معالجته ولكن لا فائدة وأدى به المصير إلى الشامعية.

عادا إلى الدار متعبين وشما رائحة تمن العنبر توضأ حسام من ماء حنفية في زاوية ساحة البيت وانطلق إلى الجامع حيث ذهب جدّه إلى هناك.
كان محسن يراقب صديقه إلى أن انتهى وغادر فشمر عن ساعديه وراح يتوضأ ولحق بصديقه.

في الجامع كانت الصفوف قد انتظمت للصلاة وقف حسام في الصف الثاني خلف جدّه وقبيل أن ينطق بتكبيره الاحرام أشار رجل - تبدو الصرامة على وجه - أن يتأخر ويصلي في الصف الأخير مع الأطفال شعر حسام بالانزعاج لكنه عندما رأى صديقه محسن يدخل تأخر ووقف حيث أشار الرجل ذو الملامح الصارمة.

كان الحاج حامد في غاية الطيبة فقد سلّم عليهما ودعا لهما وهم في الطريق إلى الدار.

قال الحاج حامد وهو يأخذ مجلسه وقد ملأت رائحة الطعام فضاء الدار.

- الضيافة ثلاثة أيام واحنا باليوم الرابع.

قال أبو محسن.

- على بختك حجي هذا بيتكم.. الله شاهد كلما اسمع الأذان اندعيلك

بلكت البخت يسويها ونسمع صوتك يدوي بجامعنا.

التفت الحاج إلى حسام ومحسن!

- البركة بالشباب احنا كبرنا.

كان الهواء عليلاً فوق سطح الدار قال محسن وقد تمدد في فراشه ووضع

كفه اليمنى مسنداً رأسه.

- باچر نروح إلى حي الاكراد ناخذ صور تذكارية وبعدها نروح جولة

بالبايسكل شتگول!؟

ابتسم حسام وراح ينظر إلى نجوم السماء ويراقب عمود من الضوء قال
محسن:

- هذا الضوء يدلي الطيارات الضايعة.

ثم نهض.

- تعال ارأويك كلوبات الكاظم وراح حسام ينظر إلى مصابيح تومض
بوهن وسبح في نهر من الخيال أخذه بعيداً إلى أرض الأحلام.

في اليوم التالي وجد حسام نفسه فوق السدّ الترابية ومعه محسن
متجهين صوب الغرب تماماً بعكس الاتجاه الذي يؤدي إلى منطقة
"الرشاد" إلى يسارهما بدت القطاعات المحاذية للسدّ وإلى يمينها كانت
الفلاة مدّ البصر وكانت بحيرة هي في الحقيقة غدير للماء قد بدا بحيرة
صغيرة بعد امطار الشتاء والربيع وقد نبتت على بعض الضفاف شجيرات
قصب وقد تألقت موجات المياه بفعل نسائم الهواء الربيعي المنعشة.

- يطلق على هذه المنطقة الجوادر وهي نهايات المدينة. قال محسن ذلك
وأشار بيده مستطرداً.

- وبعدها منطقة زراعية يسمونها النحالة.

وعندما اجتازا البيوت انحدرا من السدّ في طريق ضيق بين الحقول
تؤدي إلى بناء متوسط الحجم وبدأ صوت ماطور الماء.

- الصيف الماضي جيت مع أحد الأصدقاء للسباحة في النهر الصغير.

أنه يشبه الشط في الرفاعي ولكنه أصغر بكثير ووصلا إلى الحوض الاسمتي حيث تتدفق المياه من خلال انبوب كبير ... وفي داخل حجرة مبنية بالآجر يوجد ما طور الديزل الذي يسحب المياه من قناة بعرض أقل من مترين وعلى بعد عشرين خطوة من الحجرة يتسع العرض إلى حدود عشرة أمتار ويكون مستوى المياه أقل على امتداد أقل من عشرين متراً يقصده الأطفال للسباحة في فصل الصيف. والقناة هذه تستمد مياهها من نهر دجلة.

شعر حسام بالحنين إلى الشط في مدينته الصغيرة وهو يقف عند حافة الحوض ينظر إلى دفع المياه وبين الفينة والأخرى كان يشاهد سمكة صغيرة تهوي إلى الحوض حيث تنبعث رغوة المياه في وسط الحوض لشدة التدفق وتتفرع عن الحوض ساقيتان تبتعدان عن بعضهما بزوايا منفرجة... وعلى مسافة قريبة وعند الساقية التي تتجه في جهة السدة توجد شجرة توت متوسطة وقد استند إلى جذعها فتى في الخامسة عشرة حنطي الوجه يرتدي دشداشة رصاصية اللون كان قد اطبق الكتاب الذي بيده وقد سرح في خياله بين الغيوم أو إلى ما وراء الغيوم.

لا يدري محسن ولا صديقه حسام لماذا اختارا التمشي على ضفاف الساقية حيث اصبحا على بعد خطوتين أو ثلاثة من ذلك الفتى. حياه حسام بودّ فأجاب الفتى بكلمات امتزجت مع ابتسامة صادقة شجعتها على الجلوس بالقرب منه تعرفا إليه وعرفا أن اسمه "عبّياس" وأنه كان

في الخامسة من عمره عندما جاءت أسرته إلى الثورة وأنه يتذكر الأيام الأولى من السكن في هذه المنطقة تحت جادر فكان يقضي وقته في استقبال كرات الشوك التي تدفعها الرياح من البرية التي أصبحت فيما بعد مزارع وحقولاً فلم تكن هذه الساقية ولا هذه المزارع موجودة آنذاك...

فالناس الذي وزعت عليهم الأرض بمساحة مئة وأربعة وأربعين متراً لكل أسرة قد سكنوا الجوادر ثم نهض البناء فيما بعد وخلال تلك الفترة كانت النساء يحملن الماء من مكان ما وأيضاً يخرجن إلى هذه البرية إلى ابعدهن من النخالة لجلب الحطب وظلت ظاهرة جلب الحطب من البراري إلى سنوات قريبة لدى بعض الأسر والبيوت ثم جاء النفط الأسود والأبيض فالأسود لسجر التنور وكان "المطال" يباع في السوق وهو الوقود الرئيسي الذي يستخدم في التنور كما يستخدم النفط الأسود أحياناً لمكافحة الصراصير في المراحيض أما الأبيض فيستخدم لسجر الموقد ثم حلت المدافع النفطية علاء الدين ثم "دجلة" ذات اللهب الأزرق كما كان يكتب في الدعاية لها.

وظلت الفوانيس الوسيلة الوحيدة للاضاءة وقبلها اللالة وهي قنديل مزود بمرآة لتشديد الضوء.

ودارت أحاديث كثيرة وكانت الشمس قد لامست الأفق الغربي وتوهجت حمرة المغيب وبدأ نقيق الضفادع يرتفع من بركة صغيرة إلى يسار الساقية.

وخلال الأيام التي أمضاها حسام في مدينة الثورة تعرّف على كثير من الألعاب التي يمارسها الأطفال، منها اقتناء صور ممثلين وأجانب ورياضيين وممارسة لعبة ليتم خلالها تبادل الصور بينهم. وهناك لعبة الطنب والچعاب، وهي عظام تستخرج من مفاصل الغنم ويبرز فيها الصول الذي يقوم بعضهم بثقبه بطريقة معينة وصب الرصاص في باطنه ليصبح قوياً في ضربته وهناك لعبة الدعبل وهي كرات زجاجية ملوّنة هذا في النهار بالإضافة إلى الطوبة.

وفي الليل ثمة ألعاب منها العظم الضائع وهو فك خروف يرميه أحدهم وسط الظلام الدامس ومن يعثر عليه يهرول به إلى عمود الكهرباء ويضرب على العمود معلناً عثوره عليه.
وهناك لعبة خرّ الدبس. وغيرها...

وآخر جولة قاما بها ذهباً فيها لأول مرّة إلى بغداد بمفردهما فتجولا في ساحة التحرير وانطلقا إلى شارع الرشيد وسألا عن المتحف البغدادي فرأى كثيراً من مشاهد الحياة البغدادية القديمة من البائع والحلاق ومشهد الختان وقد يقوم الحلاق أحياناً بعملية الختان ومرّاً في طريقهما بسينما علاء الدين وتناولوا شطائر الفلافل المعروف باللفة وفي شارع النهر صادف مروره بمحال بيع الحلبي الذهبية والمجوهرات وكان أبو ميسون في محلّه وأحد الزبائن يتفاوض معه حول خفض السعر أكثر.

جلسا عن الرصيف الاسمى لنهر دجلة وكانت مياه دجلة الغرينية تتجه هادئة نحو الجنوب وكانت هذه الجولة آخر جولة لهما حيث تقرر موعد عودة أسرة الحاج حامد إلى الرفاعي غداً صباحاً .

على مائدة العشاء اجتمعت الاسرتان ودارت أحاديث كثيرة وبدأ أبو حسام متردداً في رأيه بالتزوح إلى مدينة الثورة فقد نظر إلى والده الحاج حامد فقال الشيخ بوقار:

- بويه بكيفك .

وفي قرارة نفسه لم يكن هناك ما كان يشعره بالارتياح فقد أمضى عمره كله في مدينته وديرتة لكنه لا يريد أن يكون حجر عثار في طريق ابنه وأحفاده .

أشار محسن إلى حسام بالخروج لأنها آخر ليلة وبعدها الوداع . ولم يكن يعلم أنه سوف لن يلتقيا بعدها سوف تجرفهما تيارات الحياة بعيداً .

كانت أعمدة الكهرباء تضيء الشارع بمصاييحها ومئات الحشرات والهوم تدور داخل دائرة الضوء قريباً من المصاييح عشقاً للنور وربما الدفء أيضاً وظهرت بعض الخفافيش تتخاطف وربما رماها بعض الأطفال بالحجارة فتنقض على الحجر ثم ترتد....

وفي تلك الساعة من الليل حيث مضى على غروب الشمس ساعتان

تتألق المقاهي على حافات الشارع وعادة ما يكون لكل قطاع مقهى...
فيصطف الأطفال بعد مغيب الشمس على قنفات لمشاهدة أفلام الكارتون
حيث يتقاضى صاحب المقهى عشرة فلوس وأحياناً خمسة فلوس من دون
أن يقدم لهم الشاي فالشاي يقدم فقط للكبار الذين يجتمعون للسمر أو
يجتمعون للعب الدومينة...

وبالقرب من المقهى تقف عربة خشبية يدفعها البائع لتأخذ مكانها
المعتاد مساءً ويتوهج فانوس اللوكس الذي يعمل بالضغط حيث يبخ
النفط الأبيض داخل فتيلة تتوهج فتسطع بلون أبيض... ثم يسمع المارة
فرقه رقائق الباذمجان في مقلاة مليئة بالزيت ويصنع البائع شطائر حيث
يتم تناولها من قبل الشبان وهم واقفين حول العربة.
وعادة ما يتشوق الشبان لرؤية فلم السهرة الذي يعرض بعد منتصف
الليل.

وهكذا تمضي الحياة فالأماسي في مدينة الثورة كانت حاملة والناس
يكدحون نهاراً ويستمتعون ليلاً في جلسات السمر في البيوت أو المقاهي أو
الجلوس في الطرقات وتجاذب أطراف الحديث وكانت هذه المشاهد هي
آخر ما سيبقى في ذاكرة حسام عن هذه المدينة التي سيغادرها غداً صباحاً.

دجلة - 5

اشتعلت الحرب في الشمال من جديد وعاد نرف الدم يلوّن الجبال
والسهول بلونه القاني وعلا أزير الرصاص والمدافع فوق خرير السواقي
والجداول ووشوشات المطر وأغاني الربيع... اما بيان آذار فقد رمي في سلّة
المهملات... وأصبح الذهاب إلى الشمال يشبه الذهاب إلى قصر النهاية
فالهرب لا تطال غير الـ (كاكا وعبد الزهرة ومحمد رضا) كان أبو ميسون
يطالع إحدى الصحف عندما رنّ جرس التلفون اخذت أم ميسون سماعه
الهاتف.

- شلونلج أم أحمد مشتاقة...

ليش شنو صار خير....

وضع أبو ميسون الجريدة جانباً!

- الله شاهد ما ندري...

صار له أسبوعين!!

زين.. زين آني وأبو ميسون حنجي.. مع السلامة وضعت أم ميسون

ساعة الهاتف... والتفت إلى زوجها.

- ابو أحمد أخذوه... زوجته ح تتخبل!!

- ابو أحمد التاجر بالشورجة!! حتماً اكو اشتباه.. رجّال يروح بطريقه

ويجي بطريقه...

- شد تنتظر!! خطية أم أحمد الله يساعدها!

تطلّعت ميسون بنظرات متسائلة.

قالت الأم:

- عشر دقائق وراجعين حبيبتى.

وعلى عجل ارتدت بدلة الخروج وعندما رأت زوجها أخذ السيارة.

- البيت قريب ما يحتاج أبو ميسون.

رحبت أم أحمد بالضيوف رغم القلق البادي على وجهها من يتأمل في

وجه أم أحمد لا بد وأن يكتشف أن روحها غدت نهياً للقلق حتى ابنها

الصغير انعكست في ملامح وجهه آثار ما تعانیه أمه فقد ظل ينظر إلى

الوجوه وكأنه يقرأ في كتاب رغم أنه لم يبلغ السادسة من عمره بعد!

أي جيل سينشأ في ظل هكذا ظروف قالت أم أحمد وهي تريد اختصار

قصتها:

- كان يتمشى بالشارع والله ما افتمت يا شارع: الجمهورية ورايح

صوب الشورجة... طلع له واحد بالله تعرف هذه العملة لأي دولة.. أخذ

الورقة وراح يحدّق بها على غفلة جاءه ثلاثة لزموه وأخذوا منه النقد
وضربوه علا وجهه ورفسوه:

- عميل لإسرائيل..

- اخوان أنتم مشتبهين.. هذا الأخ أعطاني الورقة وطلب مني اخبره من

أي دولة؟

- وينه هذا الاخ يابه؟!!

التفت يمينا وشمالاً فلم يره.

- هسه كان هنا.

- تفضل ويانا هناك نتفاهم.

سأل أبو ميسون.

- المشكلة وين؟

قالت المرأة:

- اصعد وانزل وسؤال وجواب قالوا له شنو علاقتك باسرائيل؟

- على أي أساس؟

- الورقة اللي كانت بيده عمله اسرائيلية .

قال أبو ميسون:

- القضية واضحة لعبة.

وأردف:

- الآن هو موقوف؟! -

- حكموه خمس سنوات سجن وسحبوا اجازة الاستيراد وصادروا

أمواله!

- لا حول ولا قوة الا بالله.. على كل حال احنا بالخدمة وانشاء الله

مايصير إلا الخير... أعرف محامي زين نطلب منه يستأنف الحكم...

نظر إلى زوجته فقالت:

- أبو ميسون الصغار وحدهم بالبيت شوية وأجي وراك.

- زين وحدك لا تجين.

- طبعا حتجي وياي أم أحمد.

في طريق العودة كان أبو ميسون متشتت الذهن فهناك ما يدور في الخفاء

وقد وصل الدور إلى التجار الشيعة والهدف اضعافهم من خلال الغاء

اجازات الاستيراد بذرائع مختلفة مرّ بالاشتراكية ومرة بان التاجر يبيع

بقيمة اعلى من التسعيرة ومرة ان التاجر الفلاني يستورد بضائع لا يحتاج لها

البلد أو أن الدولة تستورد البضاعة الفلانية أو ان الحكومة تريد تشجيع

الصناعة الوطنية.. ولكن لماذا التجار الشيعة؟! هل صحيح أن الهدف

الأصلي هو ضرب النجف الأشرف.

وعندما صار على مقربة من البيت رأى رجلاً يقف عند الباب... تأمله

جيداً وهتف.

- أبو شياء هذا أنت يا مرحبا يا مرحبا.. العائلة وين؟ تكلف ابو شياء
ابتسامة محاولاً اخفاء القلق والهواجس التي تتناهبه.
أشعل أبو شياء سيجارة ولم يدخل إلى البهو... ينظر إلى شجرة
البرتقال لكن نظرتة كانت أبعد بكثير ربما كان يبخلق في الفراغ أو يحاول
ازاحة ستار من الدخان والضباب عن شيء لا يمكن رؤيته.

- صاير تدخن ابو شياء!؟!

اجاب وهو ينفث الدخان ومعها آهة حبيسة:

- الوكت راح يخلي الناس كلها تدخن!

- صاير شي؟ خير انشاء الله؟

- راح زمن الخير.

- المبلل ما يخاف من المطر.

- خير انشاء الله.

- هو بعد اكو خير... رجل يشتغل على باب الله بالشورجه طلّعوا له

علاقة باسرائيل.. احتمال زوجته تأتي بعد ساعة.. يمكن عندك خبر مثل

هذا.. صحيح!؟!

- الأمن طوقوا منطقتنا واعتقلوا الشيخ...

- الشيخ عارف البصري!؟ لا!!

- الجامع امتلا برجال الأمن.

- ما صارت ردة فعل؟ الشيخ عند شعبية ومحجوب بالمنطقة.
- الناس تخاف أبو ميسون.. البارحة قالوا سيد مهدي جاسوس.. وكل شيء ما صار! والله حيف علماء من امثال الشيخ عارف يعتقلوهم.. كان للفقراء مثل الأب كان يساعد كل المحتاجين.
- الشيخ مو شخص عادي عالم معروف ووكيل من قبل المرجعية في النجف.. ما اعتقد يتجرؤون على سجنه!
- ننتظر ونشوف!
- صدقني أنا لا أرى إلا الدم والمشائق... تريد نخدع انفسنا أنت ما سمعت بخبر التاجر... من أهل البصرة طلبوا منه مليون دينار اخبرهم أنه لا يملك مثل هذا المبلغ تصور راتبي عشرين دينار ويطلبون بالملايين أهدي سيارة إلى طلفاح وعشرة آلاف دينار إلى مسؤول آخر، وآخرها البكر يصّر على تأديبه حتى السيد الحكيم تدخل طلعه جاسوس وعدموه... القضية واضحة حكم طائفي يستهدف الشيعة.
- وعنصري يستهدف الأكراد.
- هؤلاء يريدون يدمرون العراق... هؤلاء مثل بني أمية.. تشوف شلون حساسين من زيارة سيد الشهداء.
- على كيفك شويه أبو شياء لا تروح زايد.. أنت كنت توصيني بالتفاؤل وأمس اخذت عليّ عهد لا أتدخل بالسياسة.

- بصراحة جئت أجدد العهد هؤلاء هدفهم الكرسي ما اعتقد يتعرضون
الا للشخص الذي يشكل خطر.

- وأنت؟!

- أنا مسافر قريباً.

- أين؟

- أي دولة بالعالم.

- جدّ أو مزاح.

- لا وقت للمزاح أبو ميسون أنا فقدت الأمل... والحياة بالأمل.

وصلت أم ميسون ومعها أم أحمد وابنها الصغير أحمد كان الانكسار
بادياً عليها وعيناها ما تزالان محمرتين سلّمت وواصلت طريقها مع
ترحيب أم ميسون.

أما أبو شياء مدرس التاريخ فقد كان ينظر إلى شجرة البرتقال ومشاهد
من ثورات قديمة تشتعل في ذاكرته ثورة الحسين وثورة زيد وثورة ابراهيم
النفس الزكية وثورة أبي سرايا وثورة العشرين وتصور وجوه الطغاة وقد
تلطخت بدماء الضحايا وجه الحجاج والمنصور وهارون الرشيد والمعتضد
ثم ظهر وجهه صدام قوياً قاسياً وهو يبتسم ابتسامته الصفراء.

الفرات - 7

كانت الأمطار في تلك الليلة الخريفية أشبه بالدموع فقد بدت الرفاعي وهي تتلفع بالليل والغيوم والمطر امرأة جنوبية تبكي بصمت.

جلس الشيخ ابو محمد حزينا وكأنه في مأتم أو انه يشارك الطبيعة حزنها ودموعها.. ككف دمعة يتيمة وهو يحدث صاحبه:

- لم أر السيد الصدر يبكي بهذه المرارة حتى في يوم عاشوراء في مصاب سيد الشهداء... كان السيد في مكتبته وجاء الخبر بتنفيذ حكم الإعدام بالشيخ عارف ورفاقه قال وهو يبكي بألم:

- إن هؤلاء أخافوا الناس وارهبوهم... وليس كل الناس يحركهم الفكر هذه الأمة تحتاج إلى دم كدم الحسين .

قال له فتى: إذا أنت تصنع هكذا فماذا نفعل نحن؟!!

فقال السيد: يا بني والله لو أن البعثين خيروني بين اعدام خمسة من أولادي وبين إعدام هؤلاء لاخترت إعدام أولادي... وبكى الشيخ أبو محمد حزناً.

هذا البلد لن يرى خيراً بعد اليوم... إن حزب البعث يمضي قدماً في مشروعه لتدمير العراق وهو يعرف أين يضرب، البعثيون واثقون مما يقومون به يعرفون جيداً أن الشعب قد ركع.. وها هي شعاراتهم الوقحة تملأ الشوارع خاصة: «جئنا لنبقى».

ضربوا التجار لأنهم الشريان الذي يمدّ المؤسسات المستقلة بالحياة.. منعوا الكتاب الإسلامي.. فكتب سيد قطب ممنوعة وكتب البنا ممنوعة وكتب السيد الصدر ممنوعة، حتى الكتاب العلمي مثل «الاسلام يتحدى» ممنوع والويل كل الويل لمن يكتشفوا حيازته لها.

أنهم يعرفون كيف يخضعون الامة.. انظر كيف يفتعلون الازمات احياناً مواد غذائية تختفي ويبدأ اللهاث خلفها وأحياناً مواد البناء.. أما إذا أعلنوا عن زيادة في الرواتب فثمة أمر خطير يريدون تمريره...

جاءوا بعدنان القيسي وسحبوا الجيش من الأردن وتركوا فلسطين تحت رحمة عملاء الماسونية وافتعلوا ازمة أمنية فظهر أبو طبر ليرعب بغداد ونفذوا جرائم وحشية بحق بعض المغضوب عليهم ثم أخرجوا مسرحية القبض عليه. لك الله يا شعب العراق.

قال له صاحبه:

- ألم يحدث رد فعل في بغداد فالشيخ عارف على كل حال استاذ جامعي مرموق في كلية أصول الدين..

قال الشيخ ابو محمد:

- تجمع طلابه أمام بناية الطب العدلي وكاد التجمع أن يتطور إلى مظاهر احتجاج ولكن قوات الأمن حضرت بكثافة ومعهم أوامر باطلاق النار إذا لم يتفرق الحشد الطلابي ... لا أظن أن هناك أمل لقد بدأ عصر الظلام.
- ليس من السهل أن يموت الشيخ عارف ورفاقه القرآن يقول أنهم أحياء.

- هذا صحيح لكن ما حصل خسارة لهذا البلد.. خسارة كبرى فهؤلاء رجال فكر واعدموا لمجرد الرأي كان لديهم مشروع فكري... مشروع ثقافي بحث.

بدت مدينة الرفاعي تدخل فصلاً جديداً في حياتها، فقد سافر منذ مدة شيخ حربي آل مزعل ويقال أنه هاجر إلى سوريا مفضلاً الحياة بعيداً عن الديار...

كان ثمة شيء يتغير في داخل النسيج الاجتماعي للمدينة فقد بدأ البعثيون يتحركون لتغيير الكثير من العلاقات والقيم خاصة بعد أن وصلت صعقات الرعب الحكومي وهي عادة تصل مضخمة بعض الشيء، وبدأت الأجهزة الأمنية تسرب بعض تفاصيل حفلات التعذيب في بغداد...

ويبدو أن الحكومة والنظام بشكل عام كان يبعث برسائله في طبيعة

الناس الذين سيكون لهم شأن في الدولة، فكان السقوط والانحطاط الاخلاقي معياراً أكيداً في التزلف إلى النظام... ولهذا ما إن مضت مدّة وجيزة حتى ظهرت كائنات غريبة في طبيعتها، فرجل الأمن كائن لا يتردد في ارتكاب أية جريمة وليس له مقدّس على الاطلاق ثم انتشرت المنظمات الحزبية في كل مكان وراحت تسحق ببطء وبقسوة كل القيم الأخلاقية حتى أصبح البعثي كائن عجيب ليس له من عراقيته الا الانتماء الشكلي وليس له من إنسانيته إلا أهاب... وشيئاً فشيئاً لم يعد ثمة فارق بين رجل الأمن والحزبي.

وخلال تلك الفترة ارتفعت وتيرة الهجرة إلى المدن لدى الفلاحين وغادرت قرى كاملة من الريف إلى المدينة بسبب السياسات الاقتصادية الفاشلة والنهب الذي تتعرض له مقدرات البلاد من قبل رموز حزب البعث.

واختفت الملايين من أشجار النخيل تقدر بعشرة ملايين نخلة في واحد من أبشع المجازر الزراعية في تاريخ الإنسان. وقد بدا أن البعث يمضي قدماً في تنفيذ برنامج رهيب لتدمير العراق ثقافياً واقتصادياً وإنسانياً.

واستكمل البعثيون برنامج منع وسائل الإعلام من تغطية الشعائر الدينية كصلاة الجمعة والأذان للصلاة اليومية وشعائر الأعياد الإسلامية

بذريعة عدم اثاره حساسية الاقليات الدينية الأخرى وتعزيز الوحدة الوطنية في الوقت الذي تملأ كركوك والمدن الكردية شعارات من قبيل نفظ العرب للعرب والضغط على الكثير من الكرد للانتساب إلى حزب البعث العربي وهكذا الأمر بالنسبة إلى التركمان.

وظهرت في فترة وجيزة عشرات من الأغاني الهابطة كما ظهرت مسلسلات عراقية تهدف إلى تشويه سمعة علماء الدين، وتوريد مسلسلات وأفلام عربية وأجنبية تعمل على تقويض القيم الاخلاقية أما دور السينما فقد بدأت تعرض أفلاماً شبه إباحية.

وانشئت أماكن سياحية متحللة أخلاقياً وزرعها في مناطق بالقرب من الأماكن الدينية فقد انشئت بحيرة الرزازة وبدأت حمى الحفلات الغنائية وانتشرت مراكز بيع الخمر انتشار سرطانياً.

وظهرت مراكز الشباب وبرامج الطلائع والفتوة وإشاعة الاختلاط بين المراهقين والمراهقات والتشجيع على الأزياء المنافية للحشمة أما مصانع البيرة فقد تضاعفت طاقتها الانتاجية بشكل يلفت النظر وفتح باب الاستيراد لكل أنواع الخمر على مصراعيه واغرقت الأسواق بكميات كبيرة وأصبحت تباع بأسعار زهيدة وأعلنت الحكومة عن تقديم منحة مالية مغرية لكل مقهى ومطعم يبيع المشروبات الكحولية.

وأعلن الراديو عن قيام الرئيس البكر بتقديم هدية نقدية لممثل عراقي

قبل امرأة في عمل تلفزيوني!!

وظهرت المجلات الجنسية بشكل مريع. واصبح الانتماء إلى فرق الرقص يشكل امتيازاً مغرباً بحيث وصل راتب عضو الفرقة القومية للرقص أكثر من راتب الاستاذ الجامعي!

أما ظاهرة التخيم في السفرات التي تنظمها المدارس فقد ارتفعت وتيرتها يتم خلالها تشجيع المراهقين على الاختلاط والاتصال الجنسي.

وأصبح الحجاب منبوذاً من الدولة على كافة الصعد فتراجع بفعل سياسة البعث واعتباره رمزاً للرجعية إلى مستويات قريبة من الانقراض.

وإلى جانب التشدد في مسألة الزواج لدى الشباب خاصة لدى البنات ووضع العراقيل في طريق الشبان والفتيات فقد كانت الحدائق العامة والمنتزهات تفتح أبوابها ليل نهار لاغراء الشباب ودفعهم إلى علاقات جنسية خارج الزواج وكان المذيع والتلفزيون يبث باستمرار أغنية مي أكرم بصوتها الماجن وأدائها الخليع: استعجل يا ميل الساعة مواعد حبيبي أنه مواعد حبيبي.. في حين فرّ طالب جامعي إلى خارج العراق بعد أن ألقى قصيدة في جامعة بغداد في أمسية شعرية جاء في أحد أبياتها:

نفيت واستوطن الاغراب في وطني

ودمروا كل أشيائي الحبيبات

وخلف وراءه قصّة حب مأساوية.

فلم يكد يطل عام ١٩٧٧ حتى كان البلد يمضي بوتيرة متسارعة نحو
قدر رهيب..

وقد امتلا العراق بشعارات تافهه:

عشر سنوات العراقي يتقدم!

عشر سنوات الطالب يتقدم!

عشر سنوات العامل يتقدم!

عشر سنوات الفلاح يتقدم!

والحق يقال أن العراق كلّه كان يتقدّم بسرعة مخيفة نحو الهاوية ترى من

سيوقف هذا الجنون؟! من سيوقف هذا السقوط المريع؟!

كان حسام غارقاً في حزن شديد فقد توفي جدّه... بعد أن اصيب بوعكة

اسلمته إلى الفراش وتدهورت صحته بشكل سريع وعندما عرضوا عليه

نقله إلى المستشفى رفض بشدّة لقد كان يشعر بدنو الأمر وربما أحس بأن

الموت قد انشب مخالبه وفي الأيام الأخيرة كان الحاج حامد يديم النظر إلى

نخلة في وسط الدار كانت تذكّره بصباه وطفولته وها هي الآن قد هرمت

وشحب لونها بفعل الزمن وفصل الخريف الذي أطل من جديد يذكر

الناس بالرحيل.

وأصبح الذهاب إلى جامع الشط السلوى الوحيدة لحسام الذي بات

قليل الكلام يصغي إلى أمه ويصغي إلى مواعظ الشيخ الذي أصبح وجوده

قويًا والتفّ حوله بعض الشباب وإن كانوا يعدون بالأصابع كان حسام يحضر إلى الجامع في كل فرصة تتاح له وكان يفضل مطالعة بعض دروسه في الجامع أو يجلس في داخل مكتبة الجامع فيطالع بعض الكتب. ووجد في داخله ميلاً جارفاً لقراءة الكتب العلمية وها هو الآن قد أصبح الأول في صف الخامس العلمي وكانت درجاته فريدة بين أقرانه..

وعندما رأى والدته تشكو من بعض الآلام قرر أن يصبح طبيباً وبدأ في عينيه النجلاوين عزم وإرادته على تحقيق ما يرنو إليه.

دجلة - 6

أصبحت بغداد غانية لعوب ليايها الحمراء تكاد تخنق نور الفكر الذي كان ينبعث من بعض مراكزها الثقافية العريقة وهاجر الشعراء بعد أن ملأ مهرجو السلطة مسرح الحياة ضجيجاً وتهريجاً، لقد بدأ عصر الضفادع... الشوارع تضج بالنقيق، الجامعات مليئة بالنعيق..

ظهرت القصور الكبرى على شطآن دجلة ومرّة أخرى يعود التاريخ ويعود دجلة يقسم هذه المدينة شطرين فقراء وأغنياء قصور فخمة إلى جانب أكواخ خاوية ليالي ألف ليلة وليلة في قصور هارون الرشيد وأنين المظلومين في طوامير سجن المطبق الرهيب... والمطربون والمطربات يصدحون: بغداد يا بلد الرشيد... ليالي بغداد أعراس الحزب؛ الظلام يستحيل إلى نهار فكشافات الضوء تجعل منها غانية لعوب تتغنج لآلاف العاشقين.

والظلام الأبدي في سجونها الرهيبة في زنانات أبو غريب وقصر النهاية والفضيلية ومديرية الأمن العامة وأمن بغداد والشعبة الثالثة لقمع للأكراد والشعبة الخامسة للإسلاميين (مكافحة النشاط الرجعي)

والزغفرانية و معسكر الرشيد و... .

وكان آلاف العمال الذين يتدفقون فجراً من مدينة الثورة إلى قلب بغداد ويضيعون في بناياتها الضخمة على نهر دجلة وفي انحاء العاصمة يعودون منهكين مساءً فيتحدثون عن قصور البكر على النهر وقصور صدام وقصور اعضاء القيادة القومية و اعضاء القيادة القطرية وعن طواقم الحمايات الموشاة بالذهب المستوردة من ايطاليا.

بين فترة وأخرى يختفي بعض العمال البسطاء الذين ساقهم القدر للعمل في منشآت سرّية، لقد غادروا مدينتهم فجراً ولكنهم لم يعودوا وانتظر الأبناء الصغار عودة الآباء لكن دون جدوى.. إنهم لن يعودوا أبداً! الذين يزورون بغداد ٧٦ يرون وجهاً صبغه البعث أشبه ما يكون بقناع يخفي أشياء كثيرة أشياء هي في الحقيقية روح هذه المدينة ... ليست بغداد وحدها ارتدت هذا القناع المخيف كل المدن العراقية المسربلة بالخوف والشعور بالخطر من المجهول ترتدي هذه الأقنعة.

إن ما يدهش المرء قدرة الإنسان على التكيف والاستمرار في الحياة، ارادة الحياة والشعور بالخطر يدفع شعباً بأسره إلى أن يحاول عبور هذه الازمة وهذا المنعطف المصيري...

لقد كان من الواضح جداً أن أفكار البعث لم تكن تحظى بأي قناعة أو احترام بل كانت تفرز طاقة سلبية في أعرق نقطة لدى الإنسان العراقي

وكان حجم الكراهية يزداد يوماً بعد آخر وإلى جانب هذه المشاعر المترسبة كانت الشخصية العراقية تزداد تعقيداً ووصلت القابلية على التظاهر بشخصية أخرى أو حياكة قناع متقن للاختباء إلى مرحلة تنذر بالاصابة بأمراض نفسية خطيرة.

وظهرت كائنات عجيبة ومدهشة في قسوتها وانعدام الإنسانية لديها ليس على مستوى رجال الأمن بمختلف المؤسسات الأمنية وإنما على صعيد تشكيلات المنظمات الحزبية الفلاحية والطلابية ونقابات العمال وانبعثت في الجامعات والمعاهد موجة رهيبة من الالحاد والسخرية من المظاهر الدينية وظهرت ازياء تخدش الذوق الاخلاقي بشدة.

وظهرت شعارات جديدة في كل مكان تتحدث عن ربط المجتمع بـ«عجلة الثورة».

أجل كانت عجلة الثورة تسحق دون رحمة كل شيء يقف في طريقها وكانت تقود المجتمع إلى مصير مجهول.

وأطلّ شهر صفر ٧٧ حزيناً كعادته حيث تختفي الهلاهل والزغاريد في الجنوب ومعظم مناطق بغداد منذ محرم وترتدي المدن الجنوبية من البصرة وحتى شمال شرق بغداد حلّة الحزن وقد ضاعفت رياح شباط القارسة من حزن القرى فاندجت الطبيعة مع مشاعر الحزن لترسم لوحة بكائية فريدة. كان حسام قد عزم على التوجه إلى النجف الأشرف والاشترك في زيارة

الأربعين مشياً على الأقدام.

فمنذ عام ٧٥ عندما كثر البعث عن أنيابه ليعلن منع زيارة الأربعين مشياً ومشاعر غضب تتجمع في أعماق النفوس كغيوم مشحونة بصاعقة مدمرة.

لقد انتشرت بسرعة أخبار ما حدث ليلة العاشر في سنة ٧٦ والصدام الذي حصل بين بعض شباب النجف الذين عرفوا بصلابتهم وفرار مرتزقة الأمن مذعورين.

في يوم ١٩ صفر وصلت السيارة التي تنقل الزوّار إلى مشارف النجف كان قلب أم حسام فارغاً فلم يكن يهدأ لها بال فحثت زوجها أن يلحق بابنها الذي ذهب مع أحد أصدقاء الأعداءية فلحق به في كراج الناصرية واستقلّ نفس السيارة التي انطلقت بالزوار إلى مدينة النجف هتف السائق وقد أدرك أن أمراً قد وقع:

- يا ستار يا رب!

شاهد الجميع ارتال من الدبابات والسيارات المصفحة ومن بعيد لاحظ حسام رجال الأمن وبايديهم المسدسات يلوحون للسيارات بالعودة من حيث جاءوا.

شاهد السائق أحد رفاق المهنة عائداً من النجف فسأله وقد حاذاه في

المسير:

- خير أبو شذى.

أجاب أبو شذى:

- الدنيا مغلوبة بالنجف.. هوسه.. دبابات بالشوارع وطائرات الميگ
بالسما وبس الله الیدري إذا اکو شي صاير تلگاه بين كربلا والنجف.
ظل ما حدث في تلك الأيام لغزاً محيراً للكثيرين إلى أن عاد الشيخ
أبو محمد.

وفي غروب ذلك اليوم عندما دق الجرس في الثانوية أخذ حسام طريقه
كعادته للصلاة في المسجد ومعه صديقه وزميله في الصف خليل حيث
انتظما في صفوف المصلين وبعد الفراغ من الصلاة وقف الشيخ فتحدث
حول مسائل فقهية في أحكام الصلاة وتحدث عن أهمية الصلاة وكان يوجه
كلامه في ذلك إلى الشباب الذين كانوا يعدّون بالأصابع بين صفوف
المصلين.

وبعد أن انفض المصلون من الجامع رافق حسام الشيخ ومعه خليل إلى
خارج المسجد ثم إلى منزله قال الشيخ وهو يتسم بوداً!

- تفضلوا على الموجود!

- شكراً شيخنا.

- زين انتظرکم على الجاي.

- صار.

كان الشيخ أبو محمد قد أدرك ان حسام على الأقل كان ينتظر أخبار زيارة الأربعين ورأى الفرحة تتألق في عينيه عندما سمع دعوة الشيخ . تناول حسام طعام العشاء مع والده وأخيه الصغير، كانت المدفأة التي طالما أثارت خيال حسام في صباه تبعث دفئها عبر اللهب الأزرق. نظر الأب إلى ابنه وراح يقارن في داخله بينه وبين ابيه وكأنه يقارن بين الجدّ والحفيد وتعجب للشبه الكبير بينهما قال من دون مقدمة:

- بويه حسام ليش ما تصلي بالبيت؟

أجاب بأدب:

- صلاة الجماعة ثوابها عظيم .. وجدّي الله يرحمه كان يوصيني ونبيّنا

يقول: «لا صلاة لمن جاره المسجد».

- طلعت أنه المطلوب.. بويه اسمع أنت ما تشوف الحزبيين يراقبون

الجامع؟! البارحة فتحوا كهوه اگبال الجامع ما كفاهم فتحوا مركز شباب.

كان أحمد ينظر إلى شقيقه باحترام ويعجب لكلامه وهو يتحدث مع

أبيهما.

قالت أنعام:

- عيني حسام هذا الدرس ما افتممه، النظرية كلش صعبة.

أجاب دون أن يحول نظر إليها:

- اليوم عطلة ماكو دراسة روحي ساعدي الوالدة.

ابتهجت الأم وقالت متوجعة:

- والله ظهري انكسر واحس امتوني تريد تنقطع يا يمه.

قال حسام وهو يمزج بين الجد والمزاح:

- لازم ادخل كلية الطب واصير طبيب لخاطرج.

وعندما كانت الأم تملأ أكواب الشاي قال حسام:

- يمه لا تصبّي لي چاي.

قالت أنعام:

- هاي بعدك ما صرت طبيب!

- زين أنعام باچر هم عطلة.

- مروتك دكتور حسام.

- أصلاً هذا الاسبوع كله عطلة.

قالت الأم:

- يمه صدگ ما تشرب چاي؟!

- أشرب يمه ... بس عند الشيخ أبو محمد متواعد أنه وخليل هناك.

انتبه الأب كالمسوع:

- أنه اگله لا تصلي بالمسجد انوب يروح لبيت إمام المسجد... بويه

اگلك هذوله يراقبون المسجد والشيخ والمصلين وطرگاعة سوده مصخمه.

- هذوله منين!

- أنت ما تعرفهم بويه؟ كلش زين تعرفهم.

قالت الأم:

- أبو حسام الله سبحانه هو اليحميه.. ابنك صايم مصلي وربك هو

الذي يرعاه .

أشعل أبو حسام سيجارة وأخذ نفساً عميقاً ثم بدا أنفه مدخنة قطار

قديم أو مصنع حديث.

نهض حسام قبل الوقت المحدد وفي نيته أن يمرّ على صديقه خليل قالت

الأم وهي تودّع ابنها بنظرات حانية!

- اروح لك فدوه يمّ لا تبطي... لا تنسى اللفاف.

- لا يمه ساعه انشاء الله وارجع.

كانت رياح شتائية تلفح وجهه بقسوة وقد غمر الظلام الأشياء بستار

من الغموض ومضى حسام طريقه وقد امتزجت ولولة الريح مع نباح

كلاب بعيدة.

الفرات - 8

كانت الريح تئنّ وهي تعدو خلال شجيرات القصب على جرف الشط
حيث يقع بيت الشيخ أبو محمد.

كانت المدفأة تتوسط الغرفة حيث يستقبل الشيخ ضيوفه وفي زاوية
الغرفة ثمة رفوف لمكتبة صغيرة.

رحب الشيخ بضيفيه الشابين وكان يتوسم فيهما الخير وقد حدس بأن
حسام قادم لمعرفة ما حصل في حوادث الأربعين.

صبّ ثلاثة استكانات من الشاي الذي ملأت نكهته الغرفة، هيمن
صمت تقطعه رشقات الشاي حذق حسام في اللهب الأزرق في المدفأة
وقال:

- شيخنا بصراحة نريد نسمع منك أخبار الحوادث.

ابتسم الشيخ بمرارة:

- النظام يسميها حوادث الشغب والناس يسموها حوادث الأربعين أنا
أسميها انتفاضة صفر كان من الممكن أن تكون ثورة.. أنا لم أشارك فيها لكن

عشت تفاصيلها عن قرب.. لقد رأينا الخوف في عيون البعثين لأول مرة..

واندفع الشيخ يروي ما تراكم في صدره دون تحفظ:

- لأول مرة يتحدى الشعب بهذه الصلابة حكومة العفالقة . القصة

التي سأحكيها لكم سمعتها من شاب شارك بنفسه واعتقل ثم أفرج عنه

وزرته في داره بحكم علاقتي مع والده.

بعض الشباب والمؤمنين فيهم عمال وطلبة وموظفون وحتى عسكريين

قرروا تحدي المنع الذي فرضته الحكومة على زيارة الأربعين مشياً على

الأقدام.

وكان التجمع في مدينة النجف يوم ١٥ صفر وفي الساعة ١١ اكتظت

الشوارع بالطبع تجمع هذه الأعداد الكبيرة لم يحدث عفواً كان هناك

تحضير للتحدي حتى الكسبة وأصحاب المحال التجارية أغلقوا متاجرهم

والشيء العجيب حضور النساء والأطفال يعني هذه روح حسينية صادقة

هذا اليوم يوم ١٥ صفر يوم يجب ألا ننساه أبداً أما ساعة الصفر لإعلان

التحدي فقد كان بعد تقدم مجموعة من الشباب الأبطال من شارع الإمام

الصادق تتجه نحو الصحن الطاهر وارتفعت الشعارات الحسينية الشائرة

وانضمت الجماهير إلى المجموعة فتحولت إلى انتفاضة شعبية وارتفعت

أعلام خضراء مكتوب عليها: «نصر من الله وفتح قريب» وفي مقدمة

التظاهرة رفعت راية خضراء كبيرة كتب عليها «يد الله فوق أيديهم».

ومنذ اللحظات الأولى اتخذت الحكومة تدابير تحول دون انفجار الوضع وانتقاله إلى المدن الأخرى.

طافت التظاهرة شوارع النجف تتحدى بشكل مثير نظام البعث.. وكانت أجهزة الأمن ملأت المدينة بجلاوزتها والمأجورين من عملائها..

وبعد أكثر من ساعة اتجهت المسيرة نحو مدينة كربلاء إلى أبي عبد الله عليه السلام وكان الرجال الأبطال يهتفون عالياً: (لو قطعوا أرجلنا واليدين؟ نأتيك زحفاً سيدي يا حسين) وكان الناس يتعاطفون بشكل مؤثر مع هذه المسيرة والدموع تجري ووصلت أنباء التحدي إلى مدينة كربلاء فهب شبابها لاستقبال المسيرة الكبرى والالتحاق بها مهما كان الثمن.

وصلت جموع الزوار والثوار إلى خان الربع على بعد عشرة كيلومترات كالعادة كل عام نزل الشباب في الخان الذي طوّق بسيارات الأمن والشرطة والمخابرات التي وصلت للكشف عن العناصر القيادية في المسيرة.

أما الشباب القياديين فسارعوا إلى وضع تدابير لحماية الزوار من أي هجوم محتمل فشددت الحراسة في نقاط دخول الخان وكان البطل رحيم ابو گلل قد وزع كلمة سرّ الليل "حيدر" وأعلن أمام الجميع «أنهم لن يدخلوا إلا على جثتي» وهب شبان آخرون فراحوا يجمعون الحجارة ونقلها إلى سطح الخان

لرشق البعثيين في حال قرروا اقتحام الخان.

دفع رجال المخابرات ببعض عناصرهم وعملائهم للنفوذ داخل المسيرة والتجسس وتزويدهم بالمعلومات ولكن المؤمنين قد فطنوا لهم وكشفوهم.

وضع الشباب الأبطال خطتهم لصباح غد واستفادوا من دروس العام الماضي عندما خرجت جموع الزوار على هيئة مجاميع صغيرة من النجف إلى كربلاء فسهل على البعثيين محاصرتهم واعتقالهم لهذا قرروا أن ينهض الجميع عند سماع صوت البوق وأن يهتفوا: يا حسين وكان للشاب البطل محمد سعيد البلاغي دوره القيادي في التخطيط. أمضى الزوار الثوار تلك الليلة القارصة البرد وقد افترشوا الأرض ولا غطاء لهم سوى السماء وهكذا تمر ساعات الليل وفي فجر ١٦ صفر سمع صوت البوق وهب الرجال صوب الباب لمغادرة الخان وهم يهتفون يا حسين!

أليست هذه الكلمة بذاتها صرخة؟! أليست هذه الصرخة ثورة.. ويبدو أن الشرطة تلقت أوامر بالهجوم على الخان لكن ما حدث من رد فعل الجماهير دفع بالشرطة إلى الهرب كانت صرخة يا حسين تبعث الفزع في قلوب البعثيين وكان الخوف واضحاً في عيونهم وهكذا راحت المسيرة الكبرى تشق طريقها إلى خان النص وقبل أن تصل إلى هناك قدمت سيارة تابعة لمديرية الأمن وترجل منها اثنان وشهرا مسدسيهما باتجاه الناس وراحا يطلقان الرصاص

وبدل أن يفرّ الناس هجموا عليها فاضطرا إلى ركوب السيارة حيث كان سائقها جالسا وراء المقود.

وسيطر الثوار على الطريق الرئيسي بين كربلاء والنجف وكانت الهتافات تدوي في الفضاء:

- يبو فاضل گوم لينه عفلق تأمر عليه!

- ماكو مؤامرة تصير على الحسين بن علي!

- يا صدام شيل ايدك جيش وشعب ما يريدك!

- سجلها النجف ثورة حسينية!

شرطة البعث شرطة جبانة

- يا جاسم گله للبكر تره حسين ما نعوفه.

تساءل حسام:

- من هو جاسم؟

- جاسم الركابي محافظ النجف الأشرف.

وفي هذا المكان نهض صاحب رحيم أبو گلل وألقى خطاباً وقد سجله البعض على أشرطة الكاسيت حتّ فيه على الاتحاد واجتناب التفرقة والحذر من الخونة الذين يندسون في الصفوف ويشيرون الفتن.. «ان هذه المسيرة هي من أجل قضية حق وأن هذه المسيرة هي في طريق الحسين سيد الشهداء الذي ثار ضد الظلم ورفض حياة الذل.. ولكي يبعث روح

التضحية في نفوس الجميع أعلن عن اسمه بكل شجاعة..
وكان الذي يحمل راية المسيرة البطل ناجح محمد كريم فاطلق هتافاً
جريئاً.

- هلّه هلّه يا البعث يا الحاقدين بالنجف ما ينمحي ذكر الحسين .

وهكذا نجحت المسيرة في الوصول إلى خان النص.

وكثف البعثيون من اجراءاتهم وتدفق عناصرهم وقاموا بعدة هجمات
ونجحوا في إحداها من خطف اثني عشر شاباً فردّت الجماهير الشائرة
بالمهجوم على مركز الأمن في ناحية الحيدرية واطلاق المعتقلين وقد حدث
ذلك في ١٧ صفر.

واستخدم البعثيون البنادق الرشاشة وراحوا يطلقون النار على شعب
أعزل فوق طفل شهيداً وهوت إلى الثرى امرأة وامترج ازيز الرصاص مع
هتاف: يا حسين.

وكان التاريخ يعيد نفسه مرّة أخرى لقد كان جيش يزيد والامويون في
غاية النذالة والوحشية وهؤلاء البعثيون اليوم يجسّدون ذات الدناءة
والخسة والانحطاط والسقوط الأخلاقي. اطلاق الرصاص على ناس
عزل في مسيرة سلمية هدفها زيارة الحسين صلوات الله عليه هو عمل
جبان لا يقوم به إلا الأوغاد.

وراحت المسيرة تواصل طريقها بالرغم من سقوط الشهداء وعلت

هتافات مدوية:

- قدّم النجف أربع فدائية

كلّو للبكر كل اصبع بمية

- وين يروح المطلوب إنّه

وفتح شاب هو السيد عبد الخالق العوادي صدره لرجل الأمن الذي

وجه نحوه رشاشة هتف السيد البطل!

- اضرب انا سمعت بسقوط شهيدين واريد أن اكون الثالث .

فسقطت بندقية ذلك المجرم.

ووصلت أنباء الانتفاضة إلى مدينة النجف فانفجر الوضع وزحفت

الجماهير إلى مبنى المحافظة تهدد وتتوعد المجرمين بالويل والشبور إذا لم يرفع

الحصار عن المدينة فرفع الحصار وتوجهت الجماهير المضحية نحو خان

النص لدعم الثوار.

آه أنّها أيام لن تنسى وسينحني تاريخ العراق الحديث أمام أولئك

الشبان الذين رسموا بمواقفهم الحسينية وشجاعتهم الفريدة صفحة

مشرقة لن تنسى.

هناك حوادث في التاريخ يبقى منها مجرد ذكريات ثم تستحيل إلى سطر

أو سطرين في سجل كبير وتسقط من الذاكرة وهناك حوادث خالدة لا

يمكن أن تنسى..

أن ذكرى استشهاد أبي الأحرار أعظم دليل على ذلك.. كلنا في يوم
عاشوراء نعيش الذكرى ونستمع إلى المقتل ونبكي وكأن الحسين قد ذبح
الآن وليس قبل مئات السنين...

إنّ ما حدث في صفر هو من قبيل هذه الحوادث وهؤلاء الشبان الذين
نهضوا لمواجهة نظام همجي كهذا النظام يجب ألا ينسوا إلى الأبد..
سوف يسجل التاريخ الحادثة الكبرى في طليعة المنعطفات في مسيرة
هذا الشعب الأبي...

لقد اهتز النظام بقوة وعنف... لهذا أعلن عن رفع الحظر لامتصاص
الغضب الشعبي العارم ومع ذلك فإن الثوار ظلوا حذرين ووزعت كلمة
سرّ جديدة "عود سخاط" وتمكنوا من كشف بعض المدسوسين وسجنوا
في مكان خاص في الخان.

وزحفت الدبابات والمدرعات لتحاصر كربلاء والنجف وحلقت
طائرتا ميغ قامتتا بكسر حاجز الصوت وكانت الطائرتان تحلقان على
مستوى منخفض لإرهاب الجماهير الثائرة فتحطم زجاج العديد من
السيارات.

سجل بعض العسكريين مواقف مشرّفة بانضمامهم إلى الشعب الثائر ولا
يعرف أحد السرّ في سقوط الطائرتين حتى الآن فقد سقطت إحداها في
بحيرة الرزازة والأخرى بالقرب من المسيب وهكذا انتصر شعب اعزل فقد

وصلت المسيرة كربلاء وتوجهت الجموع إلى حرم أبي الفضل العباس ومنه إلى حرم سيد الشهداء الحسين وكان البعض يحمل ثياباً دامية لاحد الذين استشهدوا في المواجهات على طريق كربلاء...

وعلت في الفضاء هتافات يا حسين وكان رجال الأمن والاستخبارات قد اعدّوا العدة لإلقاء القبض على أكبر عدد ممكن فسيق المئات إلى السجون والمعتقلات بينهم أطفال ونساء وشيوخ.. وصدرت أحكام بالاعدام والسجن المؤبد.

وأظن أن النظام فقد ثقته بالجيش، لأنه تمرد على الأوامر باطلاق النار على الشعب وسحق الانتفاضة بالدبابات.

وقد سمعت باعتقال الكثير من العسكريين وحكم على بعضهم بالاعدام.

وقد اعتقل السيد الصدر فهم يظنون ان السيد وراء ما حصل ولهذا كانوا يسألون المعتقلين: من تقلّد؟ أو ما هي علاقتك بالصدر؟! لقد فوجئوا بدقة التنظيم في المسيرة ونجاحها في الوصول إلى كربلاء! وقد طلبوا من السيد أن يرسل برقية إلى البكر وصادم تتضمن تأييده للإجراءات الحكومية فارسل السيد برقية طالب فيها المسؤولين باحترام الشعائر الدينية وطلب من الجماهير التقيد بالإسلام في مثل هذه المناسبات .. لهذا سمعت أنهم مزقوا هذه البرقية .

نعم ما حصل كان ثورة صحيح أنها لم تسقط النظام لكنها هزته هزاً
عنيفاً.

سكت الشيخ ورفع رأسه ينظر إلى الشابين فرأى في عين حسام بريق
ثورة ربما تندلع ذات يوم.

ومدّ يده إلى كتاب فأخرج منه ورقتين وقال:

- هذه أشعار لشاعر في خارج العراق وأخرى في الداخل لا يعرف
قائلها ومن الأفضل أن لا يعرفه أحد.

ناول ورقة إلى حسام وأخرى إلى خليل وقال:

- تستطيعان الاحتفاظ بهما بعيداً عن أعين الحاقدين.

هدأت الريح وكفّت عن الهبوب وقد بدأت السماء تنث مطراً ناعماً.

عندما غادرا منزل الشيخ كان حسام قد التزم الصمت وهو يرافق
صديقه إلى داره وقبل أن يودّعه اتفقا على تبادل الورقتين غداً بعد
الاستنساخ يدوياً.

دجلة - 7

كان المطر غزيراً في تلك الظهيرة والجوّ بارداً فالشتاء ما يزال جائهاً
وسماء بغداد مثقلة بالغيوم..

جلس أبو ميسون في الحجرة المطلّة على الحديقة التي بدت اشجارها
شاحبة تستقبل المطر.. كان وحيداً في ذلك اليوم، ميسون في بيت خالتها
منذ أيام تستعد للامتحانات وزوجته مع ابنته الأخرى في زيارة لأهلها.

كان أبو ميسون يشعر بالحزن فما يزال ما حدث في صفر والأحكام التي
صدرت بحق (المجرمين) تلقي بظلالها المأساوية والذي ضاعف حزنه أن
أخاه قد فاجأه بأنه سوف يغادر العراق بعد أيام إلى اليمن لهذا قرر الذهاب
إلى محل عمله علّه ينشغل قليلاً.

غادر منزله واستقل سيارته التي راحت تشق طريقها تحت المطر وكانت
قطرات المطر تنقر السقف والمساحات تعمل على هون وشوارع الكاظمة
تكاد تكون مقفرة في تلك الظهيرة ومن فوق الجسر المؤدي إلى الجانب الآخر
بدا نهر دجلة بشطآنه المكتظة بالنخيل والمطر رموش حسناء تبكي بصمت..

قبل أن يصل قريباً من شارع النهر الغنى فكرة الذهاب إلى المحل وأخذ طريقه باتجاه الكراة إلى أخيه .

فوجئ شقيقه بهذه الزيارة من دون تلفون كانت زوجة أخيه منشغلة بتوظيف بعض حقائب السفر.

جلسا صامتين واشعل أبو شيما سيجارة فأخذها أخوه وراح يسحب نفساً عميقاً اضطره إلى السعال ابتسم أخوه وقال:

- ها أبو ميسون صاير تدخن؟!!

امتزجت كلماته بالسعال:

- انتظر سنة سنتين وراح تشوف العراقيين كلهم يدخنون حتى الأطفال

بالمستقبل راح يدخنون... متى السفر؟

ولم يصبر لسماع الجواب فاستطرد:

- سفرك صعب عليّ بس صدق آني فرحان.. ماكو دولة غير اليمن؟

ليش ما سافرت لمصر؟

- مصر هي اللي تصدّر المعلمين يعني عندهم فائض شعبي في العدد راح

يوصل أربع ملايين.. والحبل على الجرار.. بطلعان الروح حصلت الموافقة

طبعاً قدمت الطلب قبل حوادث الأربعين لو كان الطلب بعد ذلك كان

مستحيل... احتمال السفر في العطلة الربيعية يعني بعد الامتحانات... على

ذكر الامتحانات ميسون شلونها..

- عند خالتها
- كلما اتصل واسأل عن ميسون اسمع هذا الجواب.
- متعلقة بميسون وميسون هماتين متعلقة بيها.. تريد تغير الموضوع؟
- يا موضوع؟
- السفر، بعدين شنو علاقته بالحوادث؟
- ليش اللي صار شويه البلد كله اهتزّ..
- طائرات ودبابات... بالكاظمية ماكو خبر..
- طبعاً الكاظمية حالها حال النجف وكر بلا.. الجيش دخل انذار والتفتيش أكثر وشكولات جديدة ما أدري من أين جاءت ولهجة قبل ما كنا سامعينها.
- عندي طالب مجّد ومؤدّب ودرجاته عالية في الامتحان الأخير سلّمني الورقة تقريباً بيضاء وكاتب بيت شعر بالزاوية بخط ناعم:
- ما كنت أحسب أن يمتدّ بي زمني
حتى أرى دولة الأوغاد والسفلي
- طبعاً اشو ما له علاقة بموضوع الامتحان وأصلاً محذوف من المنهج الدراسي كان موجود في كتاب "نصوص أدبية" والقصيدة للطغرائي المعروفة بلامية العجم، قبل سنوات انحذف هذا البيت من القصيدة .
- قال أبو ميسون:

- صحيح اللي بعبه صخل يمعع يدرون بنفسهم زين أوغاد وسفلة..
صديقي معلم رجل كبير بالسن ربع قرن يدرس ابتدائية يحلف لي أن
القراءة الخلدونية غيرها لوجود جملة: إلى متى يبقى البعير على التل!
ضحك أبو شياء:

- مو بهذا الشخن!!

- على كلّ شنو كانت قصّة هذا الطالب؟!

- أخذته على صفحة استفسر منه السبب طبعاً هو تغيب يوم يومين..
فأجاني بأن والده كان معتقل بحوادث الزيارة وصار له أيام من طلع..
كانت الدمعة بعينه قال من شفته ما صدقت هذا والذي مدمّره بالتعذيب
شهر كامل بالتوقيف والاتهام تنظيم مع السيد الصدر!! وحكى لي عن
التعذيب أشياء لا يصدّقها العقل..

حتى جربوا معه أساليب وأدوات تعذيب جديدة مستوردة من المانيا
الشرقية.

في البداية وجبة خفيفة تدعى "قاط خفيف" ومعنى ذلك استقبال
المعتقل معصوب العينين وينهال عليه أكثر من خمسة رجال بالضرب فلا
يدري من أين تأتيه الصفعة والركلة وذلك من دون توجيه سؤال.

وبعد الاستجواب ولأن المعتقل في رأيهم مجرم حتى لو لم يعترف تبدأ
معه أساليب التعذيب الفلقة حتى يبدأ الخدر في باطن قدميه ويستمر

الضرب بالصوندات إلى ما يقارب أربعمئة ضربة.
وبعدها التعليق بربط اليدين إلى الوراء ثم يعلق بكلاب مثبت في وسط
غرفة التعذيب وأحياناً يربطون قنينة غاز في قدمي المعتقل.
ومرة يكون التعليق بالبنكة ويتسبب في أحداث آلام رهيبية.
أما أطفاء السجائر في جسد المعتقل فأمر عادي.. سألته عن صحة والده
قال: الله كريم انشاء الله يصير زين... حالياً تراجع طبيب لأنه فقد
السيطرة على الادرار والدي حسّاس في هذه المسألة لكن يتظاهر بأن
الأمر طبيعية.. المشكلة احتمال يفصلوه من عمله.

قال أبو ميسون:

- عندي مبلغ يعني حقوق شرعية انتظر آخذ اجازة حتى توصله لهم.

واستطرد ليغير من مسار الحديث فقال:

- لماذا اليمن؟!!

- الظاهر العلاقات معها جيدة والاجراءات في السفر والايضاد مختصرة..
المجتمع هناك قبلي وعندهم مسألة الثار قوية أكثر من العراق... اثناء المراجعة
لترتيب معاملة السفر سمعت من زملاء أنه اثنين من المدرسين المصريين
يشتغلون في التدريس الابتدائي وبينهما علاقة صداقة أحدهما يدرس في إحدى
القبائل والآخر في قبيلة تسكن منطقة مجاورة للاولى وحدثت بين القبيلتين
نزاعات شديدة فأقدمت إحدى القبيلتين على قتل مدرّس القبيلة الأخرى

فثارت نائرة القبيلة وأقسمت على قتل مدرس القبيلة الأولى طلباً للثأر!!

ضحك أبو ميسون:

- صحيح شرّ البلية ما يضحك! بس شلون تريد تروح تعيش هناك؟!

تغيرت ملامح ابو شيما وقال:

- مع ذلك اهون من الحياة هنا... الوضع يوم بعد يوم يسوء الأمن بدأوا

بتبعيث المدارس الثانوية... قبل أيام بدأوا بحملة لدفع الطلاب على الانتماء

إلى الحزب... يأتي مسؤول في الاتحاد الوطني لطلبة العراق ويجتمع بطلاب

الصفوف ومحاضرة طويلة عريضة على مكتسبات الثورة... وإذا ما فادت

يمارسون أسلوب آخر.. بكل صلافة يلوّح بوجود وسائل أخرى للاقناع.

الأسبوع الماضي قرأت في لوحة الاعلانات اعلاناً مكتوب باليد يعني

اعلان فوري هام: على الطلبة المدرجة أسمائهم أدناه الحضور في الإدارة

ولمحت اسم الطالب الذي اخبرتك عنه... القاعة كانت تضم عدداً كبيراً ربما

يؤلف صفين أو أكثر.. كنت قد لمحت وجود شخص غريب كان المدير

يتصرّف معه كما لو انه مسؤول وزاري مع أنّه كان شاباً... بعدها بطريقة تبدو

عادية استفسرت من أحد الطلاب عما حصل... فاطلعتني على التفاصيل..

غصت غرفة الإدارة بالطلاب لهذا أوقفونا وبدأ المدير فألقى كلمته

واقفاً من وراء مكتبه فعرفهم للشخص الواقف إلى جانبه أنّه الرفيق

قحطان مسؤول في الاتحاد الوطني لطلبة العراق وباتت القضية واضحة

لقد جاء لينظّم هؤلاء الطلاب ويدفعهم للانتماء إلى الحزب..
استرسل المدير إلى الاسطوانة المتكررة فتحدث عن ثورة ١٧-٣٠ تموز
المجيدة وما حققه مجلس قيادة الثورة من مكتسبات وانجازات جبارة وعن
التقدم الكبير للعراق في ظل حكومة الأب القائد احمد حسن البكر والرفيق
المناضل صدام حسين نائب رئيس مجلس قيادة الثورة...
وكان مع الرفيق المسؤول دفتر صغير لتسجيل أسماء الاعضاء الجدد
الذين يرغبون في الانتساب إلى الاتحاد الوطني...
وجه نظرة متسلّطة إلى طالب واقف في أقصى اليمين وقال له:

- الاسم؟

أجاب الطالب بأدب:

- اعتقد أن الانتماء مسألة طوعية وأنا شخصياً بحاجة إلى فرصة للتفكير.

قال المسؤول الطلابي بغطرسة:

- القضية ما تحتاج إلى تفكير لأنه كل مواطن شريف يجب وطنه يتوجب

عليه الانتماء إلى الاتحاد والالتحاق بصفوف الحزب القائد حزب البعث

العربي الاشتراكي...

قال طالب آخر:

- العفو أنا من القومية الكردية.

- أنت تتكلم معي باللغة العربية وتعيش في أرض عربية الآن في صفوف

الحزب عشرات من الرفاق الأكراد والتركمان لأن القومية العربية في فلسفة
الحزب القائد تشمل جميع القوميات الأخرى...

وأنا مستعد لأن أناقش أي طالب في هذه المسألة.. التفت إلى المدير
وقال:

- اتفقت مع السيد المدير أنه أي طالب ما يرغب في الانتماء إلى الاتحاد
الوطني لطلبة العراق فهو سيأتي معي إلى مقرّ الاتحاد وهناك نتناقش في هذا
الموضوع حتى نعرف أسباب عدم اقتناعه وامتناعه شنو رأيكم رفاق؟!
أدرك الجميع ماذا تعني هذه الكلمات لهذا لا مفرّ من التسليم وهكذا
تمكن الرفيق المسؤول أن يكسب أعضاء جدد إلى الانتماء لقد كان حديثه
مقنعاً للجميع!!

وضحك أبو ميسون مرّة أخرى وقال:

- شرّ البلية ما يضحك.

- تريد مني اختار بلد غير اليمن يمعوّد أنا مستعد للسفر حتى
للسومال... حتى لجيبوتي يسمونها دهليز جهنم ارواح يم حسن جوليد
أحسن من الرفاق.

- يعني نارك ولا جنة هلي.

- بالضبط.

الفرات - 9

كان حسام و خليل قد اتفقا على أن يصطحب كل منهما كتاباً مدرسياً
ويلتقيا عند اطراف حقل بعيد..

قبل الموعد بساعة ذهب حسام وقد حمل معه كتاب التاريخ واتجه نحو
شجرة توت نبتت عند منعطف ساقية تستمد مياهها من الشط.

جلس حسام عند جذع الشجرة وفتح كتاب التاريخ فظهرت الورقة التي
تحوي قصيدة لا يعرف شاعرها تصوره حسام شاباً يكبره بستين أو ثلاث
راح يقرأ القصيدة ربما للمرة العاشرة لكنه في هذه المرة تذوقها اكثر لانه
يستطيع أن يقرأها بصوت مسموع في مثل هذا الفضاء المليء بالصمت ما عدا
صوت الماء وهو يتفرق في الساقية الصغيرة.

لا تقل لي انه ما زال في العشرين عودي

لا ترغّبني الصدور البيض أو قبّ النهود

لا تؤملني جميل العيش في القصر المشيد

فلقد واعدني ربّي بجنات الخلود

لا تقل عن ضنك السجن وعن ثقل القيود

لا تخفني بالهراوات ومحمي الحديد
لا تقل عن غرف التعذيب عن نزع الجلود
أنه الدرب الذي يعرفني قبل وجودي
أنه الدرب الذي ضمّ رفاقي وجدودي
درب عمار وفي متنيه آثار الحديد
وبلال في اتون الرمل في القيظ الشديد
بالذي ردّ به التمار للطاغي العنيد
بوصايا الثائر المصلوب على الأعواد زيد
بعناد ابن جبير وهو محزوز الوريد
ما الذي تعرفه الاجيال عن حجر الشهيد
دربهم دربي ومما وردوا القى ورودي
فاشهدي يا هذه الدنيا ويا كل الوجود
قد رفضت العيش في ذلّ فذا عيش العبيد
ورضيت الموت لم اخسر به غير قيودي
ولعنت الدهر أن يورق الآ في لحودي
مرحبا بالموت فالموت على ديني عيدي
كانت الكلمات الثائرة التي تتدفق كنشيد حماسي تتخلل خريبر المياه في
الساقية. وشعر حسام في أعماقه ببركان يتفجّر حمماً، إن شباب العراق
يواجهون بأيدي عزلاء نظاماً همجياً متوحشاً معركة غير متكافئة لا يعرف

العالم عنها شيئاً لانتها تدور في الاقبية والزنزانات .
من بعيد لاح خليل قادماً إلى الموعد شعر حسام بقلبه يبتهج أنه يجب
صديقه كثيراً وقد توطدت العلاقة بينهما منذ ذلك اليوم الذي عصّب فيه
أخاه الذي لعب دور الشمر.

مرّت سنوات عديدة حتى أنّ البعض تصور أنّها أخوان وليس مجرد
صديقين..

أحياناً يتذكران تلك الحوادث ويضحكان وربّما ذكرا بعض الأطفال
الذين فضلوا التمثيل في معسكر يزيد لقد كبروا وبعضهم انتسب إلى
الاتحاد الوطني للطلبة وهو واجهة من واجهات حزب البعث لقد اختارا
معسكر يزيد مرّة أخرى...

يبدو أن الحياة مسرح كبير يمثل فيه الإنسان دوره ويمضي وهكذا
تتعاقب فصول التاريخ الإنساني.

نهض حسام لدى اقتراب خليل وتصافحا بحرارة وكأتهما لم يتلاقيا منذ
مدّة...

كان خليل متحمساً لقراءة قصيدة شاعر عراقي يقال أنّه من أهالي
البصرة ويقيم في الكويت والقصيدة منشورة في جريدة القبس وكان حسام
في لهفة لسماعها فالمرء أحياناً يود أن ينفّس عما يعتمل في أعماقه من خلال
صرخة رفض يسمعها من آخر.

تحت عنوان لافتة: أين المفر؟

المرء في أوطاننا

معتقل في جلده

منذ الصغر

وتحت كل قطرة من دمه

مختبئ كلب اشر

بصماته لها صور

انفاسه لها صور

احلامه لها صور

المرء في أوطاننا

ليس سوى اضبارة

غلافها جلد بشر

اين المفر؟

أوطاننا قيامة

لا تحتوي غير سقر

والمرء فيها مذنب

وذنبه لا يغتفر

إذا احسّ أو شعر

يشنقه الوالي: قضاءً وقدر

إذا نظر تدهسه سيارة القصر

قضاءً وقدر

إذا شكا

يوضع في شرابه سم

قضاءً وقدر

لا درب.. كلا لا وزر

ليس من الموت مفر

يا ربنا

لا تلم الميت في أوطاننا إذا انتحر

فكل شيء عندنا مؤمم

حتى القضاء والقدر

أين المفر؟!!

ضحك حسام بمرارة وتذكر حادثة وقعت منذ سنوات طويلة عندما

زار في صباحه مع أسرته أقارب لهم في مدينة الثورة كانوا نائمين وكان الوقت

بعد منتصف الليل اذ بصوت يشق سكينه الليل ويوقظ النيام في الازقة

المجاورة كان رجل يصيح:

- الله أكبر أين المفر؟! الله أكبر أين المفر?!!

وقد استيقظ كثيرون وخرجوا إلى الزقاق حيث شوهد رجل على
أعتاب الأربعين يرتدي دشداشة ويده ابريق وهو يركض هائماً على وجهه
ويصيح: الله اكبر أين المفر؟

وعاد الذين هبوا من رقادهم يخبر بعضهم بعضاً:

- هذا ناشور رجل وحيدة العورة!

وظهر أن الرجل تضطهده زوجته وقد طفح به الكيل في تلك الليلة
الصيفية فخرج من داره ويده ابريق الماء وهو يطلق صرخة الاستغاثة
وسمعت ضحكات المتندرين في تلك الليلة ثم سرعان ما اطبقت سكينه
الليل مرة أخرى دون أن يهتم أحد بمصير ناشور في ذلك الليل البهيم:
بعضهم قال حانقاً: الأغم شارد من مرته. ردّ آخر قائلاً: انت ما تعرف
وحيدة العورة؛ عمي زين عايش كل هاي السنين؟

قال ثالث: يمغير طلگها وخلّص روحك، هم عورة وهم عاگر.. من

الله يطيح حظك

ضحك خليل من كل قلبه وتعجّب لذاكرة حسام قال:

- والله نقلتها صورة وصوت من هذي الساعة ابشرك انت مقبول بكلية

الطب.

ضحكا معاً في فرح وراحا ينظران بشيء من الأمل إلى الأفق البعيد ثمة
نافذة مفتوحة مشرعة وآمال خضراء وأحلام وردية تلوح من بعيد بالرغم

من تراكم الغيوم اشبه بقوس قزح ملوّن يرتسم في السماء بعد عاصفة
ممطرة!

راحا يتمشيان على ضفتي الساقية بعكس التيار فوصلا إلى النهر الذي
يطلق عليه في لغة الناس "الشط".

قال حسام:

- قادتنا الساقية إلى الشط والشط يقودنا إلى النهر والنهر يأخذنا إلى
المنابع.

أما خليل فقد سرح خياله بعيداً إلى البحر حيث يتجه الفرات جنوباً
فيعائق دجلة في القرنة ومن هناك يسافران معاً عبر شط العرب إلى الخليج
لهذا قال:

- عندما يخاطر في بالي ذكر الخليج اتصور السياب جالساً على شواطئه
الرملية وينشد قصيدته «غريب على الخليج»

وعلى الرمال على الخليج

جلس الغريب يسرح البصر المحير في الخليج

ويهدّ أعمدة الضياء بما يصعد من نشيج

أعلى من العباب يهدر رغوّه ومن الضجيج

صوت تفجر في قرارة نفسي الثكلي: عراق

كالمدّ يصعد كالسحابة كالدموع إلى العيون

الريح تصرخ بي عراق

والموج يعول بي عراق عراق ليس سوى عراق

قال حسام:

- من زمان وأنت تحب الشعر والأدب لكن اخترت الفرع العلمي؟!

قال خليل وهو ينظر إلى الأفق الغربي وكانت الشمس قد لامست خط

المغيب:

- أنا أحب الفرع الأدبي ولكن والدي وحتى والدي اصروا عليّ اختار

الفرع العلمي.

- كل الآباء يحبون أن يصبح أولادهم أطباء ومهندسين.

قال خليل وهو يبتسم:

- قال لي والدي: بويه اريدك تصير دكتور مهندس محامي . لما اخبرته أنه

بالفرع الأدبي يمكن أن أصبح محامي قال: لا بويه لو دكتور لو مهندس

بطلت محامي لا تصير!

ضحكا معاً.

وعندما اصبحا قريبين من الدور قال حسام لصديقه وهو يودعه:

- اشوفك بالجامع.

دجلة - 8

في ذلك الاصيل الحالم على ضفاف دجلة جلس أبو ميسون وحيداً يسرح
بصره فوق المياه الغربية وهي تمضي في طريقها هادئة إلى الخليج وإلى المحيط
إلى اللانهاية كان مهموماً في ذلك اليوم الخريفي من سنة ٧٨ وكان ما يضاعف
همّه أنه لا يعرف سبباً لمشاعر حزن تنبعث في أعماقه..

لأول مرّة ربما منذ سنوات يتصل بزوجته ويخبرها بأنّه لن يعود ظهراً
كان فيما مضى يذهب إلى منزل أخيه عندما يجد نفسه مهموماً ولكن أخاه
ذهب إلى اليمن حتى أنّه نسي أن يستسفر إلى أي اليمنين سيسافر لقد
حدس بعدها أنّه ذهب إلى الشمالي ثم أكدت رسالة أخيه اليتيمة ذلك. لكنه
فضل أن يذكر الاسم التاريخي "اليمن السعيد" وكانت الصورة إلى إرسالها
أخوه وهو واقف بالقرب من آثار مملكة سبأ البائدة توحى بأن أخاه قد نجا
من السجن الكبير لقد حوّل البعثيون العراق إلى جحيم لا يطاق..

كان يتساءل في أعماقه إلى أين يسار بهذا البلد الكريم.. عشر سنوات
مرّت وكأنتها عشرة قرون اختفت أشياء كثيرة حلوة ... غابت بعض مظاهر

ليالي رمضان الحاملة لم يعد منبر مسجد الهاشمي في الكاظمية يشهد تلك الليالي المفعمة بالجمال وكلمات الشيخ الوائلي لقد ذهب الرجل واختفى في مكان ما من العالم العربي وأقفر جامع الخلاني من تلك الليالي الرمضانية الموحية. في كل يوم تزداد شراسة النظام وفي كل يوم تزداد شخصية الفرد العراقي تعقيداً خاصة ملايين المسحوقين، فكانت انتفاضة صفر وحوادث الأربعين في العام الماضي هي أول اختبار للتصادم بين إرادتين إرادة نظام مدجج بكل وسائل التعذيب والبطش وإرادة شعب أعزل إلا من جذوة إيمان تتقد بصمت وبصيص آمال تومض كنجوم في أغوارها السحيقة ... منذ سنوات ظهرت قصص بنت الهدى فشهدت إقبالاً واسعاً من الناس.

كان أبو ميسون يحرص على شراء كل ما يصدر عن شقيقة السيد الصدر اشترى «الفضيلة تنتصر» و«الخالة الضائعة» و«امراتان ورجل» و«صراع من واقع الحياة» «ليتني كنت علم» و«الباحثة عن الحقيقة» وحتى كتابها «ذكريات علي تلال مكة».

كانت ابنته ميسون تلتهم كتبها إلتهاماً وهذا ما دفع بوالدها إلى أن يتابع اصدارات هذه الكاتبة واقتنائها وكان هو أيضاً يقرأها.

وكانت ميسون تحفظ بعض المقاطع التي تتأثر بها وربما خطتها في دفتر من دفاترها المدرسية وكانت تتغنى بهذا المقطع الذي جاء على لسان أحد أبطال قصص بنت الهدى:

- ما الدنيا إلا ساعة شوق إلى لقائك وما الحياة إلا عمر إلى فنائك وما العمر إلا لحظات كفاح من أجلك وفي سبيلك. فاجعل حياتي يا رب كلمة رضا واجعل روحي يا سيدي خفقة أمل ورجاء.

وكان أبو ميسون يشعر بالرضا وهو يرى ابنته تستغرق في قراءة هذه الكتب التي تغذيها بالقيم الإنسانية والاخلاقية وتحصنها من مخاطر ما يبث من خلال التلفزيون من مسلسلات تخدش الذوق الاخلاقي وتفسد قيم المجتمع.

وكان أبو ميسون يشعر بالمتعة في قراءتها عندما يشهد عبر قصصها هزيمة القيم الاجتماعية الفاسدة وانتصار الفضيلة. صحيح أن قصصها لا تمت بصلة إلى الواقع إلا أنها تعبر عن الحقيقة التي يراد لها التغييب والموت.

لقد كان الاقبال الواسع على اقتناء هذه القصص يعبر عن ظمأ المجتمع في بحثه عن هويته لقد كان القراء فيما يبدو يبحثون عن مجتمع ضائع وهوية مفقودة.

وقد كتبت بنت الهدى في مقدمة أحد كتبها أنها تهدف من وراء هذه القصص إلى إحياء جهاز إعلامي صامت في هذا المنعطف الخطير من حياة الشعب العراقي.

كانت ميسون وعشرات الفتيات من جيلها يتشربن القيم الأخلاقية

وكن يستلهمن أبطال تلك القصص فكانت شخصية (نقاء) في الفضيلة تنتصر، قوية حيّة تنبض بالحياة.

أصبحت ميسون فتاة ناضجة تشع عيناها بالفضيلة وكان جماها الانثوي منصهراً بجمال روحها النقية حتى أن من يراها يحسبها حورية قدمت من عالم مفعم بالنقاء والطهر والفضيلة.

كان أبو ميسون عندما ينظر إليها يشعر بالفرحة والأمل وكان يحس بأن همومه تتبدد، يكفي أن تبسم له فإذا بقلبه تغمره أشعة شمس تضيء نفسه وتشعره بالدفء.

كانت عيناها نافذتين تطلان على عالم تغمره الأنوار... أحياناً كان والدها يرنو إلى عينيها ويهمس في داخله: حقا ما تقوله خالتها: ميسون حورية!

كان خريف سنة ٧٨ حزينا جداً وكانت أمطاره تشبه دموع أم جنوبية فقدت ابنها في حرب الشمال.

وظهرت في تلك الفترة قصيدة حسينية ربما على خلفية ما حصل في العام الماضي من صدام مع زوار الإمام الحسين ووسائل القمع التي انتهجها البعثيون ضد المواكب التي كانت تتجه نحو كربلاء.

ولو قدر لإنسان أن يراقب مئات الالوف وهي تقطع المسافات الطويلة مشياً على الأقدام لامتلأت نفسه بالرهبة لهؤلاء الحفاة من العاشقين الذين

توهجت في أعماقهم شعلة اسمها الحسين و كربلاء ملحمة تحمل اسم
عاشوراء.

الله وحده يعلم ما يلاقي هؤلاء من قهر واضطهاد واعتقال وتعذيب .
في تلك الظروف العصيبة ظهرت تلك القصيدة التي أضحت بسرعة نشيد
الملايين، كان صوت القارئ الحسيني ياسين الرميثي الذي ألقاها في مكان ما
ولحظة ما، مشحوناً بكل ما يواجهه ملايين الناس المقهورين منذ قرون:

- يا حسين بضمايرنا

صحنا بيك امنا

لا صيحة عواطف هاي

لا دعوى ومجرد راي

هذي من مبادئنا

صحنا بيك آمنة

بتكوين البشر يا حسين

متساوين نوعية ...

غال اللي يزور حسين

من ايده ينگطع چفه

انطينا چفوفنا بالحال

واجينا نزورك بلهفة

وقد طار صيت هذه القصيدة فكان الجميع يبحث عنها حتى أصحاب التسجيلات الذين كانوا يهتمون بتسجيل الأغاني اشتركوا في توزيعها سرّاً طمعاً بالربح وكان أبو ميسون قد عرف كيف يحصل على شريط كاسيت فقد كلف أحد معارفه في شارع المثني بأن يحصل على نسخة من القصيدة الخالدة. وسرعان ما حصل على شريط كاسيت فدمسه في جيبه.

كان في طريق عودته إلى المنزل؛ السماء تنث مطراً ناعماً دس أبو ميسون شريط الكاسيت في مسجل السيارة فانطلق صوت حزين لكنه مشحون بالتضحيات والإباء، منقوعاً بالدماء مليئاً بالقهر.

أي قدر يعصف بهذا البلد؟ وإلى اين يسار بهذا الشعب؟! من أين جاء هؤلاء؟ من اين جاء هؤلاء الأعراب، من أين جاءوا بكل هذه القسوة والوحشية والهمجية حقاً نفيت واستوطن الأعراب في وطني ودمروا كل أشيائي الحبيبات . أصبح أن من يذق لحم إنسان يتحول إلى ذئب؟

لماذا يجاربون الحسين، هل يشعرون بالخطر وهم يرون مواكب الزوار تتدفق لزيارته؟!!

انحدرت دمعتان وتزحلقتا فوق خديه وكانت قطرات المطر تتزحلق فوق زجاج السيارة وهي تشق طريقها على هون.

أغلق مسجل السيارة واستخرج الكاسيت وأعادته إلى جيبه. انطلق صوت الراديو..

- مونت كارلو موناكو... مالبورو...

يمتطي صهوة جواده وينطلق في البراري..

بانو راما...

آية الله الخميني يصل العاصمة باريس ويختار ضاحية نوفل لوشاتو...

وفي تصريح له قال الخميني أنه سوف ينتقل من مطار إلى مطار ويقود

الثورة لاسقاط الشاه...

كان أبو ميسون قد بدأ ينشد إلى سماع ما يجري في إيران.

كل العراقيين في تلك الفترة كانوا مشدودين إلى أخبار المسيرات المليونية

المناهضة لنظام الشاه...

انتقل بالموجة إلى اذاعة لندن فجاء خبر عن استمرار اختفاء الإمام

موسى الصدر وتأكيد الحكومة الايطالية على نفي وصوله إلى روما قادماً

من ليبيا.

الشيخ محمد مهدي شمس الدين ما يزال يجري اتصالات مع جهات

عربية رسمية حول الموضوع.

عبرت السيارة الجسر المؤدي إلى الكاظمية ولاحت له المنائر والقباب

البهية.. أن موسى بن جعفر كان سجيناً في اقبية حاكم بغداد ثم اغتيل ووضع

جثمانه فوق هذا الجسر واندر جلاله إلى الأبد في حين شقت منائر السجين

الشهيد تراب القبر لتعلو في الفضاء وتصبح كعبة يقصدها الناس الطيبون..

عرج بسيارته إلى محلة قرب الجسر حيث بيت خالة ميسون كانت
قطرات المطر ما تزال تساقط بهدوء عندما دلف إلى المنزل..
ابتسمت ميسون جذلة برؤية والدها، كم تحبّه؟ الله وحده هو الذي
يراقب الاعماق... يراقب العواطف وهي تمور..
شعر أبو ميسون بالنور يشرق على قلبه وهو يرى ابنته سعيدة راضية.
يشع من عينيها النجلاوين نور هو انعكاسات لمرايا صافية.. إنها الآن
قد دخلت في ربيعها الخامس عشر تنطلق إلى المستقبل بكل أمل وشوق
تشرق البسمة في عينيها وتطوف فيها أحلام وردية وأمان خضراء.

الفرات - 10

بدأ العالم كله يتابع ما يجري في إيران خاصة بعد انطلاق المسيرات والمظاهرات المليونية التي عمت المدن الكبرى في إيران وكانت الحكومات التي حاول الشاه من خلالها معالجة البركان الذي تنبأ بانفجاره هيكل تتهاوى وبدأ نظام الشاه يترنح.. واستمرت الدماء بالتدفق في شوارع العاصمة لكن شعار الشعب الإيراني ظل يدوي الله اكبر خميني رهبر..
مرگ بر شاه مرگ بر شاه!

وكانت بيانات الامام روح الله الموسوي الخميني تنطلق من باريس وتصبّ حمها على النظام الشاهنشاهي الغاشم حتى وصفها هيكل بمقولته الشهيرة مدافع آية الله!

كان الجيش الإيراني قد احتل الشوارع وأطلقت الحكومة العسكرية تهديداتها بأنها سوف تضرب بيد من حديد كل من يتجاوز قانون حظر التجول.

شهر محرم الحرام شهر الدم الكربلائي والاباء الحسيني وتصاعد غليان العروق..

وظهرت المرأة الإيرانية كأقوى ما تكون.. وصدر بيان للامام بأن الشعب الإيراني سوف يواصل نهج الحسين وأنه سوف يدفن بتضحياته السلالة البهلوية.

كل الشعب العراقي كان يتابع بحماس الفصول المثيرة لأكبر ملحمة شعبية في العصر الحديث.

كل شبان العراق من الذين قدر لهم أن يشهدوا هذه الحادثة الكبرى كانوا مأخوذون بالمشهد الإيراني حيث ظهر شيخ وقور نافذ العينين يضع على رأسه عمامة سوداء ينتسب إلى سلالة طاهرة فهو ابن الحسين حفيد علي وابن رسول الله ظهر هذا الرجل ليقود ثورة كبرى هي أكبر ثورة في تاريخ البشرية الحديث.

وظهرت خلفه الملايين التي كانت تعشقه حتى الموت فكأنه يحمل فأس إبراهيم ويعتلى صهوة ذي الجناح.. وبيده سيف ذي الفقار.. كل المقهورين الذين قدر لهم أن يداسوا بأحذية البعثيين راحوا يتطلعون بأمل إلى ما يجري من ملحمة...

وتألفت إذاعة مونت كارلو حتى الدعايات التي تسبق بانوراما حفظها الشباب الفتى وكتبت الصحافة العالمية أن الشاه إذا عبر شهر محرم بسلام فقد ينجو نظامه من خطر السقوط.

وحبس الجميع أنفاسهم وكان العالم بأسره يراقب ما يجري ووقف

التاريخ حائراً أمام منعطف مثير من مسار الحياة الإنسانية.
الذين تسنى لهم رؤية ذلك الشيخ الوقور بعينه النافذتين وسكينته رأوا
هالة من النور تغمر محياه وطاقة روحية تشع منه لم تمنعها أو تحدّها شاشات
التلفاز ... سرّ ما يكمن في شخصية هذا الرجل الذي ظهر على قدر!
إن الجيل الذي عاصر ما يجري في أرض الجوار وبخاصّة الشباب
العراقي في الوسط والجنوب ومدينة الثورة شعر أن آية الله الخميني ما هو
إلا أحد الذين كانوا مع النبي محمد وعلي والحسين إنه قادم من أرض
كربلاء من يوم عاشوراء..

جاء ليثار من أجل كرامة الإنسان وتحريره من عبودية الطغاة وانظمة
القمع.. إنه وبكلمة واحدة الأمل الذي انبثقت حروفه من الألم.
وبدأت بشائر النصر تلوح في الأفق.. لقد فرّ الشاه وتخلّى عن عرش
الطاووس بحجة السفر لتلقي العلاج! إن شمس الانتصار قد بزغت
بالرغم من كثافة الغيوم.

كانت الثلوج تنهمر في طهران والجماهير ما تزال تجوب الشوارع تنادي
بالثورة وقد اخذت شكل الاحتفالات بعد رحيل الشاه كان ذلك في ١٦
كانون الثاني ٧٩.

واتجهت أنظار العالم إلى الإمام الخميني الذي أعلن أنه يستعد للعودة
إلى الوطن مطالباً نواب البرلمان الذين لم ينتخبهم الشعب بالانسحاب إلى

أن تجري انتخابات حرّة حقيقية.

وفي يوم ٢٧ كانون الثاني خرجت المسيرة الكبرى في طهران لتكون ايداناً بسقوط حكومة بختيار.

وتسارعت الأحداث بشكل مثير. ثم اعلن أنّ طائرة فرنسية سوف تقل الإمام الخميني من باريس إلى طهران. وراح العراقيون يتفننون في التقاط تلفزيون طهران لأول مرّة وأخيراً رأى الملايين صوراً تلفزيونية تتضح وتشوش، وظهر الرجل العظيم جالساً في أحد مقاعد طائرة جامبو فرنسية تغمره السكينة بينما تناقلت وكالات الأنباء أن شاهبور بختيار قد يأمر باغلاق مطار طهران واحتمالات أن يتم إسقاطها من قبل سلاح الجو الإيراني.

وعندما وضع قدميه في أرض الوطن وجد أكثر من ثمانية ملايين إيراني في استقباله، واتجه موكبه إلى مقبرة جنّة الزهراء ليلقي خطابه التاريخي الذي جاء فيه: أنا الذي يعين الحكومات في هذا البلد.

وفي هذه اللحظة التاريخية ولدت ظاهرة التكبير: الله اكبر الله اكبر التي راحت تدوّي في سماء إيران.

لقد كانت الكلمات أعظم من أن تواجهه بالتصفيق كما هو المعتاد، فانطلقت حنجرة مؤمنة بهذا الهتاف الثوري الجديد!

وراح التلفزيون الإيراني ينقل بشكل حيّ وقائع اليوم الخالد انقطع البث فجأة وظهرت صورة الشاه وبث السلام الملكي.

وهكذا بدأت الأيام العشرة التي هزت العالم، واعلن عن تشكيل حكومة موقته انتقالية.

وتفاقت الأوضاع ولا أحد يعرف ما الذي سيحصل.

دفعت حكومة بختيار بالدبابات واقلعت الطائرات العمودية لإرهاب الشعب وأعلن عن منع التجول ابتداء من الساعة الرابعة والنصف.

لكن الإمام أحبط ذلك وأصدر تعليماته إلى الجماهير ألا تغادر الشوارع أبداً وفشلت أنواع الأسلحة في قمع الشعب الثائر وتحولت طهران إلى ساحات للقتال واقامت المتاريس في كل مكان وفي الرابعة فجرأ شنت دبابات الحرس الملكي هجوماً على معسكر القوة الجوية واندفع الشعب لحماية المعسكر الذي قرر الانضمام إلى الشعب.

وفتحت بعض المعسكرات مشاجب السلاح للشعب وراحت معسكرات الشرطة والجيش تسقط بأيدي الثائرين، وفي يوم ١١ شباط تهاوى عرش الطاغية إلى الأبد وفجأة بدأ القسم العربي في راديو طهران يبت أناشيد حماسية بالفارسية ثم يعلن بلسان عربي مبين .

- هنا طهران صوت الثورة الإسلامية في إيران .

وتدفق العراقيون إلى الشارع وكان بعضهم يبكي فرحاً وأحياناً ترى السماء تمطر الجفكليت حتى بعض البعثيين خرجوا إلى الشوارع في مدينة الثورة، لقد كان عرساً عظيماً للشعب العراقي المقهور.

من أين جاء هذا الفرح؟ ما الذي جعل الناس تخرج إلى الشوارع والأزقة لتبادل التهاني؟!!

ما الذي يعنيه إليهم هذا الشيخ الوقور؟ ما الذي رأوا فيه؟!
وبدأت أمواج الأثير تحمل تصريحات ذات دلالة: موشي دايان وزير دفاع إسرائيل: ما حدث في إيران زلزال سوف تصلنا هزاته بعد قليل!
ميتران الرئيس الفرنسي: الثورة الإيرانية رصاصة انطلقت من عمق التاريخ لتستقر في القرن العشرين.

وظهرت إيران الجديدة وقد تطهرت من أدران الماضي من العمالة لأمريكا واسرائيل فإذا هي تعلن بملء الفم انها تعتبر نفسها اليوم دولة من دول المواجهة مع إسرائيل!

الفلسطينيون يبتهجون بالانتصار ويأسر عرفات يطير إلى طهران وتدمع عيناه عندما يشاهد طائرتي فانتوم في استقباله جواً ويقول:
- هذه أول مرّة أشاهد فيها طائرة فانتوم صديقة!

وفي العراق سيطرت حالة من الوجوم وبدأ الناس يشعرون بأن أشياء ما تجري في الخفاء، فالحلقات الحزبية التي اهتزت يوم انتصار الثورة في إيران بدأت تستعيد قبضتها وشيئاً فشيئاً بدأ حزب البعث يفصح عن نواياه تجاه ما يجري في أرض الجوار. ترى ما الذي تخبئه الأقدار؟!!

الفرات - 11

كانت الخضره تغمر الرفاعي وبخاصة الشط بأبهى حلّة، وقد بدأ حسام وهو يتمشى ذلك الضحى أسعد شاب في الرفاعي وهكذا تمّ قبوله في كليّة الطب في جامعة بغداد وتحققت أمنيته.. فقد أثمرت ليالي السهر فكان الأوّل في امتحانات البكالوريا في مدارس الناصرية، إن المستقبل يفتح له نافذة ملوّنة.

غمرت الفرحة ذلك البيت القريب من الشط وكان الأب أكثر سعادة وتفاؤلاً سوف يبتعد ابنه عن الرفاعي سوف ينصهر في مجتمع جديد ويتفرغ للدراسة ليصبح طبيباً، بعكس والدته التي كانت تمتزج دغدغات الفرحة في قلبها مع هواجس فراق ابنها البكر فكانت ثمة دموع تتألق في عينيها لا يعرف هل هي دموع الفرح أم دموع فراق وشيك؟ فيما كانت اخته أنعام قد بدأت تدعوه دكتور حسام وكان يبتسم لها وغمرت الفرحة اخته الصغيرة وأخاه وكانا يجبانه ربما أكثر من أبيهما ولم يكن يغيظ ذلك أباه فقد كان يدرك في قرارة نفسه أن ابنه يشعر بالمسؤولية وقد كبر بسرعة وكان

يحترمه ويخشى عليه عادات الزمن.

وفي الغروب كان حسام يفكر بلقاء الشيخ ابو محمد في المسجد لكنه لم يأت وقد مرّت أسابيع وانتابته هواجس.

عندما فرغ من صلاة العشاء حانت منه التفاته فرأى وجهاً غريباً لم يكن مألوفاً فشر تجاهه بالريبة لم تكن نظرات ذلك الغريب مريحة فقد كانت عيناه أشبه بالعيون الزجاجية وكان يجلس النظر إلى الشبان فقط.

شعر بالانقباض وغادر المسجد بمجرد أن فرغ من الصلاة اتجه إلى منزل الشيخ وضغط على زر الجرس ولكن دون جدوى ظل الباب مغلقاً فاتجه إلى منزل صديقه خليل وطرق الباب وراح ينتظر، سمع أصداً خطى قادمة وفتح الباب ليرى شقيق الصديق ليقول له بكلمات مقتضبة وجادة؛ خليل ما موجود...

واستغرب حسام أنه لم يدعه إلى الدخول فعاد أدراجه إلى البيت... كانت الأم تعد مائدة العشاء وقد لاحظت ابتها أنها كانت تكثر من طبخ الأكلات التي يحبها حسام وكانت في داخلها تبتسم لهذا راحت تضيف إلى لقب الدكتور لقباً آخر المدلل. لم يسأل عن والده فقد أصبح من رواد المقهى في الأيام الاخيرة في البداية استهواه التلفزيون الملون الذي دخل المقهى لأول مرة ثم وجد فيما بعد متعة في الجلوس وتبادل الأحاديث أو الاصغاء لما يدور من نقاش أحياناً وكان بعض الشيوعيين قد بدأوا ينشطون.

عاد أبو حسام إلى البيت متأخراً على غير عادته ولم تكن ليلة جمعة حيث كان يسمر في بيت أحد المعارف أو الأصدقاء.. كان وجهه خال من أي تعبير وكان ينفث دخان سيجارة من النوع الرخيص.

رمى بعقب السيجارة وراح يتمتم بشيء من الحنق: أيام المزبن گظن دگظن يا أيام اللف!

وتناول أبو حسام عشاءه وحيداً كان مستغرقاً في صمت عميق التفت إلى ابنه الذي جلس بالقرب من أخته يشرح لها بهدوء أحد الدروس قال الأب:

- وين صلّيت بويه؟

- بالجامع.

- متى تروح لبغداد؟

نظر حسام إلى أبيه محاولاً اكتشاف سرّ هذه الأسئلة وقال:

- هذا الأسبوع.

أرادت أنعام أن تكسر هذا الجوّ فقالت لأخيها:

- أنتم السابقون ونحن اللاحقون.

نظرت الأم نظرة طويلة إلى ابنتها وهزّت رأسها بأسف قال حسام:

- يمّه قصدها راح تكمل دراستها ببغداد.

قالت الأم:

- أعرف يمّه بس هي بالخامس أدبي وهالتشوف دراستها!

عرف حسام أن أخته سوف تتألم فقال:

- الجامعات تخرج أطباء وأدباء.

تدخل الأب فقال:

- يا أم حسام هي كفرت؟ ليش هي قرت الفاتحة؟

قالت أم حسام:

- اجه يكحله عماها!

قال حسام:

- احسن شي نرجع لدرسنا.

وساد صمت حتى أن أزيز ابريق الشاي قد سمع صوته وفي الأثناء

تناهى صوت طرقات على الباب!

تبادل الجميع نظرات متسائلة نهض حسام وعندما فتح الباب أصبح

وجهاً لوجه أمام صديقه خليل فدعاه إلى الدخول وتبادل الصديقان بضعة

كلمات وجاء حسام ليستأذن والده في الخروج قال الأب:

- خير انشاء الله؟!

- ماكو شي ساعة وارجع..

سألت الأم:

- وين يمّه؟!

أجاب وهو ينظر إلى أمه بحب:

- هذا خليل نتمشى شوية.
- لا تبطي.
- لم تفوت أنعام الفرصة فقالت:
- يمكن حالة طارئة استئصال غدة سرطانية.
- ضحك حسام وهو يغلق الباب وراءه.
- وفي نهاية الزقاق المؤدي إلى الشط فوجئ حسام بخليل يقول له:
- كنت في البيت عندما طرقت الباب.
- لماذا لم تخرج اذن؟!
- لأن أخي منعني من اللقاء بك!
- لماذا؟
- ومنعني من الصلاة في المسجد.
- الوالد أيضاً سألني بدون سابق انذار بعدك تصلي بالمسجد!
- لنذهب إلى بيت الشيخ ابو محمد.
- لا أحد في البيت!
- الشيخ موجود و ينتظر.
- شعر حسام بأن أموراً تحصل وهو منشغل في قضية أخرى.
- طرق خليل الباب طرقات خفيفة وانتظر.. ومرّت لحظات ثم فتح الباب وظهر وجه الشيخ باسم بالرغم من أنه يخفي شيئاً من القلق.

وبعد أن استقر بهم المجلس قدّم الشيخ تبريكه على قبوله في كلية الطب
واخبره بأنّه سيتصل به في بغداد فيما بعد.

وانتقل الشيخ إلى الموضوع من غير مقدمة وقال أنّ السيد الصدر اعتقل
فجر أمس واقتيد إلى بغداد وقد حدثت ردود فعل قوية في النجف أثر
خطاب ألقته أخته العلوية بنت الهدى وقد أفرج عنه وعاد إلى منزله في
النجف والمطلوب هو التوجه إلى زيارته على شكل وفود لتعكس لحكومة
البعث مدى شعبية السيد وحب الناس له.

وقد بدأت المواجهة ضد النظام؛ فالسيد الصدر أصدر فتوى بحرمة
الصلاة خلف أئمة الجوامع الذين لا يملكون وكالة شرعية من المرجعية في
النجف. والأخطر من هذا أنّ السيد الصدر أفتى أيضاً بحرمة الانتماء إلى
حزب البعث.

نظر حسام إلى صديقه خليل نظرة أودعها من العزم والشجاعة ما ظهر
في نبرة كلامه:

- انا مستعد في أي وقت.

ابتسم الشيخ ابو محمد لشهامته:

- بارك الله فيك، أستطيع أن أخبركم بأنّ السيد الصدر يعتز بكم وينظر
اليكم بأمل أن مستقبل البلد يتوقف على إرادة الشباب من أبناء العراق.

الفرات - 12

اشترى حسام راديو ترانسزتر صغير الحجم ولم يفاجئه السعر فقد ارتفعت أسعار هذه الأجهزة منذ غليان الثورة في إيران وظلت في صعود بعد تفعيل القسم العربي بإذاعة طهران وأصبحت هذه العبارة: (هنا طهران صوت الثورة الإسلامية في إيران) بمثابة بلسم للجراح وبوابة أمل وحتى مع بدء التشويش فقد كان الكثيرون من أبناء العراق يتفنونون بالتقاط هذه الإذاعة.

قبل منتصف الليل كان حسام يطوف العالم عبر هذا الجهاز الصغير من على سطح الدار استمع إلى عدّة إذاعات ثمّ نظر إلى ساعته وانتقل إلى موجة كان قد حددها من قبل وظهر صوت رنين تزاممه امواج تشويش تعلو وتدنو. كانت ليلة صيفية السماء مرصعة بالنجوم وقد ظهر القمر المثلوم بهياً وجاء الصوت: هنا طهران صورت الثورة الإسلامية في ... بعث الإمام... قائد الثورة... سماحة... باقر الصدر هذا نصه... الحاج السيد محمد باقر... بركاته.

علمنا... سماحتكم مغادرة العراق... بعض الحوادث... مغادرة
النجف الأشرف... وانني قلق من هذا الامر أمل... وبركاته روح الله
الموسوي الخميني...

السيد محمد باقر... برقية جوابية هذا نصها: سماحة آية الله... الامام...
السيد... الخميني دام ظله
تلقيت برقيتكم الكريمة...

كما اشعر بعمق المسؤولية... وأود أن أعبر لكم بهذه المناسبة عن تهنئات
الملايين من المسلمين والمؤمنين... في عراقنا العزيز الذي وجد في نور
الإسلام... من جديد... طاقة روحية لضرب المستعمر والاستعمار
الإمريكي ولتحرير العالم من كل أشكاله الإجرامية وفي مقدمتها جريمة
اغتصاب ارضنا المقدسة فلسطين... الخامس من الهجرة... محمد باقر
الصدر... هذا وكانت قد تسربت أنباء حول نية السيد... باقر الصدر في
العراق..

وفي مساء اليوم التالي ذهب حسام إلى الجامع كان يود لقاء الشيخ أبو
محمد فلم يجده لكنه وجد خليل فاقترح عليه الذهاب إلى منزله فقال
خليل:

- سافر الشيخ إلى النجف لكنه سيعود قريباً.

انطلقا صوب الشط وجلسا في مكان معشب كانت النسائم تحمل عبق
الفرات.

وكان واضحاً من خلال حديثها انها يشعران بالفخار والحماس فقد
ظهر السيد الصدر ليقود المواجهة مع النظام وهذه هي البداية..
واتفقا على السفر إلى النجف فجراً.

وفي صباح اليوم التالي لم يصدقا انها في السيارة وهي تنهب الطريق نحو
مدينة النجف الأشرف...

وفي الضحى وصلا إلى المدينة كانت الشوارع مزدحمة إلى حد ما وكلما
اقتربا من منزل السيد الصدر كان الازدحام يزداد واكتظ سوق العمارة
بالوافدين.

وفي الزقاق الذي يوجد فيه منزل السيد الصدر كانت الهاتافات تدوي
والحناجر تصدح بلا خوف: «باسم الخميني والصدر الإسلام دوماً
منتصر»، «عاش عاش الصدر والدين دوماً منتصر».

ولما الشيخ أبو محمد الذي ابتهج لقدومها هما الآن في حضرة
السيد الصدر وقد صادف دخولهما مع وفود قادمة من مدينة الثورة...

ورحب السيد بحضور الشباب الذين جاءوا ليعبروا عن ولائهم
للاسلام...

ثم خاطبهم بنظرات ملؤها الحب قائلاً: أن الثورة ستنتقل من مدينة
الثورة!

كان حسام قد بدا ذاهلاً عن نفسه مأخوذاً بمشهد هذا الإنسان العظيم

وكان كتابه فلسفتنا ثم اقتصادنا قد أصبح مشار فخر لكل من كانوا يوصمون بالرجعية، ها هو السيد الصدر يقارع الفكر الماركسي ويحطم صرح الشيوعية وينتقل بالفكر الإسلامي إلى قلب الصراع الفكري المحتدم.

كان حسام يودّ البقاء إلى ما لا نهاية ولكن ماذا يفعل والجموع الحاشدة تنتظر اللقاء بلهفة.

وعندما ودعا السيد لم ينس الشيخ أبو محمد أن يوصيها لا تذهبا لوحدكما رجال الامن في كل مكان اذهبا مع أهالي الثورة وعندما تصبحان قريباً من السوق يمكنكما الذهاب إلى أي مكان.

لأوّل مرّة يرى حسام أصحاب العيون الزجاجية أن وجوههم الكالحة ونظراتهم تكشف عن همجيتهم ونذاتهم.. لكنهم الان يبدوون عاجزين وقد اكتفوا بالتقاط عشرات الصور.

وعندما مرّا بالقرب من أحد المساجد سمعا أحد شباب مدينة الثورة يشير إليه ويقول: هنا كان الإمام الخميني يصلي ويلقي محاضراته وعلّق آخر: ويقود الثورة...

وفي طريق العودة وفيما كانت السيّارة التي تقلّهم إلى الديار، راحا يتهامسان حول المستقبل في وطن حرّ وشعب آمن وحكم شريف.

وفي مساء اليوم التالي كان حسام أمام حدث كبير لم يكن ليخطر في بال

أحد، أن الشهيد الصدر يعلن الثورة، كان حسام في تلك الساعة من ليل العراق جالساً في سطح الدار كعادته ومعه هذه المرّة خليل وكان الراديو يبث بيان بصوت السيد الصدر ولم يتمكن التشويش من الخؤول دون سماع الكلمات الثائرة لرجل قرر المواجهة والثورة على نظام مدجج بكل أسلحة التعذيب والقتل.

- بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين وصحبه الميامين.

أيّها الشعب العراقي المسلم!

إنّي أخاطبك، أيّها الشعب الأبّي وأنا أشدّ الناس إيماناً بك وبروحك الكبيرة وبتاريخك المجيد، وأكثرهم اعتزازاً بما طفحت به قلوب أبنائك البررة من مشاعر الحب والولاء والبنوّة للمرجعيّة اذ تدفقوا إلى أبيهم يؤكّدون ولاءهم للإسلام بنفوس ملؤها الغيرة والحمية والتقوى، يطلبون مني أن أظلّ إلى جانبهم أواسيهم وأعيش آلامهم عن قرب لأنّها آلامي. وأني أودّ أن أوّكّد لك يا شعب آبائي واجدادني أني معك وفي أعماقك ولن اتخلّى عنك في محتك، وسأبذل آخر قطرة من دمي في سبيل الله من أجلك...

وأودّ أن أوّكّد للمسؤولين ان هذا الكبت الذي فرض بقوة الحديد والنار على الشعب العراقي فحرمه من أبسط حقوقه وحرّياته في ممارسة

شعائره الدينية لا يمكن أن يستمرّ ولا يمكن أن يعالج دائماً بالقوّة
والقمع..

إنّ القوّة لو كانت علاجاً حاسماً دائماً لبقى الفراغ والجبايرة .
أسقطوا الأذان من الاذاعة فصبرنا.

وأسقطوا صلاة الجمعة من الإذاعة فصبرنا.

وطوقوا شعائر الإمام الحسين عليه السلام ومنعوا القسم الاعظم منها
فصبرنا .

وحاصروا المساجد وملاؤها أمناءً وعيوناً وقاموا بحملات الإكراه على
الانتماء إلى حزبهم فصبرنا...

وقالوا انها فترة انتقال يجب تجنيد الشعب فيها فصبرنا.

ولكن إلى متى؟

إلى متى تستمر فترة الانتقال؟

إذا كانت فترة عشر سنين من الحكم لا تكفي لايجاد الجو المناسب لكي

يختار الشعب العراقي طريقه فأبي فتره تنتظرون لذلك؟

وإذا كانت فترة عشر سنين من الحكم المطلق لم تتح لكم أيها المسؤولون

اقناع الناس بالانتماء إلى حزبكم إلا عن طريق الإكراه فماذا تأملون؟ وإذا

كانت السلطة تريد أن تعرف الوجه الحقيقي للشعب العراقي فلتجمّد

أجهزتها القمعية أسبوعاً واحداً فقط ولتسمح للناس بأن يعبروا خلال

أسبوع عمّا يريدون.

إني أطالب باسمكم جميعاً أطالب بإطلاق حرّية الشعائر الدينية وشعائر الإمام أبي عبد الله الحسين عليه السلام.

وأطالب باسمكم جميعاً بإعادة الأذان وصلاة الجمعة والشعائر الإسلامية إلى الاذاعة.

وأطالب باسمكم جميعاً بإيقاف حملات الإكراه على الانتساب إلى حزب البعث على كل المستويات.

وأطالب باسم كرامة الإنسان بالافراج عن المعتقلين بصورة تعسفية وإيقاف الاعتقال الكيفي الذي يجري بصورة منفصلة عن القضاء.

وأخيراً أطالب باسمكم جميعاً باسم القيم التي تمثلونها بفسح المجال للشعب ليمارس بصورة حقيقية في تسيير شؤون البلاد وذلك عن طريق اجراء انتخاب حرّ ينبثق عنه مجلس يمثل الأمة تمثيلاً صادقاً..

وإني أعلم أنّ هذه الطلبات سوف تكلفني غالياً وقد تكلفني حياتي ولكن هذه الطلبات ليست طلب فرد لتموت بموته وإنما هذه الطلبات هي مشاعر أمة وإرادة أمة ولا يمكن أن تموت أمة تعيش في أعماقها روح محمد وعلي والصفوة من آل محمد وأصحابه...

وإذا لم تستجب السلطة لهذه الطلبات فإني أدعو أبناء الشعب العراقي الأبّي إلى المواصلة في حمل هذه الطلبات مهما كلفه ذلك من ثمن...

لأنّ هذا دفاع عن النفس وعن الكرامة وعن الإسلام رسالة الله الخالدة
والله ولي التوفيق.

عشرين رجب ألف وثلاثمائة وتسع وتسعين، محمد باقر الصدر .
تبادل حسام و خليل نظرات صامته وبقيا ساكتين ترى ما الذي
سيحدث غداً؟ وما الذي تخبئه الأيام؟!

دجلة- 9

أصبحت ميسون فتاة مكتملة النضوج من يراها يحسبها في الثامنة عشره
فيما هي الآن في الرابعة عشرة من عمرها قوام ممشوق ووجه يضيء كالبدر
وعينان نجلاوان كنافتين تفتحان على عالم مفعم بالصفاء..
كانت تسابق شجرة البرتقال في حديقة منزلهم في نموها وألقها وقد
ظهرت في شخصيتها نزعة نحو الصمت فهي قليلة الكلام غارقة في
تأملات تشبه الصلاة...

وبالرغم من نبوغها في دراستها إلا إنها اختارت الفرع الأدبي فقد كانت
تعشق الأدب وبدأت تحاول نظم الشعر، إنها باختصار نقاء بطلة الفضيلة
تنتصر تلك الفتاة التي قدمتها بنت الهدى شقيقة السيد الصدر إلى المجتمع،
هل كانت ميسون تستلهم نقاء؟ لا أحد يدري ما يختلج في خيال تلك
العذراء وهي تمضي في طريق الحياة.

انتبهت ميسون إلى أن والدها قد بدا في الأيام الأخيرة يتابع الأخبار
بشكل غير عادي ويشترى بعض الصحف لكنه كان يفضل قراءتها في

المحلّ أو في مقهى ويحاول أن يتفرغ لاسرته لدى عودته من العمل.
وفي تلك الفترة بدأ التلفزيون يبث بعض المسلسلات الأجنبية بشكل
غير طبيعي وبعضها فيه مشاهد تخدش الذوق الأخلاقي لهذا حرص أبو
ميسون على ينظم فتحه في نشرة الأخبار أو بعض البرامج العلمية. وفي
أمسية يوم ١٧ تموز سنة ٧٩ ظهر المذيع التلفزيوني ناطق حسن يسترعي
انتباه المواطنين والمشاهدين وكان التلفزيون والراديو يبث أناشيد تمجد
ثورة السابع عشر من تموز والشوارع مليئة بالياфطات وهي تحيي وتهنيئ
القيادتين القومية والقطرية لحزب البعث العربي الاشتراكي وفي غمرة هذا
الصخب الاعلامي ظهر رئيس الجمهورية أحمد حسن البكر يقدم استقالته
بسبب التعب ويسلم الراية إلى السيد النائب الرفيق صدام حسين.
كان أبو ميسون قد شعر بالخطر منذ أيام عندما قرأ خبر وصول وكيل
وزارة الخارجية البريطانية حتى أنه هتف دون ارادة من نفسه:

- يا ستار يا الله!؟

ولم يستطيع الرئيس العجوز أن يخفي مشاعره الحقيقية فثمة ما تنم به
العيون وارتجاف الكلمات! إن وراء الاكمة ما وراءها! ولم تكذ تمضي أيام
حتى وقعت الواقعة فقد افتتح الرئيس المناضل الرفيق صدام حسين رئيس
الجمهورية رئيس مجلس قيادة الثورة الامين العام لحزب البعث العربي
الاشتراكي حكمه الجديد بكشفه مؤامرة جديدة ضد الحزب والثورة

وتساقطت رؤوس كبيرة وبدأت حمامات الدم وظهر الوحش الذي لا يرتوي من الدماء.

ولم يزر النوم عيني أبو ميسون تلك الليلة... وعندما اغمض عينيّه إذا بهما تنفتحان على عالم آخر غارق في الظلمات وإذا به يرى الوحش ويده ساطور واقفاً، وأمّا الناس فقد كانوا جميعاً نياماً حتى إذا استيقظ أحد النائمين هوى عليه بساطوره... ولمحه الوحش فتقدم إليه وقد شهر ساطوره وهوى الساطور... فهب من نومه وهو يتصبب عرقاً .

وتناهى إليه صوت أذان الفجر فنهض للوضوء في حديقة المنزل وحانت منه التفاتة فرأى ابنته مستغرقة في نوم حالم فلم يشأ ايقاظها لولا أنّها كانت تلحّ على ذلك لتصلّي. لهذا همس بصوت خافت: ميسون! ميسون ابتسمت قبل أن تفتح عينيها..

ونهدت للصلاة وهي تفيض حيوية لكم يحبها وكانت مشاعره مزيج من الحب والحنان والاحترام.. احياناً يتساءل لماذا يحبها أكثر من بناته الاخريات!

هل لهذا صله بتدينها بنزعتها الروحية عندما أخذ اسرته إلى سلمان باك رأى في حقيبتها مصحفاً صغيراً وكتب صغيرة للدعاء وكانت تقضي أمسياتها في مرقد الإمام الكاظم حتى صديقاتها وزميلاتها في المدرسة يعرفن أين يجدها إذا لم تكن موجودة في البيت.

واستغرقت ميسون في صلاتها وكان يحلو له وهو يراقبها عن كثب أنها حمامة السلام في هذا المنزل. الله سبحانه أودع في قلبها نبعاً من الحنان يمكنه أن يفيض على مدينة بأسرها أنه لا ينسى أبداً ذلك الضحى الغائم عندما عادت من المرقد كانت السماء تنث مطراً خفيفاً وبدا واضحاً أنّها مشت مسافةً طويلة ولأول مرة يراها حزينة بل دامعة العين وقد امتزجت قطرات دموعها بقطرات المطر... وعزفت عن تناول الغداء وعندما استفسر عن السبب راحت تروي حكايتها مضمخةً بكائها:

كنت واقفة اقرأ زيارتي للإمام بالقرب من باب المراد واذا بأنين امرأة جنوبية يقطع القلب.. كانت المرأة تبكي ولديها اللذين اختفيا في حوادث الأربعين قبل سنتين لقد بحثت عنهما طويلاً وكل ما حصلت عليه أنّهما معتقلين لكنها لا تدري اين؟! فهي تأتي يومياً من الثورة إلى الإمام السجين وتدعو الله أن يعيدهما إليها ويكحل عينيها برؤيتهما، أحدها في كلية الطب والآخر في الهندسة.

تناول افطاره على مهل فلم تكن لديه رغبة في الذهاب مبكراً وأخبر زوجته أن لديه موعد ولن يعود إلى المنزل ظهراً كان قد قرر أن يمضي بعض الوقت في مقهى الشابندر في شارع المتنبى.

ترك سيارته وذهب مشياً بالرغم من حرارة الجو لكن عبق النهر كان يخفف من شعوره بالضيق ظلل رأسه بجريدة الجمهورية وهو ينظر إلى

المياه الغرينية تجري بهدوء ولم يلتفت إلى بعض الصبية يسبحون في الشاطئ.

اخترق السوق الذي ينتهي بمدرسة المستنصرية ودخل المقهى، كان هادئاً فاختر ركناً وجلس قرب رجل قد ناهز الأربعين يضع نظارة طبية ويقرأ في جريدة وقد تكدّست إلى جانبه عدّة صحف وكتب وتصوّره كاتباً أو أستاذاً جامعياً، لهذا حيّاه باحترام رفع الرجل رأسه وردّ التحيّة بوقار وابتسامة مقتضبة... وبعد لحظات قال دون أن يحول عينيه عن الجريدة:
- الله بالخير.

- الله بالخير استاد.

كان الرجل قد ترك سيجارته تحترق دون أن يأخذ نفساً منها، بدا وآنه يشتعل من الداخل كلما أمعن في قراءة الجريدة، انتبه إلى سيجارته التي أوشكت على الانتهاء فأخذ منها نفساً عميقاً ثمّ أطفأها بشيء من العصبية والانفعال نظر إلى أبو ميسون وقال بلهجة لا تخلو من تهكم:

- سمعنا الشرطي بلندن حافظ القانون البريطاني كلّ احنا سبقناهم لأنّ الشرطة بالعراق تكتب شعراً! إذا ما تصدق اقرأ.

قال ذلك وناوله جريدة الثورة وطالعه قصائد مديح للرئيس القائد تنضح تملقاً:

- يا فارساً في يديه السيف والقلم.

وبين كفيه يزهو العزم والكرم.
ابا عدي ومن للشعر يلهمه.
ان القوافي على كفيك تحتكم.
صدام يا أمة في البعث ماثلة.
جلى سنان الدجى فانداحت القمم.
وقرأ نصاً آخر:

وكيف و صدام مقدامها و صدام صدام اذ يندب
تنازل مرابض كل الاسود و آكام صدام لا تقرب
أعاد أبو ميسون الجريد بهدوء فأخذها الرجل ونهض واقفاً وتمتم
بحنق:

- والله حيف هذا الساقط يحكم العراق!
ثم التفت إلى أبو ميسون وقال:
- واصل چايك حجي.

ظل أبو ميسون ينظر إلى الرجل الطويل القامة الثاقب النظر الحنطي
الوجه ولم تستطع ابتسامته وهو يجيئه أن تغطي ملامح وجهه الصارمة
وعرف أن هذا الرجل من السادة عندما هتف أحدهم مودعاً.
- في أمان الله سيدنا.

راح أبو ميسون يطالع في جريدته ليرى ماالذي كتبه الشرطة من شعر

فإذا به يرى ما هو أفظع من الشعر عندما يقول عبد الرزاق عبد الواحد، أنّ
افصح رجل في الماضي هو المتنبي وفي العصر الحاضر صدام حسين!!
وحمدا لله أنّ ذلك الرجل لم يقرأ ما كتبه هذا الصعلوك...
وبلباقه استفسر عن هوية ذلك الأستاذ فإذا هو كاتب يدعى عزيز
السيد جاسم قال في نفسه وهو يودع المقهى: هذا الرجل لن يعمر طويلاً.

الفرات - 13

كان الصمت الحزين يجثم فوق المكان كغراب في مساء خريفى، ظهر القمر مثلوماً فوق الشجرة الوحيدة التي تتوسط باحة المنزل كان الشيخ ابو محمد يستعد لفتح الموضوع لكن الكلمات استعصت عليه والافكار تراكض في رأسه كخيول مجنونة. واكتفى حسام بالنظر إلى البساط القروي المخطط، رفع خليل رأسه ونظر إلى الشيخ الذي بدأ الكلام:

- الاوضاع ما تبشر بخير، والسيد الصدر ليس متفائلاً لقد امضيت الصباح في الاستماع إلى محاضرة السيد الصدر في حب الدنيا واظنها ستكون آخر محاضرة له... فقد اعتقل بعدها بعشرة أيام ثم اطلقوا سراحه وها هو الآن قيد الاحتجاز والإقامة الجبرية وقطعوا الماء والكهرباء والتلفون أياماً...

السيد الصدر يريد مواجهة النظام وحيداً كما فعل جده الحسين، سمعناه اخيراً يقول أن العراق بحاجة إلى دم كدم الحسين ليكسر طوق الخوف...
كان جهاز الراديو الصغير ييث بعض الأناشيد الدينية ثم جاء صوت

المذيع! هنا طهران صوت الثورة الإسلامية في إيران.

قال خليل:

- وإيران ألا تستطيع أن تفعل شيئاً؟

قال الشيخ:

- ما الذي يمكنها فعله؟ قبل أيام حاول السفير محمود دعائي وهو

إنسان يحب السيد الصدر لأنه يعرفه عن قرب وعاش في الكاظمية وكان

سجيناً في بغداد لكن الأمن كان يطوق المنزل ومنعوه.

وجاءت نشرة الأخبار التي بدأت تفصل في موضوع أخبار العراق

فأشارت إلى استمرار الإقامة الجبرية على آية الله السيد محمد باقر الصدر.

استأنف الشيخ حديثه:

- إن محاضراته الأخيرة في يوم الأربعاء الخامس من رجب تتضمن

إشارات عديدة أنه يضع اصبعه على نقطة الضعف في العراق وهي حبّ

الدنيا لأنّ الإنسان إذا أصيب بحب الدنيا فإنّه سيدفع الثمن باهضاً من

أجل ذلك لأنه يريد البقاء حياً بأي ثمن حتى لو كان كرامته..

أنتم تعرفون ان مسلم بن عقيل سفير الحسين إلى الكوفة بايعه عشرات

الآلاف من أهل العراق على الثورة ضد الظلم، وجاء عبيد الله بن زياد

فبث الشائعات بأن جيش الشام سوف ينتقم من الذين يعارضون النظام

فتخلى الناس عن مسلم وبقي وحيداً إلى أن استشهد والذين قتلوا مسلم ثم

ارتكبوا بعد ذلك مذبحه كربلاء كانوا عراقيين ولم يكونوا من الشام..
وظهر أن جيش الشام كان موجوداً في بيوت الكوفة لأن الخوف شلّ
ارادتهم.

كانت قلوبهم مع الحسين وسيوفهم عليه.
الآن الشعب العراقي في قمة الخوف خاصة بعد حادثة المؤامرة
المزعومة.

وصلتنا أخبار أن صدام أعدم أكثر من عشرين قيادي في حزب البعث
وقتل بنفسه صديقه عدنان الحمداني..
الخوف عندما يسيطر على الإنسان يشلّ تفكيره يتحوّل المواطن إلى آلة
بيد الدكتاتور.

نظام البعث هذا يشبه حكم الامويين ينهض على ارجاب الناس
والبطش بهم.

ومن الان بدأوا حملة من الاعتقالات في كلّ مدن العراق والله العالم
مالذي سوف يحدث غداً.

وجاء صوت الراديو يعلن بدء حلقة جديدة من برنامج: عراق اليوم
يبحث عن حسين!!

وتبادل الجميع نظرات متسائلة أدار الشيخ ابو محمد مفتاح الراديو وحوله
إلى المسجل وضغط على أحد الأزرار فانبعث صوت حزين تتمزج فيه

الدموع والآهات أنه صوت السيد الصدر يتحدث عن حب الدنيا.. إلا أنه ليس اسلوب المحاضرة أنها نداءات تنبعث من ضمير مشتعل بالأسى والهموم... وصوت يتهدج بلغة الانبياء مستعيذاً بالله من الشيطان ومفتحاً باسم الله الرحمن وبالصلاة على محمد وآله الطاهرين.

- خرجنا مما سبق بنظرية تحليلية قرآنية كاملة لعناصر المجتمع.. وللعلاقة القائمة بين الخطين المزدوجين في العلاقة الاجتماعية خط علاقات الإنسان بأخيه الإنسان وخط علاقات الإنسان مع الطبيعة وانتهينا على ضوء هذه النظرية القرآنية الشاملة إلى أن هذين الخطين احدهما مستقل عن الآخر استقلالاً نسبياً... وهذا الاستقلال النسبي يشكل القاعدة لعنصر الثبات في الشريعة الإسلامية والأساس لتلك المنطقة الثابتة من التشريع التي تحتوي على الاحكام المنصوصة ذات الطابع الدائم المستمر في التشريع الإسلامي... بينما منطقة التفاعل بين الخطين بين خط علاقات الإنسان بالطبيعة وخط علاقات الإنسان مع أخيه الإنسان.. تشكل في الحقيقة الأساس لما اسميناه في كتاب اقتصادنا بمنطقة الفراغ تشكل الأساس للعناصر المرنة والمتحركة في التشريع الإسلامي...

ونصرف الآن من منطقة الفكر إلى منطقة القلب من منطقة العقل إلى منطقة الوجدان... خاصة أن هذا اليوم هو اليوم الأخير وسوف أودعكم

فيه اذ يبدأ التعطيل المدرسي...

تبادل حسام و خليل نظرات فيها حيرة وتهديج صوت السيد الصدر
فبدا منقوعاً بالأسى والفراق والوداع...

- «أريد أن نعيش معاً لحظات بقلوبنا لابعقولنا فقط... بوجداننا وهذه
اللحظات الأخيرة... لحظات الوداع معكم نعرض قلوبنا على القرآن
الكريم.. لمن ولاء هذه القلوب؟! هذه القلوب التي في صدورنا لمن ولاؤها؟
ما هو ذاك الحب الذي يسودها ويمحورها ويستقطبها!

إن الله سبحانه وتعالى لا يجمع في قلب واحد ولا عين.. إمّا حبّ الله أو
حبّ الدنيا... فلنمتحن قلوبنا.. هل تعيش حبّ الله سبحانه وتعالى أو
تعيش حب الدنيا.

حبّ الدنيا مرض وبيل... لهذا قال رسول الله: حبّ الدنيا رأس كل
خطيئة، قال الإمام الصادق: الدنيا كماء البحر من ازداد شرباً من ماء
البحر... كلما شرب أكثر فأكثر من ماء البحر أصبح أكثر عطشاً.. ازداد
عطشاً..

حب الدنيا هو الذي يفرغ الصلاة من معناها... يفرغ الصيام من معناه
يفرغ كل عبادة من معناها...

وحب الله أساس كل كمال... حب الله هو الذي يعطي للإنسان الكمال
.. العزة... الشرف... الاستقامة.. القدرة.

علي بن أبي طالب كان يعمل لله سبحانه وتعالى... لم يكن يعمل لندياه... لو كان يعمل لندياه لكان أشقى الناس وأتعس الناس، لأنّ علياً حمل دمه على يده منذ طفولته... منذ صباه ذبّ عن وجه رسول الله وعن دين الله.. لم يتردد لحظة في أن يقدم.. لم يكن يحسب للحياة حساباً.. لم يكن يحسب للحياة حساباً... كان أطوع الناس لرسول الله في حياة رسول الله وكان اطوع الناس لرسول الله بعد رسول الله.. كان أكثر الناس عملاً في سبيل الدين ومعاناة من أجل الإسلام ماذا حصل عليه علي بن أبي طالب؟ لو جئنا إلى مقاييس الدنيا.. ماذا حصل عليه هذا الرجل العظيم ألم يقصّ هذا الرجل العظيم؟ ألم يكن جليس بيته فترة طويلة من الزمن؟! ألم يسب هذا الرجل العظيم ألف شهر على منابر المسلمين التي أقيمت أعوادها بجهاده.. بدمه.. بتضحياته!؟

إذن لم يحصل على شيء من الدين.. لا على حطام.. ولا على مال ولا على منصب.. لكنه على الرغم من ذلك حينما ضربه عبد الرحمن ابن ملجم بالسيف على رأسه ماذا قال هذا الإمام العظيم؟ قال: فزت ورب الكعبة». وتجمعت الدموع في عيني حسام كغيوم ممطرة وهو يصغي إلى هذه الكلمات وإلى هذا الصوت الذي بدا كأنه نهر حزين مليء بدموع آلاف الملايين من البشر.

- «لو كان علي يعمل لندياه قال: والله أني اتعس إنسان لأنني لم أحصل على

شيء في مقابل عمرٍ كلّه جهاد كلّه تضحية كلّه حبّ لله .. لكنه لم يقل ذلك
قال: فزت وربّ الكعبة..

اتها والله الشهادة... لأنه لم يكن يعمل لدنياه، كان يعمل لربه... والآن
لحظة اللقاء مع الله.. هذه اللحظة هي اللحظة التي سوف يلتقي بها علي مع
الله سبحانه وتعالى فيوفيه حسابه ويعطيه أجره يعوضه عما تحمل من
شدائد، عمّا قاسى من مصائب.

أليس هذا الإمام هو مثلنا الأعلى؟».

وامتزجت الكلمات مع دموع الحاضرين ونشيج الباكين فعرج السيد
الصدر على الجرح ليضع أصبعه على العلة التي ستدمّر مستقبل العراق:
- «علينا أن نحذر من حبّ الدنيا لأنه لا دنيا عندنا لكي نحبها ماذا
نحبّ؟ نحبّ الدنيا؟! نحن الطلبة!!

ما هي هذه الدنيا التي نحبها ونريد أن نغرق أنفسنا فيها ونترك رضواناً
من الله أكبر... نترك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا اعتراض على
خيال بشر.

ما هي هذه الدنيا؟ دنيانا هي مجموعة من الأوهام!

كل دنيا وهم، لكن دنيانا أكثر وهماً من دنيا الآخرين».

وأجهش الشيخ ابو محمد بالبكاء امتزج بكأوه مع الكلمات وامتدت يده
فأطفا جهاز التسجيل فجاء صوت المذيع يعلن عن نهاية برنامج عراق

اليوم يبحث عن حسين.

قال الشيخ وهو يمسح دموعه:

- لقد بدأت أدرك لماذا ثار الحسين وحيداً لأن الأمويين دمروا مجد الحياة

وانزوت كل الأشياء الجميلة. انني اسمع منذ الان عواء الذئاب... أنه ليل

البعث، إن صعود صدام يعني بداية النهاية...

سكت لحظات ثم قال:

- يجب ألا يبقى الصدر وحيداً غداً سأذهب إلى النجف إن ساعة

المواجهة آتية لا ريب فيها... قال ذلك وكأنه يحدث نفسه أو يهمس في أذن

التاريخ.

دجلة - 10

أجواء بغداد مليئة برائحة الدم والبارود، وبدت هذه المدينة الحسناء حزينه كراهبة تبكي أمام الصليب، وقد أضفى الخريف مزيداً من الأسى على أشجار النخيل فبدأ شاطئ دجلة كرموش حورية شهيدة..

لم تمض سوى أيام على قدوم حسام إلى بغداد للدراسة في كلية الطب جامعة بغداد، وبالرغم من توتر الأجواء والخوف والحذر الذي يهيمن في كل مكان إلا أنه تمكن من التعرف على بعض الأصدقاء ممن يوثق بهم. بعضهم من أهالي بغداد وبعضهم من مدينة الحلة ومحافظات أخرى.

كان حسام في غاية الحذر وقد وضع لنفسه برنامج في علاقاته ولم يكن يسمح لأحد بالاطلاع على أسراره حتى عندما يصلي كان يحرص ألا يراه أحد.

مظهره لا يوحي بأي شيء فهو ينتمي إلى ثقافة عصره وجيله ولقاءاته كانت في الأماكن العامة والمنتزهات. أما إذا أراد زيارة مرقد الإمام الكاظم فإنه ينتخب أيام العطل.

وربما واعد أحد اصدقائه في منتزه المحيط أو في مقهى الشطرنج وربما في منتزه الزوراء امعاناً في الحذر وكان حريصاً في نفس الوقت أن يتفوق في دراسته يصبح طبيياً ويحقق حلم والدته.

وهو في استغراقه في الدراسة كانت تصله بعض الأخبار الهامة... وكلها مقلقة ومؤسفة وكان آخر ما سمعه في تلك الفترة من صديقه الطالب في كليته عباس الذي أخبره بفرض الحصار على منزل السيد الصدر وعزله عن العالم الخارجي تماماً، واشتداد حملات الاعتقال .

لقد سمع من زميل له من أهالي مدينة الثورة أنّ حملات الاعتقال طالت أكثر من سبعمئة شاب من الثورة في ثلاثة أيام فقط!! وشملت الهجمة طالبات في الثانوية لا يعلم أحد مصيرهن!؟

كانت الحوادث في تسارع رهيب كخيول مجنونة، أوى حسام إلى غرفته وحيداً في القسم الداخلي فزميله قرر السفر لأسباب لا يعرفها قال له أنه سيعود غداً... لقد مضى على تعرفه به أسابيع ولم يكن يعرف عنه سوى أنه من أهالي الكوت لهذا شعر حسام بنوع من الحرّية في تلك الأمسية فقد أدى صلاة العشاء ثم قرأ بصوت شجي مناجاة المعتصمين وانسابت الكلمات مؤثرة حزينة:

- اللهم يا ملاذ اللائذين!

ويا معاذ العائذين

ويا منجي الهالكين

ويا راحم المساكين

ويا مجيب المضطرين

ويا كنز المفتقرين

ويا جابر المنكسرين

ويا ناصر المستضعفين

ويا مجير الخائفين

ويا مغيث المكروبين

ويا حصن اللاجئيين..

إن لم أعذ بعزتك فبمن أعوذ

إن لم ألد بقدرتك فبمن الود

إن أحداً لن يصدّق ان هذا الجالس بخشوع ويناجي الله بهذه الكلمات

هو شاب لما يبلغ العشرين بعد طالب في كليّة الطب في بداية مشواره

الدراسي.. وأنه في غمرة كل هذا الضجيج سمع كلمة الله فأصغى إليها

بكل روحه وجوارحه، فسلك درباً صعباً لا لشيء إلا لأنه رآه مضيئاً يتجه

صعوداً نحو السماء...

كانت سماء خريفية تنوء بالغيوم وقد تراكمت السحب فوق بعضها

البعض وبدا الجوّ مشحوناً بالصواعق..

كان حسام حزيناً والألم يعتصر قلبه... راح ينظر إلى السماء الملبّدة
وسافر خياله إلى أفق صاف تشرق فيه الشمس وتغمر أرض العراق بالنور
والدفء ..

أخرج جهاز الراديو الذي يحتفظ به وراء صف من الكتب وراح ينتقل
عبر اذاعات الدنيا...

نظر إلى ساعته وادار الميل ليستقر على موجة يمكنه من خلالها التقاط
القسم العربي باذاعة طهران...

وجاءت نشرة الأخبار المفصلة عن العراق من خلال برنامج: عراق
اليوم يبحث عن حسين...

تظاهرة في مدينة الثورة... وهجوم جريء على مديرية أمن الكاظمية..
واعلان عن تظاهرة كبرى سوف تنطلق من مدينة الكاظمية وعلا صوت
موسيقي حماسي ليتضاءل شيئاً فشيئاً واذا به يسمع كلمات من ضمير
العراق والرجل الذي حمل كرامة هذا البلد المقهور والذي انبرى وحيداً
يقاتل نظاماً همجياً متوحشاً وبدا واضحاً أن التاريخ قد اعاد نفسه وان
الصراع الذي حدث على شاطئ الفرات قبل قرون بين الحسين ويزيد
يتجدّد الآن بين محمد باقر الصدر وصادام...

وراح حسام يصغي بكل وجوده إلى كلمات تنفذ في القلوب قبل أن
تطرق الآذان!

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على
سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين وصحبه الميامين...
يا شعبي العراقي العزيز... يا جماهير العراق المسلمة التي غضبت
لدينها وكرامتها ولحرّيتها وعزّتها وكل ما آمنت به من قيم ومثل...
أيها الشعب العظيم... إنك تتعرض اليوم لمحنة هائلة على يد السفاكين
والجزارين الذين هالهم غضب الشعب وتململ الجماهير بعد أن قيدوها
بسلاسل من الحديد ومن الرعب والارهاب وخيل للسفاكين انهم بذلك
انتزعوا من الجماهير شعورها بالعزة والكرامة.. وجردوها من صلتها
بعقيدتها وبيدنها وبمحمدها العظيم... لكي يحولوا هذه الملايين الشجاعة
المؤمنة من أبناء العراق الأبى إلى دميّ وآلات يحرّكونها كيف يشاؤون
ويزقونها ولاء عفلق وامثاله من عملاء التبشير والاستعمار بدلاً من ولاء
محمد وعلي صلوات الله عليهما..

ولكن الجماهير دائماً هي أقوى من الطغاة مهما تفرعن الطغاة وقد تصبر
ولكنها لا تستسلم... وهكذا فوجئ الطغاة بأن الشعب لا يزال ينبض
بالحياة ولا تزال له القدرة على أن يقول كلمته وهذا هو الذي جعلهم
يبادرون إلى القيام بهذه الحملات الهائلة على عشرات الالاف من المؤمنين
والشرفاء من أبناء هذا البلد الكريم... حملات السجن والاعتقال
والتعذيب والاعدام وفي طليعتهم العلماء المجاهدون الذين يبلغني أنهم

يستشهدون الواحد بعد الآخر تحت سياط التعذيب وإني في الوقت الذي أدرك فيه عمق هذه المحنة التي تمرّ بك يا شعبي يا شعب آبائي واجدادني أو من بان استشهاد هؤلاء العلماء واستشهاد خيرة شبابك الطاهرين وابنائك الغيارى تحت سياط العفالقّة لن يزيدك إلا صموداً وتصميماً على المضي في هذه الطريق حتى الشهادة أو النصر...

وأنا أعلن لكم يا أبنائي أني صممت على الشهادة ولعل هذا آخر ما تسمعونه منّي وأنّ ابواب الجنة قد فتحت لتستقبل قوافل الشهداء حتى يكتب الله لكم النصر.

وما ألدّ الشهادة التي قال عنها رسول الله أنّها حسنة لا تضرّ معها سيئة والشهيد بشهادته يغسل كلّ ذنوبه مهما بلغت.

فعلى كل مسلم في العراق وعلى كل عراقي في خارج العراق ان يعمل كل ما بوسعه ولو كلفه ذلك حياته من أجل إدامة الجهاد والنضال لازالة هذا الكابوس عن صدر العراق الحبيب وتحريره من العصابة اللا إنسانية وتوفير حكم صالح فذ شريف يقوم على أساس الإسلام .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته... عشرة شعبان الف وثلاثمئة وتسع وتسعون... محمد باقر الصدر..

وتراكت الغيوم بعضها فوق بعض تنذر بانفجار آلاف الصواعق..
وفي اليوم التالي كان جالساً على مصطبة في ظلال شجرة ويطالع في

كتاب طبي... عندما جلس إلى جانبه شاب وهو.. يجيئه:

- مرحبا.

- مرحبا.

ابتسم الشاب!

- حضرتك حسام!

- تفضل.

- الحقيقة أخذت عنوانك من خليل.

تساءل حسام وهو يسيطر على دهشته.

- تعرفه؟

- أعرف أبو محمد.

- قصدك..

قاطعته بلباقة.

- نعم أقصد ابو محمد.

ادرك حسام على الفور أنّ هذا الشاب لم يأت دون سبب سأل:

- أي كلية.

- هندسة سنة ثانية... اسمى أحمد.

سادت لحظات صمت أطرق أحمد برأسه كمن يبحث عن شيء وقال:

- هل يمكن اللقاء في الزوراء؟

ادرك حسام أنّ شيئاً هاماً وراء هذا الاقتراح فقال على الفور وهو ينظر إلى الشجرة.

- إذا يوم الجمعة ماكو أي مانع.

قال أحمد دون ان يرفع رأسه:

- الجمعة الساعة عشرة الجنائن المعلقة وسأرتدي قميصاً رصاصياً

وبنظروناً اسود إذا تأخرت عن الموعد ربع ساعة فلا تنتظر وأنت كذلك.

قال ذلك من دون توقف ثم نهض تاركاً حساماً تتناهبه الأفكار كخيول

تجري في كل اتجاه.

دجلة - 11

كان أبو ميسون يقود سيارته بالقرب من معسكر التاجي وقد توقفت حركة السير تماماً وبلغ الازدحام ذروته في ذلك الغروب الحزين. منذ فترة وهو يلاحظ كثرة التنقلات العسكرية وسمع ان كتائب الدبابات تتحرك صوب الحدود مع إيران. ومع ذلك فقد كان فرحاً لأنه في طريقه إلى مطار بغداد فشقيقه قد حضر من اليمن. وسوف يستقبله في المطار وبعد عبور رتل من السيارات العسكرية استأنف السير وتمكن من الوصول إلى المطار بعد تأخير قليل. تعانق الشقيقان بحرارة ورحب أبو ميسون بزوجته أخيه وقبل الأطفال.. وركب الجميع السيارة. أراد أبو ميسون ان يبدأ الكلام. - اشو من رحى اخذت أربع حقايب رجعتوا باثنين . ضحك أبو شياء وقال: - بالحقيقة وحدة والثانية تقريباً فارغة سفرتنا صارت على غفل.

- يعني ماكو صوغات؟! -

- اليمن صدقني فارغة مليانه قات وبس ... شعب خدران.

علقت أم شياء.

- بدت رحمة الله!! -

- القات شنو؟! -

- نبتة يمضغها اليمنيون في مجالسهم فيها مادة مخدرة.

ثم قام بحركة تمثيلية حيث نفخ خده الايسر... وقال:

- تخزن بهذه الطريقة لساعات طويلة... وتبدأ الجلسات .. جلسات

الخدر ولذلك لما استعمر الانكليز القسم الجنوبي من اليمن ومنعوا زراعة

القات حدثت هجرة إلى الشمال إلى المناطق التي لا يشملها الحظر لذلك فيه

صعوبة عند تخديرهم لاجراء الجراحة..

- ذكرتني... مرة كنت في مستشفى النعمان واجروا عملية لشخص يماني

وأثناء العملية فتح عيونه وكان شاب قوي طلع من غرفة العمليات

والطاقم الطبي يركض وراه!

وضحك الجميع .

كانت ليلة سعيدة امتدت فيها أحاديث السمر إلى وقت متأخر وأوى

الجميع إلى النوم باستثناء الأخوين فقد خرجا إلى الحديقة وتحول جزء من

حديثهما إلى ما يشبه الهمس.

قال أبو ميسون:

- الوقت غير مناسب لسفرك.. الأوضاع كلش حساسة.
- تريد الصدق اشعرت بالأمل وأنا أتابع الأخبار اسم الإمام الخميني
في كل مكان...

- الوضع بالعراق حساس للغاية.. انت ما تدري من انتصرت الثورة
الإيرانية الناس شلون طلعت للشوارع حتى سمعت هلاهل وزعت
الناس ملبس حتى بعض الحزبيين.. العراق كله اهتز... بعد ما مرّت
أسابيع طلعت لعبة استقالة البكر وبعدها طلعت قضية المؤامرة مع
سوريا... انت ما سمعت بقضية محمد عايش وعدنان الحمداني وغيره
وغيره واحد وعشرين قيادي بالحزب تساقطت رؤوسهم..
- هذا مؤشر على السقوط... النظام يتآكل من الداخل.

- طبعاً فيه غليان شعبي لكن الخوف يشلّ ارادة الناس كلّ عواطف
العراقيين مع الثورة في إيران ولكن ما فائدة ذلك إذا كانت الإرادة
مشلولة... من جاء صدام للرئاسة وقطعات الجيش تتحرك إلى حدود
إيران، خبرني صديق ابنه ضابط في قاعدة جوية يقول ان ألواح تمييز
الطائرات الاسرائيلية نزلت وحلّ مكانها ألواح جديدة في تمييز الطائرات
الإيرانية.

يعني العدو الجديد رقم واحد أصبح إيران! بدت قوامة حراس البوابة

الشرقية يعني رجعت نفس الاسطوانة تعزف من جديد.

سكت لحظات ليقول:

- السيد الصدر محاصر في بيته قبل أسبوع علنوا عن مظاهرة بالكاظمية

يوم الثلاثاء الجيش الشعبي احتل الشوارع من يوم السبت بكامل

اسلحتهم حتى زمزميات الماء.

انتبها إلى ضوء مصباح يأتي من جهة المطبخ نشر نوراً شفافاً في صالة

الاستقبال قال ابو شياء ليغير مسار الحديث:

- هذا منو العطشان؟

- هذي ميسون قامت للصلاة.

- صلاة الصبح؟!!

- صلاة الليل.

- عجيب آني زين أصلي الفريضة...

- حتى بالشتاء تدري النوم يصير أحلى والله آني ما شايف بنية بهذا العمر

تصلي... الآن ازدادت الحملات على الكتاب الديني كل الكتب الدينية

ممنوعة حتى كتب الدعاء.

- من متى تصلي؟ أقصد ميسون!

- من زمان لكن صلاة الليل هذي جديدة يمكن من طالعت قصص

بنت الهدى.

- اخت السيد الصدر؟
- تعرفها؟
- شفت لها كتاب «الفضيلة تنتصر» في بيت عائلة عراقية في صنعاء..
- لا تغير الموضوع! ما أفهم سبب لمجيئك!
- والله سبب واضح ماكو لكن تدري العراق عزيز... سمعت شاعر يقول: الغربية أقسى من وجه الجلادين... انت شفت عراقي يترك وطنه.
- الاوضاع تعبانة حيل... السجون مملية شباب المشانق تحصد.. والله البعثيين بيضوا وجه المغول..
- يجي يومهم.. انشاء الله يكون قريب.
- أول البارحة شفت رؤيا.
- خير ان شاء الله.
- السماء تمطر جمر وماكو بيت بالعراق الا ونزلت عليه جمرة! ما أريد اكون متشائم لكن ما أشوف أمل..
- الله كريم ياالله ننام شوية.
- الله هو الكريم.

دجلت - 12

أبو ميسون يقود سيارته وإلى جانبه شقيقه في طريقهما على جسر
الاعظمية وكان راديو طهران يبث دعاء كميل بصوت شجي ثم جاء
صوت السيد الصدر في بيان جديد موجه إلى الشعب العراقي.

- بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على
محمد وآله وحجة الميامين.
يا شعبي العراقي العزيز.

أيها الشعب العظيم... إني أخاطبك في هذه اللحظة العصبية من محنتك
وحياتك الجهادية، بكل فئاتك وطوائفك... بعربك وكرادك... بسنتك
وشيعتك لأن المحنة لا تخصّ مذهباً دون آخر.. ولا قومية دون أخرى...
وكما أن المحنة هي محنة كل الشعب العراقي... فيجب ان يكون الموقف
الجهادي والردّ البطولي والتلاحم النضالي هو واقع كل الشعب العراقي.
واني منذ عرفت وجودي ومسؤوليتي في هذه الأمة بذلت هذا الوجود
من أجل الشيعي والسني على السواء ومن أجل العربي والكردي على

السواء حين دافعت عن الرسالة التي توحدهم جميعاً... وعن العقيدة التي تضمهم جميعاً ولم أعش بفكري وكياني الآ للاسلام طريق الخلاص وهدف الجميع...

ركن أبو ميسون السيارة إلى الرصيف في نهاية الجسر وبدأت مياه دجلة تجري بصمت ليصغي إلى كلمات رجل نهض وحيداً ليقا تل نظاماً دمويّاً همجياً وجاءت كلمات الصدر مفعمة بروح الالباء والابوة:

- فأنا معك يا أخي وولدي السني بقدر ما أنا معك يا أخي وولدي الشيعي أنا معكما بقدر ما أنتما مع الإسلام وبقدر ما تحملون من هذا المشعل العظيم لانقاذ العراق من كابوس التسلط والذل والاضطهاد... إن الطاغوت وأولياءه يحاولون أن يوحوا إلى ابنائنا البررة من السنة ان المسألة مسألة شيعة وسنة ليفصلوا السنة عن معركتهم الحقيقية ضد العدو المشترك...

وأريد أن أقولها لكم يا أبناء علي والحسين وأبناء أبي بكر وعمر إن المعركة لست بين الشيعة والحكم السني... إن الحكم السني الذي مثله الخلفاء الراشدون والذي كان يقوم على أساس الاسلام والعدل حمل علي السيف للدفاع عنه اذ حارب جندياً في حروب الردة تحت لواء الخليفة الأول أبي بكر وكلنا نحارب عن راية الإسلام مهما كان لونها المذهبي...

إن الحكم السني الذي كان يحمل راية الاسلام قد أفتى علماء الشيعة

قبل نصف قرن بوجوب الجهاد من أجله وخرج مئات الآلاف من الشيعة
وبذلوا دمهم رخيصةً من أجل الحفاظ على راية الإسلام ومن أجل حماية
الحكم السني الذي كان يقوم على أساس الإسلام ...

إن الحكم الواقع اليوم ليس حكماً سنياً وإن كانت الفئة المتسلطة تنتسب
تاريخياً إلى التسنن، إن الحكم السني لا يعني حكم شخص ولد من ابوين
سنيين بل يعني حكم ابي بكر وعمر الذي تحداه طواغيت الحكم في العراق
في كل تصرفاتهم فهم ينتهكون حرمة الإسلام وحرمة علي وعمر معاً في
كل يوم وفي كل خطوة من خطواتهم الاجرامية ...

ألا ترون يا أولادي وإخواني انهم أسقطوا الشعائر الدينية التي دافع
عنها علي وعمر معاً ...

ألا ترون أنهم ملأوا البلاد بالخمور وحقول الخنازير وكل وسائل
المجون والفساد التي حاربها علي وعمر معاً ...

ألا ترون انهم يمارسون اشدّ الوان الظلم والطغيان تجاه كل فئات
الشعب ويزدادون يوماً بعد يوم حقداً على الشعب ... وتفنناً في امتهان
كرامته والانفصال عنه والاعتصام ضدّه في مقاصيرهم المحاطة بقوى
الأمن والمخابرات، بينما كان علي وعمر يعيشان مع الناس وللناس وفي
وسط الناس ومع آلامهم .

ألا ترون إلى احتكار هؤلاء للسلطة احتكاراً عشائرياً يسبغون عليه

طابع الحزب زوراً وبهتاناً...

وسدّ هؤلاء أبواب التقدم أمام كل جماهير الشعب سوى أولئك الذين رضوا لانفسهم بالذل والخنوع وباعوا كرامتهم وتحولوا إلى عبيد أذلاء .

إن هؤلاء المتسلّطين قد امتهنوا حتى كرامة حزب البعث العربي الاشتراكي حيث عملوا من أجل تحويله من حزب عقائدي إلى عصابة تطلب الانضمام إليها والانتساب لها بالقوّة والاكراه وإلا فأى حزب حقيقي يحترم نفسه في العالم يفرض الانتساب اليه بالقوّة..

انهم احسّوا بالخوف حتى من الحزب العربي الاشتراكي نفسه الذي يدعون تمثيله احسوا بالخوف منه إذا بقي حزباً حقيقياً له قواعده التي تبنيه ولهذا ارادوا ان يهدموا قواعده لتحويله إلى تجمع يقوم على أساس الاكراه والتعذيب ليفقد أي مضمون حقيقي له.

يا أخوتي وأبنائي من أبناء الموصل والبصرة من أبناء بغداد وكربلاء والنجف من أبناء سامراء والكاظمية من أبناء العمارة والكوت والسليمانية من أبناء العراق في كل مكان..

إني أعاهدكم بأني لكم جميعاً ومن أجلكم جميعاً وإنكم جميعاً هدي في الحاضر والمستقبل فلتوحد كلمتكم ولتتلاحم صفوفكم تحت راية الإسلام ومن أجل انقاذ العراق من كابوس هذه الفئة المتسلطة وبناء عراق حرّ كريم تغمره عدالة الإسلام وتسوده كرامة الإنسان ويشعر فيه

المواطنون جميعاً على اختلاف قومياتهم ومذاهبهم بأنهم اخوة يساهمون جميعاً في قيادة بلدهم وبناء وطنهم وتحقيق مثلهم الإسلامية العليا المستمدة من رسالتنا الإسلامية وفجر تاريخنا العظيم..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته... محمد باقر الصدر... النجف الأشرف.

مياه دجلة تجري وقد التمعت فوقها انعكاسات أضواء المصابيح. قال أبو ميسون متأثراً.

- وهل يسمع الشعب هذه الكلمات.

أجاب شقيقه وقد تجمعت الدموع في عينيه كغيوم مشحونة بالمطر.

- ربما ولكن بعد فوات الاوان.

وكانت مياه دجلة تمضي بعيداً.

دجلة - 13

كانت سماء يوم الجمعة مثقلة بالغيوم وكان حسام قد دخل متنزه الزوراء قبل الموعد بنصف ساعة وراح يتجول في الحدائق التي ما تزال خضرتها تقاوم فصل الخريف وقف في قبال نصب لمسله حمروابي وكان رذاذ من مياه النافورات يلامس وجهه برفق.

وصل أحمد في الموعد المحدد ينقل خطاه بهدوء ليقف إلى جانب حسام بعد أن حياه وانضمها إلى بعض الشبان القادمين للتنزه وكان الممر المؤدي إلى الجنان المعلقة أكثر الممرات في اجتذاب الناس...

كانا يسيران صامتين إلى أن وصلا منعطفاً إلى اليمين يكاد يكون خالياً فاتجه إليه قال احمد: مفتحاً حديثه.

- بسم الله الرحمن الرحيم... واعدوا لهم ما استطعتم من قوة...
وقال الإمام علي عليه السلام: أوصيكم بتقوى الله ونظم أمركم.. حديث آخر يقول: استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان. أريد ادخل بالموضوع مباشرة... لكن حتى أمهد للموضوع اذكر مثالين الصقر إذا يريد اصطيد

افعى فهو يعرف أنّ عليه استهداف الرأس وإلا فهي نهايته وفي الاخطبوط
لا يجدي قطع الأذرع ... استهداف القلب هو الوسيلة الوحيدة للقضاء
عليه...

لأسباب كثيرة فإن معرفة القليل عن التنظيم هو الأفضل لهذا فإنك
ستتعرف على ثلاثة أو أربعة وبأسماء مستعارة أيضاً سيكون لك اسم
مستعار يعرفونك به...

سكت لحظات ريثما يمرّ شاب ترافقه فتاة... استأنف احمد حديثه:
- انت تسمع بالعمليات الأخيرة.. الحقيقة التنظيم دخل المرحلة
الجهادية.. والمطلوب الاستعداد في أي لحظة... النظام بدأ هجومه قبل
التنظيم والاعتقالات شملت الآلاف... الاعترافات قليلة... الظروف
شوية صعبة والأمل بالله... الاخوة بلغوني بتكوين خلايا مستقلة تقريباً
وبالضبط في الجامعات..

نشاطنا راح يكون حذر جداً في الاسبوع القادم يجيك اتصال والرمز:
تروح للسینما...

تساءل حسام:

- واذا كانت الظروف غير مناسبة؟!!

- تعذر أو تحدد موعد يعني تتفاهم على الزمان والمكان...

وأراد أحمد أن يعلمه بعض الأساليب في الحذر... فقال:

- اعرف شخصاً غاية في الحذر عندما يذهب إلى موعد فأنه لا يذهب مباشرة ويركب اكثر من مرّة يعني إذا كان مواعده بالكاظمية ينزل في الأعظمية.. إذا الموعد داخل مرقد الإمام في البداية يدخل السوق يشتري شيئاً خفيفاً ثم يذهب إلى مواعده..

انتبه حسام إلى أن احمد كان يحمل كيساً ورقياً فيه كتاب فتبسم...
وكان احمد يستطرد في حديثه:

- طبعاً هذه الأساليب العمل بها مبكر في هذه الفترة لكن عندما تصبح عادة تكون مفيدة جداً في المستقبل... امامنا وقت حتى يبدأ العمل الحقيقي..

- تقريباً!!

- حسب الظروف... إذا استمرت الأمور على هذا الوضع يمكن بعد أربعة أشهر...
- مدة طويلة.

- لأن المطلوب عمل نوعي.... وراح تتحدد اهداف وتكون لقاءات دورية للمناقشة... لكن الظرف الآن استثنائي وتغيرت كثير من الخطط...
بالحقيقة فيه توصيات من شخص يعرفك ويزكيك لكن هذا يتطلب وقت.. واذا تريد الصراحة علاقتنا الحالية استثنائية لأنه حتى الآن غير مفاتيح.. اعترف بأن الوضع مرتبك وأنت حرّ في التعاون معنا على أساس

اشترك في الأهداف أنت ضد هذا الوضع ...

قال حسام:

- ارجو ان تتحدث بوضوح أنت تدري بخطورة المجازفة... جئت على الموعد لأني أتصور من واجبي هذا أنت سمعت طبعاً النداء... يمكن نمت ساعة واحدة...

بكل هدوء تأكد احمد من عدم وجود أحد يسمع صوتها وعندئذ قال:
- والمرحلة التي يمرّ بها حزب الدعوة مرحلة ثقافية لكن شراسة النظام وحمولات الاعتقال اضطر الحزب إلى بدء المواجهة المسلحة فيه تفكير لانشاء خلايا الضربات نوعية عندما تحين الظروف الكادر الجامعي مهم جداً لبناء البلاد، وتأثيره في التغيير والبناء الاجتماعي فاعل ...

سكت لحظات ثم قال:

- بعض القيادات تسللت للخارج لحشد الدعم وفضح النظام، الإعلام سلاح مهم بالأمس كنا وحيدين واليوم لدينا سند قوي يعرف ما نعانيه من آلام..

هناك تخطيط للمدى البعيد... وهناك ضربات نوعية لزعة نظام البعث... اننا نؤدي ما علينا من واجبات... هذا كل ما في الأمر.. ما نزال في البداية يمكن أن ينتهي كل شيء الآن بقرار منك!؟

- تفكيري ليس بعيداً عن ذلك، أنا أفكر في نفس هذه الدائرة... ومن

الافضل الا تعرف الكثير في هذه المرحلة لكن اريد أن اؤكد شيئاً أنا لا استلم أوامر من أحد.. لا اريد نفذ ثم ناقش على نحو آخر...
فوجيء أحمد حتى انه ابتسم على الرغم منه وظهرت في عينيه ملامح اعجاب لهذا الشاب فقال وهو يربت على كتفه.

- زين.. لن يتصل بك أحد غيري... سوف نعمل معاً لكن لا تستعجل الأمور.. نحن ما نزال في بداية المنعطف...

- نحن طلبة جامعيين ولاداعي لهذا التعقيد في ترتيب اللقاءات يمكن ان يكون اللقاء في المناطق الشعبية... يمكن ان نلتقي في مقهى... مطعم يمكن ان نرتب لقاءات في مرقد الإمام الكاظم.. في باصات المصلحة... واحياناً في القسم الداخلي... داخل أروقة الجامعة...
قال أحمد:

- بكل صراحة كما ذكرت لك الاوضاع غير عادية.. هناك تفكير في الاستمرار في عملية التغيير الثقافي والاجتماعي... لكن حصلت بعض الحوادث... والتنظيم دخل مرحلة جديدة لم تكن في الحسبان طبعاً الزلزال وصلت هزّاته والسيد دخل مواجهة مكشوفة، والمساندة من الخلايا مطلوبة.. في هذه الفترة ستكون علاقتنا مجرد تواصل إلى أن تتضح الرؤية ومن الافضل معرفة القليل من الاشخاص فهذا أضمن للاستمرار.. طبعاً هذه آخر التعليمات بعد أيام يمكن ان يحصل شيء يمكن يصير تغيير...

إيران عينت الشيخ محمود دعائي سفيراً وهذا الرجل ذاق مرارة سجون
البعث...

قال حسام:

- الاعتماد على النفس هو الطريق الصائب ما ممكن يصير تغيير الا بارادة

الناس...

- واراده الله سبحانه.

- ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم..

ساد الصمت لحظات وقال حسام وهو ينظر إلى بعض المنتزهين؟

- لاحظ الناس في واد ونحن في واد آخر.

- هؤلاء لا يمثلون الشعب.

- اين تذهب تشاهد هذه الوجوه.

- لا تخدعك هذه المظاهر الناس يضمرون غير ما يظهرون.

- العواطف والنوايا لا تغير المهم الارادة... كانت قلوب العراقيين مع

الحسين ولكن سيوفهم عليه...

- علينا ان نعمل... الطريق طويل... الله سبحانه يقول: ﴿إِنْ تَنْصَرُوا لِلَّهِ

يَنْصَرْكُمْ﴾، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

- والآن اخبرني انك تحمل كتاباً...

قبل أن ينهي حسام جملته كان عنوان الكتاب قد بدا واضحاً قرأه على

الفور: الساعة الخامسة والعشرون.

قال أحمد:

- لم أقرأها بعد يمكنك قراءتها... وربما تناقشنا حولها فيما بعد بل
يمكنك الاحتفاظ بها كذكرى لصداقتنا الابدية...
أعاد أحمد الكتاب إلى الكيس الورقي وسلمه إلى حسام ثم أخذنا
طريقهما إلى خارج المنتزه وكان حسام في غاية التأثر.

دجلة - 14

كان أبو ميسون في بيت أحد الأقارب وقد هزه نبأ لا يمكن أن يحتمل فقد تناقل الكثيرون خبر اذاعة لندن: مصرع الإمام محمد باقر الصدر في القصر الجمهوري وانعكس الخبر في إيران فوراً فنقلت الأنباء إن الإمام الخميني أوعز إلى وزارة الخارجية بتشكيل لجنة للتحقيق في ذلك وكانت إذاعة بغداد التي أذاعت قبل أيام قانوناً يستند إلى المادة ١٥٦ ألف ويقضي بإعدام كل من ينتمي إلى حزب الدعوة العميل وبأثر رجعي قال أبو محسن وهو رجل تجاوز الستين:

- الأثر الرجعي شنو بويه؟

قال ابنه وهو شاب يمضي خدمته العسكرية في كركوك بعد تخرجه من الجامعة:

- يعني الاعداد يشمل حتى الذي كان متمياً لحزب الدعوة ثم ترك الحزب من سنوات.

قال أبو ميسون:

- راح يختلط الحابل بالنابل الأمن هذي الأيام يعتقلون الشباب

بالمساجد وبعدها يجرون التحقيق .

قال محسن:

- يرمون الشبكة ويصيدون الشباب وبعد ذلك يشوفون المطلوب من

غير المطلوب .

- بالتعذيب راح الكل يعترفون على أشياء حتى الماسامعين بها .

قال أبو ميسون:

- صحيح شر البلية ما يضحك .. شاب من أهل الكاظمية اشتبهوا

باعتقاله بالتعذيب كانوا يطلبون منه اعتراف في أي حزب، المسكين حتى

ماسامع بحزب الدعوة آخرها كان سامع بحزب المؤتمر الهندي اعترف من

الضرب انه من حزب المؤتمر الهندي ويريد يفتح شعبة بالكاظمية!!

- والله الواحد ما يعرف يضحك لو يبجي!

طلب أبو ميسون ان يفتح الراديو على بغداد، فانطلقت الأناشيد

والاهازيچ بميلاد حزب البعث، وراح محسن ينتقل عبر الاذاعات لندن

مونت كارلو لا شيء.

عاد بالموجه على راديو بغداد اغاني تتغنى بالقائد الرفيق صدام حسين

وبالحزب والثورة....

- يعني ماكو شيء بس الحزب والثورة والقائد اليوم اثنين وعشرين

نيسان... و ميلاد الحزب تسعة نيسان.

علق محسن:

- الوضع غير طبيعي.. اتصّور السيد معدوم... من كنت بكركوك قبل اسبوعين شفت شيء عجيب.. الوقت كان العصر الجوّ بدا يغبرّ من دون عاصفة وصارت صفرة كثيفة لتتحول إلى حمرة مخيفة وتكاثف الغبار أكثر.. والله ما كنت أقدر أرى أبعد من أربعة أمتار... كان معي في الوحدة رئيس عرفاء يصليّ وعريف خريج صلّوا صلاة الآيات ورئيس العرفاء تساءل من دون تمهيد؟

يمكن قتلوا سيّد... طبعاً هو ما يعرف اي شيء عن السيد الصدر رجل بسيط والله ما أدري كيف طلعت منه هذي الكلمات؟! لحد الآن أذكر كان مثل هذا اليوم الثلاثاء ثمانية نيسان ليلة ميلاد. قاطعه أبوه:

- ميلاد عفلق! بالله ما تخلّيه على ايران...

كان القسم العربي في راديو طهران يبث صوتاً شجياً في دعاء التوسل.

- يا وجيهاً عند الله اشفع لنا عند الله...

أيها الشهيد يا بن رسول الله.. إنا توجهنا واستشفعنا بك إلى الله

وقدّمناك بين يدي حاجاتنا....

يا وجيهاً عند الله اشفع لنا عند الله..

علق أبو ميسون :

- صدق أبو فراس الحمداني:

تنشى التلاوة في أبياتهم سحراً وفي بيوتكم الأوتار والنغم
لاحظوا اذاعة بغداد مثل الملهى واذاعة طهران! محاضرات الشيخ
الوائلي.. ثقافة وفكر.

يا حجة الله على أرضه.. إنا توجهنا بك إلى الله .

وضع الجميع اكفهم فوق رؤوسهم اجلالاً لذكر المنتظر الذي سيظهر
فيملاً الارض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً...
انتهت كلمات الدعاء الشجي وجاء صوت المذيع...
- هنا طهران صوت الجمهورية الإسلامية في إيران....

قال أبو ميسون قبل فترة صوت الشعب الإيراني على الجمهورية
الإسلامية .. وعند ما اراد الاسترسال في حديثه جاء صوت المذيع
مضمخاً بالحزن والاسى... فيما يلي اقرأ على حضراتكم بياناً صادراً عن
الإمام الخميني قائد الثورة الإسلامية مؤسس الجمهورية....

بسم الله الرحمن الرحيم

انا لله وانا إليه راجعون

تبين.... ببالغ الأسف من خلال تقرير السيد وزير الشؤون الخارجية
والذي تم التوصل إليه عن طريق مصادر متعددة وجهات مختصة في الدول
الإسلامية وحسب مذكرته التقارير الواردة من مصادر اخرى ان المرحوم آية

الله الشهيد محمد باقر الصدر وشقيقته المكرمة المظلومة والتي كانت من اساتذة العلم والاخلاق ومفاخر العلم والأدب قد نالا درجة الشهادة الرفيعة على أيدي النظام البعثي المنحط وذلك بصورة مفاجئة..

وران صمت ثقيل في المكان واصيبوا بما يشبه الصدمة فجمدت الوجوه واحتبست الانفاس الآما يجيش في الأعماق حيث توجد منابع الدمع الإنساني... وكان صوت المذيع مايزال قادماً يحمل الخبر الصاعقة..

- فالشهادة تراث ناله امثال هذه الشخصيات العظيمة من أوليائهم والجريمة والظلم ايضاً تراث ناله امثال هؤلاء - جناة التاريخ - من اسلافهم الظلمة.

فلا عجب لشهادة هؤلاء العظماء الذين أمضوا عمراً من الجهاد في سبيل الأهداف الإسلامية على أيدي اشخاص جناة قضوا حياتهم بامتصاص الدماء والظلم وانما العجب هو أن يموت مجاهدو طريق الحق في الفراش دون ان يلطخ الجناة أيديهم الخبيثة بدمائهم...

ولا عجب ان ينال الشهادة المرحوم الصدر وشقيقته المظلومة وانما العجب ان تمر الشعوب الإسلامية وخاصة الشعب العراقي النبيل وعشائر دجلة والفرات وشباب الجامعات الغيارى وغيرهم من الشبان الأعزاء في العراق على هذه المصائب الكبرى التي تحمل بالإسلام وأهل بيت رسول الله (صلى الله عليه وآله) دون أن تأبه لذلك وتفسح المجال لحزب البعث

اللعين لكي يقتل مفاخرهم ظلماً الواحد تلو الآخر...
والأعجب من ذلك هو أن يكون الجيش العراقي وسائر القوى النظامية
آلة بيد هؤلاء المجرمين يساعدهم على هدم الإسلام والقرآن الكريم .
انني يائس من كبار القادة العسكريين ولكنني لست يائساً من الضباط
والمراتب والجنود وما أتوخاه منهم هو إما ان يثوروا أبطالاً وينقضوا على
أساس الظلم كما حدث في ايران وأما ان يفروا من معسكراتهم وثكناتهم
وآلاً يتحملوا عار مظالم حزب البعث...
فأنا غير يائس من العمال وموظفي حكومة البعثين المغتصبة وآمل أن
يضعوا ايديهم بأيدي الشعب العراقي وأن يزيلوا هذا العار عن بلاد
العراق .

ارجوه تعالى ان يطوي بساط ظلم هؤلاء الجناة...
وها أنا أعلن الحداد العام لمدة ثلاثة ايام اعتباراً من يوم الأربعاء الثالث
من شهر اردبيهشت الثالث والعشرين من نيسان كما اعلن يوم الخميس
عطلة عامة وذلك تكريماً لهذه الشخصية العلمية ولهذا المجاهد الذي كان
من مفاخر الحوزات العلمية ومن مراجع الدين ومفكري المسلمين .
وارجو الخالق تعالى ان يعوضنا عن هذه الخسارة الكبرى والعظيمة على
الإسلام والمسلمين..والسلام على عباد الله الصالحين....
روح الله الموسوي الخميني.

اجهش الجميع بالبكاء لقد حلت المصيبة... وجاء صوت نواح حزين
اندمج مع كلمات مخزونة في ذاكرة القهر والاضطهاد ومعاناة ملايين
البشر..

يا حسين بضميرنا صحننا بيك آمنا... لا صيحة عواطف هاي لا دعوى
ومجرد راي... هاذي.. من مبادئنا... صحننا بيك آمنا..

نهض أبو ميسون من دون يستأذن أحداً ومن دون أن ينتبه له أحد
وأخذ طريقه عائداً إلى منزله كسفينة محطمة تدفعها الأمواج إلى مرفأ
مهجور..

وما إن فتح الباب حتى وجد ابنته غارقة في مأساة مدمرة لقد سمعت
النبا الصاعقة.. هبت إلى معانقة والدها الذي لم يتمكن من التظاهر
بالتساؤل عما حدث؟

هل كانت هي الأخرى لا تريد ان ينتبه أحد إلى نشاطها وعلاقتها مع
فتيات جامعيات يرتدين الحجاب الاسلامي.. وزياراتها شبه اليومي لمرقد
الإمام الكاظم هل تخفي وراءها لقاءات منظمة خفق قلبه انه لا يريد
لابنته أن تذهب بعيداً... كيف يكمن لزهرة رقيقة أن تواجه عاصفة
هو جاء في ليل شتائي طويل!؟

الفرات - 14

لم يصدق حسام النبأ الكارثي انه فوق ما يتصوره ويحتمله...
عادت به الذاكرة إلى الوراء يوم زار السيد مع الوفود التي تدفقت
للبيعه كان مشغولاً بالنظر إلى وجهه وتلك الهالة من النور التي تحيطه
وتساءل في اعماقه كيف أمكن لأولئك الناس الذين رأوا الحسين (عليه
السلام) ان يطعنوه ؟

هل أن التاريخ يعيد نفسه حقاً فيتسلط حاكم يتقمص دور يزيد فلا
يظهر من يعارضه إلا رجل واحد هو الصدر ثم لا يقف إلى جانبه أحد
سوى شقيقته بنت الهدى....

هل يستحق هذا الشعب الخانع تضحيات إنسان مثل الصدر ودّ لو
يلتقى أحمد لكنه اختفى ولا يعرف كيف يتصل به الله وحده الذي يعلم
ماذا حل به...

فجأة تذكر رؤيا رآها في صباه ليلة رأى في منامه آلاف الذئاب تعيث وتعوي
في وسط الظلمات ما يزال حتى اليوم يشعر بأصداء العواء تتردد في اذنه .
استغرقه احساس مريع بالغرابة فالحياة تمضي كما كانت عهداً قبل

الجريمة هل يعلم هؤلاء الذين يمضون في كل اتجاه ماذا يجري؟!
عندما أوى إلى غرفته بدت له تلك الرواية التي أهداها احمد اليه ملاذاً
وحيداً للهروب من قسوة الواقع ومرارته... للهروب من كل مشاعر
الغربة التي تجتاحه.. بل ان وقوعها في يديه في هذه الفترة بالذات لم يكن
مجرد مصادفة!!

أنه يعتقد أنها ستعيّنه على فهم ما يجري حوله لقد بات يعتقد بأن البعشي
كائن غريب كائن لا يمتُّ بصلّة إلى الآدمية إلا الشكل فقط.. ولهذا راح
يسقط كل ما يقوله الروائي عن ظهور كائنات خانعة للآله لا تمتلك أي
احساس بالإنسانية .

انه لا يجانب الحقيقة عندما يقول: لم تعد الأرض ملكاً لبني الإنسان..
لقد ظهر البعشيون فجأة فإذا بهم يكتسحون ارض العراق... انهم في غاية
الهجمية والوحشية مع انهم لا يعيشون في الغابات والادغال بل في مكاتب
ويرتدون بدلات انيقة جداً لكنهم اشدّ قسوة من الوحوش الكاسرة...
اندمج في أحد الفصول حتى انه ظن انه قد دخل في عمق المشهد
العراقي.....

بعد أن تناولوا طعام العشاء سأل الكاهن ابنه عن مشاريعه الأدبية
الجديدة فبان التردد على وجه تريان ثم قال:
ان روايتي المقبلة ستكون كتاباً حقيقياً لا يمت إلى الأدب إلا من حيث

الأسلوب فقط، اما الاشخاص فاني سانتقيهم من الحياة الحقيقية...
سيكونون من الرجال الذين يعيشون على سطح الكرة الأرضية... لن آخذ
إلا عدداً قليلاً لا يتجاوز العشرة... مع ذلك فإن هؤلاء العشرة سيحيون
الحوادث نفسها التي يجيهاها الآخرون.. سأترك أمر ابرازهم للصدف.. عشرة
أعرفهم أكثر من سواهم.. أسرتي مثلاً... وبعض الأصدقاء والجيران...
إنني أعتقد أن أموراً خارقة ستقع... وأن المستقبل القريب يخفي أشياء
لكل منا... أشياء لم نر مثلها في التاريخ..

- إذا كان المستقبل ينبيء بنتائج مفاجئة فأني آمل إلا أكون في روايتك .
- إن الأحداث المحزنة ستقع أولاً على مسرح الحياة ثم أنقلها إلى روايتي

- أعتقد بأنني ساحيا فترات مفاجئة.. انني لست مغامراً..
- يا صاحبي... إن معظم الناس على هذه الأرض ليسوا مغامرين مع
ذلك فإنهم يمرون جميعاً أحياناً مرغمين في مغامرات يعجز الكتاب
العاطفيون عن تخيل مثلها .

- وما هي تلك الأمور الحساسة التي ستحدث؟!
- يا للسخرية... انني أشعر أن حدثاً خطيراً قد وقع حولنا...
وراح حسام يتابع الحوار حول ظهور كائنات بشرية آلية تفكر بطريقة
آلية وتفتقد إلى إي إحساس إنساني...
- ومتى ستحدث الثورة التي تتنبأها؟

أجاب تريان .

- لقد بدأت بالفعل ونحن نساهم في نشرها سوف لا يعيش الكثيرون منا
ليبلغوا نهايتها... اني اشعر بخوف جارف من أن لا استطيع إنهاء كتابي لأنني
سأختفي...

- إنني شاعر أملك شعوراً يسمح لي بالتنبؤ... ان الشاعر نبي.. انني
أسف اذ أتنبأ بأشياء مفاجئة... ينبغي أن اصرخ...
لن يبقى رجل واحد حرّاً..

- سنفنى اذن في السجون دون ان نكون مذنبين...
وراح حسام يغوص في أعماق المشاهد الرهيبة من الساعة الخامسة
والعشرون ليبلغ لاهثاً مشهد "تريان" وقد استيقظ فجراً ويغادر سريره
مرتدياً معطفه المنزلي...

كان قد مضى شهران على زواجهما سألت نورا:

- ألا تريد أن تحدثني عن روايتك ؟

وكان كل مرة يتحاشى الإجابة على سؤالها، أما الآن فإنه لم يستطع
رفض طلبها، قال:

- لقد قمت مرّة بجولة بحرية في جوف غواصة.. ان في الغواصات
جهازاً خاصاً ينبىء بالوقت المعين اللازم لتجديد الهواء، أما من قبل فإن
الغواصات لم تكن تعرف ذلك الجهاز بعد.. لذلك فقد كان البحارة

يصحبون معهم عدداً من الأرانب البيضاء إلى جوف الغواصة. فإذا تسمم الهواء ماتت الأرانب ومن ذلك يعرف البحارة ان لديهم خمس ساعات يجيئون خلالها قبل أن يسقطوا بدورهم فريسة للاختناق...

في الغواصة التي كنت مبحراً فيها لم يكن هناك أرانب بيضاء بل أجهزة تقوم مقامها وقد لاحظ القبطان انني اتحسس نقص مولد الحموضة فكان يسخر من حساسيتي، لكنه لم يعد يركن إلى اجهزة الغواصة لأنني كنت دائماً أدله على الوقت الذي ينقص فيه الهواء وكان يكفيه أن يلقي على نظرة واحدة...

أنها موهبة نملكها نحن: الأرانب البيضاء وأنا نشعر بذلك الخطر قبل ان يشعر به البشر بست ساعات ونحس أن الجوبات لا يصلح للتنفس... انني اشعر منذ زمن ما بمثل ذلك الشعور.. ان الجوقد بات خانقاً.. سألت نورا:

- وهل ستتشابه كل الفصول في نهايتها؟ اليس في روايتك موقف مفرح واحد؟ نهاية سعيدة؟

كلا ليس فيها نهايات سعيدة.. بعد موت الأرانب البيضاء لايمكن ان تكون النهايات السعيدة قابلة الوقوع.. ان موتها يدل على أن ماتبقى للآخرين من بقاء على قيد الحياة لايتجاوز الساعات المعدودة. ويتابع حسام وقوع سلسلة من الكوارث في مسرح الرواية: يهب بعض

الشباب للقتال والمقاومة وقد جاءوا إلى الأب "كوروغا" يمنحهم البركة
سأل القروي الشاب :

- وأنت يا أبانا هل ستصلي في الكنيسة من أجل ستالين، إنك إذا كنت

سنتهه من أجل ستالين فإن معنى ذلك أنك ستصلي من أجل الدجال !

- إنني أعرف إن ستالين ملحد كافر غير أن الكفرة ليسوا إلا آدميين فإذا

كانت نفوسهم محملة بالخطايا فذلك لأنهم تاهوا بعيداً عن حظيرة المسيح..

شعر حسام بالحزن يستغرقه وان الظلمات تتراكم من حوله حتى تكاد

تطفئ بصيص أمل كشمعة صغيرة في بحر من الظلام.. وخامره احساس

بأن الساعة الخامسة والعشرون قد أزفت وقد ضاعت دقائقها مع عواء

آلاف الذئاب في ليل عراقي طويل..

ومرّت أيام كاد حسام أن ينسى أحمد وإذا به يفاجأ برؤيته يدور في

أروقة الجامعة هائماً كمن يبحث عن ظلّه في يوم مطير...

راقبه لدقائق في جولته وأخيراً تعمّد أن يلقاه وجهاً لوجه.. آه إنه يبدو

منكسراً غريباً وقد استغرقتة حالة من الشرود...

تبادلا التحية بفتور واستأنفا خطوات ضائعة إلى زاوية قال أحمد دون

مقدمة:

- أرايت لقد انطفأ الأمل... الحسين يقتل من جديد... وامتلات عينه

بالدموع لم تعد هناك من حرمة كل حرمة الشعب العراقي مستباحة..

سوف يستباح هذا البلد... كل شيء يهتز الآن، ليس هناك من ثبات بعد
اليوم لقد رحل السلام... عندما هوى الحسين فوق الرمال شهيداً وعندما
عبرت من على صدره الخيول انهارت كل السدود واجتاحت السيول
مدينة الرسول...

هل ترى الدبابات وهي تزحف نحو المشرق!! العالم كله يريد إطفاء
الشمس قبل أن تشرق على العراق..

وأطلق حسرة اختزلت كل تراكمات حزن مكبوت آه لماذا يبحث هذا
الشعب عن رجل يقاتل.. بالنيابة.. هذا المجتمع العاجز لماذا يقدم أحد
أبناءه إلى المذبح ثم يبكي عليه؟!

انسحب حسام الى نفسه واستيقظت في أعماقه كلمات اذاعية تقدم
برنامج: عراق اليوم في طريق الحسين.. لقد تغير الاسم.. كان اسمه:
عراق اليوم يبحث عن حسين؟!

فعلها أهل الكوفة مرّة أخرى.. ماذا كانت تعني عشرات الوفود التي
تدفقت إلى النجف الأشرف تباعب الشهيد الصدر قائداً وزعيماً؟!
وعندما نهض إذا به يجد نفسه وحيداً لا ناصر ولا معين إلا شقيقته
فكانت زينب العصر... كان احمد في حالة يرثى لها واكتفى حسام بأن
ضغط على كتفه مواسياً ثم ودعه بصمت...

الفرات - 15

وتمرّ الأيام حزينة كقطار أسود أصبح حسام أكثر حذراً وداخله شعوره
بالغربة وظهرت في عينيه النجلاوين تكسرات لحزن دفين ووجد في
الاستغراق في الدراسة ملاذاً آمناً وعزاءً عن الواقع المرير الذي يجلده
باستمرار...

الإعلام يطبل للرئيس القائد الأغاني والأهازيج تمجّده وترفعه إلى
مستوى الإله...

وخلال زياراته إلى أسرته وما سمعه من أخبار فإن البلد ينساق نحو
حرب مع ايران لا يعلم إلا الله مدى ويلاتها .

الإعلام الرسمي ينشط في تسميم الأجواء بين الشعبين الجارين..
الصحافة تثير مشكلات قديمة وظهرت أسماء لأراض عراقية لم يسمع بها
على أنها ترزح تحت احتلال إيران ذات يوم: زين القوس سيف سعد...
وازدادت الأبواق في الداخل والخارج تهريجاً... في مجتمع بسيط ينظر
إلى الحكومة على أنها الرب الثاني يكثر المهرجون ويصبحون سادة البلد

وأدوات رخيصة في يد الحاكم...

استعاد حسام مقطعاً شعرياً لا يدري اين قرأه:
صفونا صفّاً صفّاً.

الأجهر صوتاً والأطول وضعوه في الصف الأول
ذو الصوت الخافت والمتواني وضعوه في الصف الثاني
أعطوا كلاً منا ديناراً من ذهب قان
براق لم تلمسه كف من قبل..
قالوا: صيحوا: زنديق كافر!
صحنا: زنديق كافر.

قالوا: صيحوا فليقتل، أنا نحمل دمه في رقبتنا قالوا: امضوا
فمضينا

الأجهر صوتاً والأطول يمضي في الصف الأول
ذو الصوت الخافت والمتواني يمضي في الصف الثاني!
أصحيح ما يقال أن الشرقيين بطبيعتهم عبيد يعشقون الطاغية ولهذا
فهم يصنعونه بأيديهم؟! لماذا نهزأ من أجدادنا عندما كانوا يصنعون
الأصنام الحجرية بأيديهم ويسجدون لها.. ألا نفعل الآن مثلهم ألا نصنع
الآن أصناماً بشرية ونسجد لها ونركع ونخضع؟!
لماذا لا يبث تلفزيون بغداد تلفزيون العراق الوحيد إلا أفلام تصوّر

الرئيس وهو يزور القرى ويدخل البيوت ويفتح أبواب الثلجات لا شيء سوى تنقلات الرئيس القائد واخبار الرئيس القائد.. حتى أشيع بأن صدام بدأ يتمرن على التلاوة لكي يستحوذ على فقرة القرآن الكريم لأنها الفقرة الوحيدة التي لا يظهر فيها صدام!!

وهكذا يختصر العراق كله في هذا الكائن المتوحش...

فكر مرة أن يكتب قصة رمزية عندما قرأ حديثاً للإمام زين العابدين صاحب رسالة الحقوق وفي الحديث يصف نجل الحسين الشهيد المجتمع الذي عاش مأساة عاشوراء قائلاً: «الناس في زماننا على ست طبقات أسود وذئاب وثعالب وكلاب وخنازير وشياه، فأما الاسود فملوك الدنيا يحب كل واحد أن يغلب ولا يُغلب. وأما الذئاب فتجاركم يذمّون إذا اشتروا ويمدحون إذا باعوا وأما الثعالب فهؤلاء الذين يأكلون بأديانهم ولا يكون في قلوبهم ما يصفون بألسنتهم وأما الكلاب فيهرّون على الناس بألسنتهم فيكرمها الناس من شرّ السنتها وأما الخنازير فهؤلاء المخنثون وأشباههم لا يدعون إلى فاحشة إلاّ اجابوا... أما الشياه فهم المؤمنون الذين تجزّ شعورهم وتؤكل لحومهم وتكسر عظامهم...

أراد أن يختصر العراق في قرية تعيش فيها الحيوانات بسلام فجأة وفي ليلة ظلماء يقوم الأسد بالانقضاض عليها وحكمها فتسانده الذئاب بكل ما أوتيت من قوّة على الفتك والمسك بالمحاصيل الزراعية والحيوانات

الضعيفة وتقوم الثعالب بخداع بقية الحيوانات وبالخنازير فقد انصرفت إلى حياتها المنحطة فيما راحت الكلاب تنبح لارعاب قطعان الأغنام.. وكانت تساق للذبح يومياً فتنهش لحومها وتؤخذ أصوافها لصناعة أجمل الثياب ثم ترمى عظامها إلى الكلاب وظلت قصته مجرد فكرة...

وكان يتساءل هل كان الإمام زين العابدين يصف طبيعة المجتمع العراقي اليوم؟! ان الحاكم سبع ضاري يتلذذ بقتل الضحايا والسوق تسيطر عليه ذئاب لا ترحم ادخلت الحياة الاقتصادية في مسلسل رهيب من الأزمات واضطر الإنسان إلى اللهاث وراء لقمة العيش حتى لا يفكر في شيء آخر.. المساجد والجوامع مليئة بالثعالب التي ما انفكت عن خداع الناس ونشر ثقافة الخنوع للحاكم واستساغة الحياة بلا كرامة ولا حرّية.. البارات والملاهي وحتى معظم المقاهي بدأت تضحج بكائنات لا تعرف من الحياة سوى البطن وإسفله إنها كائنات تمشي على البطون... وأكثر المشاهد مأساوية مشهد آلاف بل ملايين الشياه والأغنام وهي تُساق في كل اتجاه فلا تعرف ماهو مصيرها.... آه آلاف الشياه بل مئات الآلاف تساق اليوم إلى الحدود مع ايران.. إنها لاتستطيع ان تعترض لأنها لاتجرؤ على ذلك أنها تستسلم للموت خوفاً من الذبح! أنها تخشى هرير الكلاب...

السجون تمتلئ بالأحرار والعبيد يساقون في كل اتجاه ويزداد المشهد تعقيداً عندما يتحول الوطن بأسره إلى سجن كبير، وتختلط الأشياء ويضج

الفضاء بمختلف الاصداء ويختلط النباح بالثغاء بالعواء وتضيع وسط الضجيج صيحات الاحرار ونداء الثوار.. ثم تهيمن على المشهد قهقهة الشيطان...

وظهر صدام يمزق اتفاقية الجزائر مع إيران وسط تصفيق ونعيق المهرجين ويعلن من خلال الاذاعة والتلفزيون بدء الحرب الشاملة واندفاع اثني عشر فرقة مدرعة لاجتياح وغزو الجيران...

وسرعان ما ظهرت الحقيقة أنها حرب شنتها أمريكا للضغط على إيران وإسقاط النظام الثوري، واستكمل الغزاة السيطرة على ضعف مساحة لبنان. إن طريق تحرير فلسطين يمرّ من طهران!!

وظهرت في بغداد خريطة جديدة لايران حيث ظهرت دولة الإمارات العربية للساحل الشرقي، وعاصمتها بوشهر وجمهورية عربستان الحرّة وعاصمتها الأحواز!! ودويلات أخرى... إن العراق يريد تحرير الشعوب الإيرانية من سيطرة الملالي!!.

وفي ليلة وضحاها تم عسكرة المجتمع العراقي.. وجنّد شباب ورجال العراق في الجيش والجيش الشعبي وبدأت طاحونة الموت الرهيبة جُنّد أبو حسام في أحد قطعات الجيش الشعبي وسيق إلى خطوط نار مجنونة وظهرت مانشيتات الصحافة المهرجة: نار عبادان تضيء البصرة!!

واتخذت الحرب مساراً آخر عندما ظهر أنها لن تكون حرباً خاطفة أو

نزهة عسكرية كما خطط لها لقد رفض الشعب الايراني وقف إطلاق النار والاستسلام فالسلام من دون انسحاب المعتدين استسلام. إن شعارات الثورة ماتزال تتردد في الفضاء هيهات منا الذلة... ما أغبى صدام فثقافة عاشوراء هي التي صنعت ملحمة الثورة الايرانية واطاحت بالقوة الخامسة في العالم وهاهي الآن تقود حرب التحرير المقدسة وبدأت عشرات بل مئات ثم آلاف التواييت تأتي من الجبهة وانتشرت ظاهرة ارتداء القمصان السوداء ويزداد المشهد الاجتماعي العراقي ظلاماً..

وظهر الطاغية يعترف ربما لأول مرة بأنه يقاتل شعباً يحوك السجادة في
عشرين سنة!!

ووجد الشعب الايراني مبرراً قوياً لبدء ملحمة خالدة في الحرب، إنه يدافع عن أرضه وعرضه وبل وسيندفع إلى ما هو أبعد من ذلك سوف يزور الحسين بعد أن يحرر كربلاء من يزيد العصر.. واقترن اسم صدام بيزيد كما اقترن في العراق بـ «راس غليص» تلك الشخصية التي كشفت بشكل مدهش عن جانب من اخلاقية صدام الإجرامية...

وازدادت الحرب ضراوة وشراسة وراح النظام تدعمه قوى اقليمية ودولية يقاتل بالنيابة عن الأمة العربية!! ويقوم بحراسة البوابه الشرقية وظهرت لافتات مقززه تقول إحداها: العراقيون للحرب والمصريون للبناء! وسيكون العراق الدولة الأولى في عدد اليتامى وبدأت ظاهرة خداع

الجماهير تأخذ طابعاً علنياً عندما راح النظام يمنح سيارات التيوتا لأسر ضحايا المحرقة وانتشرت أغنية مرّة:

«يمته يجي بابا الحلو متلفلف بتابوته ... هو نحطه بالكبر وأنه اركب

التيوتا»

ومع تصاعد حدّة المعارك في الحدود تراجعت العمليات الثورية التي تنفذها خلايا تابعة لحزب الدعوة ومنظمة العمل وبدأت كوادرها تين الحركتين تغادر الوطن إلى إيران وساعدت الاعترافات المنتزعة تحت التعذيب الرهيب والهجرة على استئصال كل الخلايا التنظيمية واتجهت القيادات والرموز إلى التعويل على ورقة الحرب في اسقاط النظام البعثي وفي غمرة هذا الاحباط اتجه الكثير من الشباب إلى تكوين خلايا مستقلة للقيام بعمليات نوعية وشهدت ساحة المعركة في داخل الوطن تعاوناً بين شباب تنظيم الدعوة ومنظمة العمل.. وتألقت الآمال من جديد خاصّة بعد أن تمكنت إيران الثورة من تحرير مدينة خرمشهر المدينة المدماة واستسلم لها عشرون الف جندي عراقي وبات الطريق إلى البصرة بل وإلى بغداد مفتوحاً.

كان حسام يشعر بالسعادة لما حصل ان نظام صدام يهتز بقوة حتى عندما أخبروه بأن والده قد أسر في المعركة فإن ذلك لم ينقص من شعوره بالرضا.. بل ان والدته كانت هي الأخرى قد اطمأنت إلى مصير زوجها

وسلامته بل أنها كانت راضية فهذا الخبر قد أسعدها أكثر من خبر قبول
أنعام في جامعة بغداد.. حتى أنها صنعت صينتين من الكليجة لحسام
وأنعام وكان حسام قد استأجر غرفة في حي شعبي وانتقل إليها مع
أخته...

دجلة - 15

جهد أبو ميسون أن ينأى بأسرته عن كل ما يمت الى السياسة خاصّة بعد فاجعة استشهاد السيد الصدر ... ولهذا بالغ في الاحتفال العائلي بمناسبة دخول ابنته ميسون جامعة بغداد كلية الآداب قسم اللغة العربية.. انه رب عائلة اغلبها بنات وهذا زمن رديء يعاقب فيه المحسن ويثاب فيه المسيء وانقلبت كل المعايير.. واصبح النظام اشدّ قسوة وهمجية اثر الهزائم المريرة في جبهات القتال .

لن تنسى ميسون اليوم الذي اجتازت فيه أبواب الجامعة وهي ترتدي عباءتها ربما كانت الوحيدة التي ترتدي المانتو والعباءة هل كانت تتحدّى حزب البعث... سيما وأنها رفضت بشكل قاطع جميع محاولات الاتحاد الوطني لطلبة العراق وهو أداة البعث في الجامعات العراقية أنها تتحداهم في جامعة بغداد.

ميسون تلك الفتاة الرقيقة بربيعها الثامن عشر تتحدى زمهرير

العاصفة!

هل كانت تريد تجسيد بطله «الفضيلة تنتصر»؟
انا من يراها وهي تخطر في حجابها بوجهها المشرق وطلعتها البريئة
يحسبها حورية هبطت من عليائها لتعيش محنة الإنسان في هذه البقعة من
دنيا الله..

هذه الرقة الانثوية تستر وراءها صلابه المرأة العراقية في واحد من أشد
منعطفات التاريخ العراقي قسوة..

في زمن الرعب في زمن انحنت فيه هامات الرجال أمام العاصفة كانت
ميسون تتحدى همجية حزب البعث...

لقد اختارت الطريق الصعب يملأ قلبها الأمل لهذا فهي تنظر إلى
ما وراء الافق الملبد بالغيوم، فترى شمساً مشرقة وتشعر بدفء الربيع
القادم، ولعل هذا ما يفسر ابتسامتها التي تشع ليس على وجهها بل حتى ان
المرء يشعر بدفء نظراتها التي تنعكس على وجوه زميلاتنا في الكلية..

كانت لها علاقات واسعة مع زميلاتنا اللاتي يتحلقن حولها ويصغين
الى عذب كلماتها وهذا هو السرّ في تعلق أنعام بها وإيمان احبائنا عندما تكون
أنعام معها يكتسي حديثهما نوع من الجدّية وربما يخيل لمن يراها في هذه
الحالة يتصور انها يناقشان أحد الدروس لكن لو قدر لأحد أن يسترق
السمع إليهما لسمع أشياء خطيرة جداً أشياء يهاب ذكرها الرجال... ومع
مرور الأيام وبالرغم من صخب الحوادث ازدادت العلاقة بينهما ثم

ظهرت فتاة ثالثة هي إيمان واجتازت العلاقة حدود الجامعة إلى مواعيد في الكاظمية في ظلال القباب الذهبية حيث يخترق دجلة بغداد .
وبدأ تبادل الكتب التي تخفي نشرات سرّية أمراً عادياً..
دقة في المواعيد.. حذر في الأحاديث.. والعلاقات ان كلاب السلطة بحاسة الشم الفائقة الحساسية لم تستشعر وجود خلية منظمة تعمل بصمت عميق تضم فتيات وشبان جامعيين وكانت أنعام تؤدي دور حلقة الوصل بين حسام طالب المرحلة الخامسة في كلية الطب و طالبات كلية الآداب وخلال لقاء في ظلال نخيل المحيط بدأت أنعام تنظر إلى ميسون نظرات اخرى.. أنها لم تحب زميلة في الكلية حبها لميسون ان ميسون حورية حقاً أنها تختصر الجمال كله.. لقد وهبها الله وجهاً ينافس في بهائه البدر وعينين كنافتين تفتحان على عالم مفعم بالنقاء.. فإذا تحدثت امتزجت الكلمات مع ابتسامة محبة حتى يخيل إليها أنها تجلس عند ساقية رقاقة لهذا كانت إذا نظرت إليها تخيلت شقيقها حسام يقف الى جانبها واذا رأت أخاها تألق خيال ميسون باشرقتها تقف الى جانب حسام وقد انتبهت إلى أن حسام بدأ يكرر المرور بها في الكلية منذ تعرفها على ميسون.. هل يعني ان قلبه قد خفق بالحب!؟

ما أسعدهما إذن بالحياة!

كانت أنعام مترددة بشأن الموضوع هل تفتح اخاها بذلك ان والدتها قد

وافقت.. فعندما اخبرتها في الزيارة الأخيرة ابتسمت ابتسامة عريضة لكنها لم تقل شيئاً فزوجها أسير.. لكن ابتسامتها كانت تعبيراً بليغاً عن الرضا سيما وأنها ستكون مجرد خطوبة فقط..

لم تعد أنعام ترى اخاها في الجامعة فالتطبيق في المستشفى أخذ معظم وقته لكنها صممت على ان تفتح معه الموضوع هذه الليلة، فالأخبار المفرحة من جبهات الصراع المرير حيث تشرق الشمس مناسبة لبحث هذا الموضوع..

وصل حسام متأخراً ذلك اليوم وقد اختفت الابتسامة عن وجهه كما تختفي الشمس وراء ركام الغيوم...

انهمكت أنعام في تسخين طعام العشاء وهي تنظر إلى حسام وتنتظر ان يجبرها بالذي يكرهه.. أخيراً بدأ حسام ينفث عما في صدره من آهات!

- والله لم أسمع وأقرأ عن وحشية مثل وحشية هؤلاء الاوغاد... الحرب كشفت اخلاقية البعثيين بسرعة لأنه لا وقت عندهم للنفاق مرّات اتساءل مع نفسي ما هو المقدس الذي يحترمه هؤلاء هل لديهم مقدسات!؟

أنعام تنظر إلى اخيها نظرة البنت إلى ابياها فهي تحبه اكثر من والديها كان يشفق عليها ويغمرها بالحنان منذ كانت طفلة صغيرة وهاهي الآن تجتاز الثامنة عشرة وماتزال تشعر أنها صغيرة في حضرته لم تتركه يسترسل في كلامه سألت :

- ماذا حصل !!

- اليوم كنا نبحت حالة سريرية في المستشفى عن الدفترية وان أفضل
معالجة طوارئ لها هي الشق الحنجري واستحداث ممر جديد للهواء
ويستطيع الطفل المصاب من خلال ذلك ان يتنفس..

فجأة انطلقت ضجة في الممر.. الطبيب المشرف قطع حديثه وخرج
يستطلع الأمر...

رجال الأمن بشواربهم الكثة وأحذيتهم الثقيلة يزلزلون الممر...
المرضى كانوا في حالة رعب..

كان شاب ينزف في منطقة البطن فاقد الوعي.. ضابط الأمن يصيح
بالطبيب بصوت هستيري:

- غصبن على الله لازم يعيش...

يمكن لأول مرة يحضر مدير المستشفى ليشرف على العملية بنفسه...
بعض رجال الأمن كانوا مجروحين.. القضية كانت واضحة محاولة
لإلقاء القبض على هذا الشاب اشتباك بالسلاح.. الآن يجب ان يعيش من
أجل الاعتراف على رفاقه..

العملية نجحت نقلوه إلى غرفة خاصة... كان الضابط ينتظر بفارغ
الصبر زوال تأثير البنج..

استعاد الشاب وعيه.. وراح ينظر إلى الطبيب الذي اجرى العملية وإلى

الوحش الواقف إلى جانبه...

قال الضابط بقوة :

- احسن لك تذكر اسماء جماعتك.. خائن لازم تعترف..

من أين جاء هذا الشاب بهذه الطاقة لكي يردّ عليه بقوة:

- والله أنتم الخونة.. دمرّتوا العراق بهذي الحرب..

- راح القنك درس واخليك تعترف..

- عشرات الأسماء هنا في صدري واتحداكم يا جبناء!

- لك انت ما شايف شي لحد الآن..

- اعرف كل شيء عن وسائل التعذيب التي استوردتها من المانيا..

لكن غابت عن بالكم يا أغبياء حقيقة؟!!

- الموتى لا يتكلمون.. انني شهيد سنهزمكم بشهادتنا مدّ الشاب يده إلى

الجرح ومزّق أحشاءه وانبعثت الدماء.. نافورة حب أزليه..

بكت أنعام وشهقت ببكائها.. لقد فتح الشهيد الصدر باب هذه المعركة

عندما قال: وان الجنة قد فتحت ابوابها لتستقبل قوافل الشهداء حتى

يكتب الله لكم النصر..

آه ان الشهيد الصدر يستلهم معركة عاشوراء ويقود قوافل الشهداء

حتى يأتي نصر الله...

دجلة - 16

أنعام وميسون جالستان في ظلال شجرتين: صفصاف وكالبتوس في ذلك الصباح الربيعي وقد تفتحت النفوس للحب والحياة كما تفتح الازهار والورود لأنسام الربيع...

كانت ميسون تتحدث في موضوع تقسيم الادب العربي تاريخياً الى عصور.. وكانت أنعام تفكر كيف تطرق موضوع خطبة ميسون لم تكن تتصور ان هذا سيكون صعباً لقد تمكنت من فتح الموضوع مع أخيها وكانت ابتسامته تتسع.. ولم تعرف أنعام سرّ ابتسامته هل كانت ابتهاجاً بهذا الموضوع أم لأن اخته التي تصغره بأربعة أعوام قد فاجأته بذلك.. لكنه سعد بذلك كثيراً واخيراً قال لها :

- أنعام شوفي رأيها أولاً بالموضوع.. ميسون من عائلة ثرية ولا تنسين قضية بغداد والمحافظات..

- لاتعقد الموضوع..

- ثم الوالد أسير.. والوالدة..

- الوالدة راضية وفرحانه والوالد الله يفرج عنه...

- فتحتي الموضوع ويه أمني.. بس لا رايحه إلى أهل ميسون!؟
- قطعت مرحلة بس مو لهذا الثخن..
- أنعام.. أنعام هاي وين رحتي!! للرفاعي؟
- العفو ميسون تريدین الصدگ رحت قريب يعني ركبت سيارة المشوار قريب..
- يعني وين!؟
- كنت مع حسام.. البارحة ذكرناك بخير..
- الغيبة حرام أنعام:
- اكو واحد يغتاب الشمس..
- بدت آثار دراسة الأدب العربي.
- ليش أنه شگلت؟
- شعر لا لا.. جزء من خطبة.
- لا هذ مو شكل خطبة.. الخطبة بيها ايقاع حماسي..
- خطبة زواج.
- ضحكتا معاً وامسكت أنعام بكف ميسون وشدت عليها.. وقالت:
- حسام يريد يطلب يدك مارأيك؟
- فوجئت ميسون وتوردت وجنتها واطرقت برأسها وشرقت ابتسامة مكللة بهالة من الحياء...

الفرات - 16

أمضى حسام ساعات النهار مستغرقاً في عمله كطبيب..
يمضي المرحلة التطبيقية لكن قلبه كان قد استحال الى عصفور هائم بين
اشجار الجامعة.. لقد خفق قلبه بالحب.. إن خيال ميسون لا يكاد يفارقه
تساءل في نفسه كيف تسنى لأنعام أن تكتشف بذرة حب استقرت في
أعمق أعماق قلبه؟!
هل يقدر له أن يعيش مع ميسون في ظلال الزواج الوارفة هل سيكمل
مشوار الحياة برفقتها؟!
عندما توضعاً للصلاة ونظر إلى وجهه في المرأة رأى لأول مرّة الأمل
يتألق في عينيه..
أن قلبه ينعم بالدفء؛ أحقاً ما يقال ان القلب يجد طريقه كالنهر؟!
ومرّت أيام كان حسام مع أخته جالسين في نفس المكان الذي جلست
فيه أنعام وميسون..
أقبلت ميسون من طرف الحديقة متجهة إلى زميلتها أنعام ويبدو أنها قد

فوجئت بوجود حسام ..

نهض وقدم لها وردة جوري.. توهج وجهها حياءً والقت التحية
بصوت هاديء متهدج وجلست إلى جانب أنعام..
مرّت دقائق ونهض حسام مستأذناً للانصراف..
وبعد تبادل كلمات المجاملة قالت أنعام .

- متى نزوركم؟

- الحقيقة فاتحت أهلي بالموضوع يعني في اطار زيارة زميلة يرافقها
أخوها..

- يعني زيارة عادية؟

- الوالد انتبه فوراً لذلك رحب بالزيارة وقال: أهل الجنوب ناس
طيبين.. وأهلاً وسهلاً..

- نحدد الموعد على عصر يوم الخميس حتى من بيتكم نطلع للزيارة..

- انشاء الله..

وحطت بالقرب منهما عصفورتان.....

تدفق ينبوع الحب في قلب ميسون رقراقاً احياناً تجد نفسها تحلق بعيداً في
عمق السماوات إلى ماوراء الغيوم... هل يأتي يوم ينعم فيه الناس بحياة
آمنة مطمئنة..

واستعادت كلمات قالها حسام ذات يوم وهو يتحدث عن الطريق

الصعب الذي انتخبوه..

- ان طريقنا مليء بالأشواك.. انه طريق الأنبياء.. أنه طريق الحسين
وزينب.. إننا ذاهبون إلى كربلاء جديدة وكل يوم عاشوراء وكل أرض
كربلاء....

ألم يقل الحسين في يوم عاشوراء.. تركت الخلق طرأ في هواكا وايمت
العيال لكي اراكا.. فلو قطعني بالحب أربا لما مال الفؤاد إلى سواكا؟!
ألم يقل محمد الباقر الذي شهد كربلاء صبياً: وهل الدين إلا الحب؟! إن
طريقنا هو طريق الخلود ولا معنى للموت فيه كما أنه لا معنى لليأس ايضاً.
وانسابت في أعماقها كلمات بنت الهدى وهي تتغنى بمجد الحياة
الحقيقية :

قسماً وإن ملئ الطريق	بما يعيق السير قدماً
قسماً وإن جهد الزمان	لكي يثبط في عزمنا
أو حاول الدهر الخؤون	بأن يرش إليّ سهماً
وتفاعلت شتى الظروف	تكيل آلاماً وهمّنا
فترامت سحب الهموم	بأفق فكري فادلهمّنا
لن انثني عما أروم	وإن غدت قدماي تدمي

ان بنت الهدى كانت تنظر إلى ما وراء الأفق المبلد بالغيوم لقد أبصرت
المستقبل ... ان شمس الحرية سوف تشرق على أرض العراق ذات يوم..

ولولا هذا الأمل الكبير لما وقفت تواجه مع شقيقها نظاماً همجياً ولما قالت
وهي تمضي قدماً نحو الله .

- أنا كنت أعلم ان درب الحق بالأشواك حافل

خال من الريحان ينشر عطره بين الجداول

لكنني اقدمت اقفو السير في خطو الاوائل

فلطالما نصر الإله جنوده وهم القلائل

فالحق يخلد في الوجود وكل ما يعدوه زائل

مرّة سمعت والدها يدندن بابيات من لامية العجم للطغرائي وخاصة

قول الشاعر:

ما كنت أحسب أن يمتدّ بي زمني

حتى أرى دولة الأوغاد والسفلي

وكان يأسف لحذفها من المنهج الدراسي.. حتى أنها فكرت أن تكتب

بحثاً عن ظروف هذه القصيدة سياسياً واجتماعياً... ولكن إيمان نصحتها

بتأجيل ذلك فقد يثير ذلك شكوك هؤلاء الأوغاد.

دجلة- 17

كان أصيل ذلك اليوم حالماً أو هكذا بدا في عيني حسام فالمرء ينظر إلى العالم من خلال مشاعره انه في طريقه إلى منزل من هفا قلبه نحوها.. كانت أنعام قد زارت ميسون في منزلها مرتين ولهذا عندما جاءت مع أخيها هذه المرة فإن الأمر قد بات واضحاً لأسرة ميسون أنها زيارة تعارف وهي خطوة تسبق في العادة الخطوبة بالغ أبو ميسون في ترحيبه بحسام الذي أسعده الاستقبال الحار..

وبعد تناول أكواب العصير التي قدمتها أخت صغيرة لميسون تبدد الجو الرسمي ووجد أبو ميسون نفسه أمام شاب في غاية الأدب والخلق الرفيع...

وادرک أبو ميسون ان حسام شاب یختلف كثيراً عن ابناء جيله انه يبدو انضج بكثير ممن هم في سنه وعمره.. وكان في غاية الطيبة لا يبدأ الحديث إلا عندما يشعر أن مضيفه يود سماع رأيه وكان يبدأ حديثه بابتسامة.. وكان لا بد للأحاديث ان تعرج بسرعة على موضوع من موضوعات الحرب التي

- مرّ على بدئها اكثر من ثلاث سنين قال أبو ميسون:
- هناك أخبار مقلقة حول استخدام العراق اسلحة كيمياوية على نطاق واسع.. وهذا تطور خطير في الحرب !
- قال حسام:
- ان القلق يكمن في صمت المجتمع الدولي.. يعني ان الدول الكبرى ترضى بذلك...
- الله سبحانه هو وحده كيف ستؤول الأمور... إلى متى تستمر الأوضاع.. الناس بعد ماتتحمل أكثر من هذا..
- وهنا فوجيء أبو ميسون بأراء حسام وهو يقول:
- ان شراسة النظام هي انعكاس لهزيمة نفسية يعيشها مجتمعنا.. إذا جاز أن نشبة حزب البعث بالمرض فان هناك نقص في المناعة لدى الشعب..
- يعني لو كان المجتمع يتمتع بمناعة ضد الدكتاتورية ما تسلط حزب البعث بهذه القسوة والوحشية..
- صحيح التاريخ يعيد نفسه.. قطع حسام حديثه قائلاً:
- العفو حجي.. شويه نسيت نفسي..
- لا أبداً.. اتصوّر تذكرت حادثة تاريخية صحيح !
- الظروف التي مرّ بها العراق في زمن الإمام الحسين عليه السلام تتكرّر اليوم..
- مسلم بن عقيل سفير الحسين حشد مايقارب العشرين الف ثائر كلهم

تبخروا لمجرّد شائعات حول جيش قادم من الشام..
الناس اليوم كلهم يتململون من الحرب يتعاطفون مع الإمام الخميني
لكن على صعيد العمل والإرادة صفر على الشمال.. والذي يجب الإمام..
كان يعشق الإمام لكن وجه السلاح ضده الآن هو أسير..
مجتمعنا مشلول الإرادة.. الخوف يشل الإرادة.. لو الشعب يقدم
تضحيات في مواجهة النظام واحد بالعشرة مما يقدمه بمحرقة القادسية.
كان انزاح عنّا هذا الكابوس..
كانت أم ميسون تسترق نظرات خاطفة لحسام... أما أنعام فكانت
منهمكة في حديث مع ميسون وأخواتها..
أحدثت كلمات حسام دويّاً في أعماق أبو ميسون فهو يتحدث بثقة عالية
ويقول أشياء في غاية الخطورة..
إن صدام هو غدة سرطانية يجب استئصالها بأي ثمن.. ان الحياة الهائلة
تتمثل في ثلاثة أشياء.. يقول الإمام الصادق: الناس جميعاً يحتاجون ثلاثة؛
أشياء الأمن والعدل والخصب.. نحن الآن نعيش في حالة خوف مستمر..
الظلم في كل مكان والبلد استنزفته حرب مدمرة.. صدام يمثل خطراً على
مستقبل البلد.
لأول مرّة يشعر أبو ميسون بالخطر على ابنته.. ان هذا الشاب لن يحيا
طويلاً ان عمره كعمر الفراشات.. إنه يتحدث بطريقة تكشف وجود

بركان غضب يتفجر في أعماقه ان هذا الهدوء في حركاته في نظراته يعكس
اياناً راسخاً بالطريق الذي يسلكه.. ان حسام يعلن الحرب على نظام هو
من أسوأ الأنظمة واكثرها همجية..

امضى أبو ميسون وقته مطرقاً برأسه يصغي إلى كلمات ثائرة لهذا الطيب
الشاب.. انه يشفق عليه منذ الآن. إنه شاب في غاية الشرف والكرامة لكنه لن
يكون صهره أبداً.. أبداً.. ان هذا البركان سوف ينفجر ثورة ولن تكون
ميسون بمأمن من هذه الحمم... نظر حسام إلى ساعته والتقت نظراته بنظرات
ميسون وأنعام.. واستأذن في الانصراف..

حاول أبو ميسون ابقاء ضيفه للعشاء !

- ابقوا للعشاء.. والله هذا بيتكم.. بدون مجاملة..

- شكراً حجي ورائنا زيارة.. هذا بيتنا.

قالت أنعام بمودة :

- عمي أبو ميسون.. انت بمكان الوالد..

- الله يفرج عنه.. انتم مثل ولدي أي شيء تحتاجون انا برسم الخدمة.

- الله يحفظك حجي..

- زين خلّي أوصلكم..

- شكراً حجي نريد شويه نتمشى

- على راحتكم.. أهلاً وسهلاً..

وخرج الجميع لتوديعهما إلى الباب.. ومكثوا واقفين إلى ان غابا في المنعطف..

ومرت أربعة أيام لم يتحدث أحد من أسرة ميسون في موضوع الزيارة وتظاهر أبو ميسون بأن ما حصل كان مجرد زيارة عادية إلى أن عادت ميسون من الجامعة وبرفقتها زميلتها أنعام.

كان أبو ميسون خارج المنزل.. وفتحت أنعام الموضوع..

- خاله أم ميسون.. أخويه حسام يطلب يد ميسون.. والحمد لله حسام مو لأنه أخويه.. شاب متدين وخلوق والمستقبل أمامه .

ما احلف لكم حسام شاف في ميسون الأخلاق العالية والأدب والكمال.. وميسون نخلّيها بالعيون شنو تأمرون نغول حاضر !

ابتسمت أم ميسون واطرقت ميسون برأسها حياءً قالت أم ميسون:

- أنعام بنتي! ميسون بعدها طالبة وحسام الله يخليه بعده في بداية

الطريق.. وامر ميسون بيد والدها..

- زين خالة ننتظر رأي عمي وانشاء الله خير..

- انشاء الله

غادرت أنعام وبرفقتها ميسون التي اخبرت والدتها بانها ذاهبة إلى بيت

خالتها..

وفي المساء عندما عاد أبو ميسون اطلعت زوجته على رغبة شقيق أنعام

في التقدم لخطبة ميسون وطلب يدها..

قال أبو ميسون:

- والله الولد خوش ولد متدين ومؤدب لكن واضح انه سياسي.. وأنت

تدرين النظام مايرحم لا الصغار ولا الكبار.. أنا ماراضي..

- أمرك أبو ميسون.. أنت ح تكلمهه؟

- من تجي أنا افهمهه..

* * *

كانت ميسون في غرفتها تذاكر دروسها عندما نقر والدها على الباب

ودخل وجلس على طرف السرير وكانت ميسون جالسة الى منضدة

صغيرة.. اطبقت الكتاب ونظرت إلى والدها بحب قال أبو ميسون:

- بنتي ميسون!

- نعم بابا

- أنت بنية عاقلة وتفكرين بالعواقب.. انا وامك نتمى لك السعادة

والخير. ورأيي ورأي أمك همتين هذا الشاب لا يحقق لك السعادة..

صحيح انه طيب ومتدين وخلق..

أطرقت ميسون وقد تجمعت في عينيها الدموع كغيوم ممطرة..

...

- ماكو شك في صواب اختيارك نعم الشاب.. لكن واضح انه متدين

جداً ويبدو عليه انه سياسي... وانت تدرين صدام ما يرحم من يعارضه
فكيف بمن يحاربه.. انت نسيتي شلون عدمو اصف كامل باعداية
الكاظمية لأن شافوا على السبورة شعار يسقط صدام حسين.. أطفال
أكبرهم سبعطش سنه!!!.. شنو ذنبهم؟! هذوله وحوش.. بنتي.. تعرفين
معنى وحوش?!!

بصراحة أنا قلق عليك.. أمك ايضاً قلقة.. اخواتك.. هذا الشباب
ما يعمر مصيره واضح.. أنت تمشين إلى الموت بقدميك..
كانت ميسون مستغرقة في صمت مدوي.. وخطر في ذهنها بيت شعر
شائع على سبيل اللغز :

إلى حتفى سعى قدمي أرى قدمي أراق دمي
سقطت قطرة من دمع فوق الكتاب الذي بين يديها هي أول قطرة دمع
انجست من ينبوع الحب الطاهر الذي ربط بين قلبي ميسون وحسام.
وشجع صمت ميسون والدها فاستطرد في حديثه :

- بصراحة نحن خائفون عليك.. طراً عليك تغيير كبير ارجوك
يا حبيبتي ان تتفرغي لدراستك وتنسين هذا الشباب.. وأي شيء تطلبه
يتحقق.. أي دولة تريدن تسافرين لها حاضر ارتب دراستك بالخارج في
أي دولة..

اشترى لك احسن سيارة.. انت الآن في بداية ربيع حياتك اتركى هذ

الشاب لأنه يسير في طريق لا يعود عليك إلا بالموت والدمار.. عليك وعلى
اسرتك.

اخضلت عيناها بالدموع ولاحظ الأب ان ابنته لن تتحمل أكثر من
ذلك فانسحب من المكان بصمت..

أما ميسون فقد وضعت وجهها بين كفيها واستغرقت في بكاء مرير..

دجلة - 18

كانت أمسية شتائية ميسون في بيت خالتها وقد جلستا معاً إلى مدفأة
نفطية تشع الدفء من حولها؛ المطر ينقر زجاج النوافذ المطلّة على حديقة
المنزل الصغيرة..

كان والد ميسون مايزال مصراً على موقفه في رفض الخطوبة وقد
تزايدت مخاوفه في أن تكون ابنته الحبيبة قد اندفعت بعيداً وانتمت إلى تنظيم
سياسي محكوم عليه بالاعدام منذ ثلاث سنين.
طلبت أم ميسون من اختها ان تنصحها وأن تترك هذا الشاب قالت
الخالة بحنان:

- خالة ميسون تدرين اشكد أحبج اول مافتحتي عيونج عليّ قبل
الوالدين..

- خالة أنا هماتين احبج إذا مو مثل امي مو اقل.

- بنتي ميسون.. ماتحتملين رأي أبو ميسون هو الصحيح؟

هو يخاف عليج وعلى حسام بنفس الوقت..

انزلت خصلة من شعرها الذهبي فوق فستان ازرق وبدا وجهها
البريء يضيء بنور شفاف تساءلت :

- ليش كل هذا الخوف؟! !

- تتدخلون بالسياسة.. أبو ميسون حاسس أشياء وراء اللقاء مع بنات
المحلّة.. ونشاطك بالكلية وعلاقتك بحسام..
تهدج صوتها وهي تقول:

- علاقتي بحسام علاقة طاهرة.. أختار الحياة معي وأنا أيضاً وجدت
فيه الإنسان الذي يمكن الاعتماد عليه.. اول شيء الدين والاخلاق وآخر
شي الدين والاخلاق.. والله حتى من يكلمني ما يرفع رأسه... والله حرام
خاله.. ليش هذا الظلم..

- ميسون بنتي انت في بداية شبابك اهتمي بالدراسة افكارك حتتغير
ونظرتك إلى حسام همتين حتتسببه بعدين اليوم تشوفيه مناسب پاچر
حتشوفيه بالعكس...

- الحب الحقيقي يا خالتي ثابت وراسخ، أنه كالشجرة جذورها نابتة في
أعماق القلوب المؤمنة.. إن حبنا هو جوهر الإيمان بالله والحياة الطيبة انه
طريق إلى الله وهو شعله من الحب الحقيقي..

إن حبنا ياخاله يطوف في سماء مرصعة بالنجوم إنه نعمة من نعم الله
حبنا طاهر لا تشوبه من أوحال الإنانية شائبة..

أشعر ياخاله إن إيماني يتفتح أكثر فأكثر.. إنني أشعر بالسعادة تغمرني..
إنني أشكر الله على هذه النعمة.. إنني لم أتحدث إلى أمي كما أتحدث إليك..
انظري ياخاله إلى الأسر والعوائل التي تنهار لأن العلاقات الزوجية لم
تنهض على أسس قوية من الحب والإيمان..

لأن قلوب الشباب خاوية خالية من نعمة الحب الحقيقي.. الحب الذي
ينهض على المبادئ السامية.. ان حبنا ياخاله منصهر بكلمة الله. انني
ازداد ايماناً بالحياة الإنسانية.. انت تعرفين ياخاله الظروف التي نمرّ بها..
تعرفين اننا نعيش في سجن رهيب تعرفين ندالة هؤلاء.. تعرفين محاربتهم
للدين والإنسانية والاخلاق.. اتريدين ان اقف إلى جانبهم ضد هؤلاء
الشباب الذين يضحون بأنفسهم وارواحهم من أجل الحرية والكرامة؟
لماذا نبكي على الحسين ثم نتركه وحيداً؟ لماذا..

- بنتي ميسون هذا كلام خطير.. كلنا نخاف عليك... البعثيين
مايرحمون حتى الأطفال..

- ياخالتي العزيزة ان قوتهم وقسوتهم نابعة من خوفنا. الإنسان المؤمن
لا يخاف أحداً إلا الله..

ياخاله إن الحياة تفقد طعمها عندما يعيش الإنسان خائفاً .
- والله يا ميسون انت من كنت صغيرة عاقلة.. أنا ما أشك لحظة في
صواب اختيارك..

وعانقت الخالة بنت اختها:

- ح اكون أول من يبارك لك.

وابتسمت ميسون ابتسامة رضا واضاءت الفرحة وجهها.

كان المطر مايزال ينهمر وكانت السماء ما تزال مثقلة بالغيوب وقد

جرت خيوط المياه فوق الأرض التي تتشرب منذ أيام ماء المطر..

منذ اللحظات الأولى أدرك أبو ميسون ان اخت زوجته قد أخفقت في

اقناع ميسون لكنه فوجئ قليلاً بأن الخالة قد جاءت لاقناعهم بالموافقة على

انتخاب ميسون:

- اختي أم ميسون: ميسون مثل بنتي.. وتعرفونها زين عاقلة ومتدينة

وتعرف صلاحها.. والولد خوش ولد.. ما أدري ليش هذا التشاؤم.. عيني

أبو ميسون الأعمار بيد الله.. الله سبحانه هو اللي يحميهم ويسعدهم..

وصدغوني بعد الزواج حيتغيرون وحينشغلون بالأطفال والمسؤوليات

والحياة.

قال أبو ميسون:

- والله ما عندي أي اعتراض على الولد.. لكن هذا الشاب دا أشوفه يمشي

بطريق نهايته واضحة.. والله حيرة ياناس..

- الزواج قسمة ونصيب أبو ميسون..

التفت صوب اختها :

- شنو رأيك أم ميسون؟
- والله أنا حايره.. ميسون مو طفلة حتى نفرض او نرفض.
- ابتسم أبو ميسون لبلاغة زوجته..
- وانتهزت اختها هذه الفرصة لتقول:
- ميسون اعرفها كلش زين.. إذا رفضتوا حسام.. حتبقى بدون زواج .
- شنو تقصدين؟
- كلامي واضح.. البنية تریده والولد يريدها.. ما اعتقدح تزوج غيره
- ابدأ.
- بدا أبو ميسون مستسلاً وهو يقول:
- آني مراح اتدخل.. الأمر يم أمها..
- أدركت خالة ميسون ان هذه موافقة وإن كانت لاتتضمن رضاه..
- وقبل ان تغادر الخالة قال أبو ميسون من دون أن ينظر إلى أحد:
- خطوبة وعقد.. الزواج بعد التخرج..
- صار تأمر أبو ميسون..

الفرات - 17

رأى نفسه يسير حافياً في طريق ملي بالأشواك.. فجأة ظهرت ميسون ترتدي ثوباً سماوياً مدّت يدها لترافقه وقبل أن تتعانق الكفان هبت عاصفة مجنونة دفعتها إلى نهاية الطريق وكلما حاول أن يمسك بيدها أخفق وظل ينظر إليها فقط.. استيقظ حسام على أصداء أذان الفجر فأزاح البطانية ونهض للصلاة..

قال لأخته وهو يتناول الإفطار..

- لا أظن النتيجة تكون إيجابية ؟

- تفاءلوا بالخير تجدوه .

- حتى لا تتفاجئين .

- تعلم الغيب !!

- إذا صدقت رؤياي فالنتيجة سلبية .

- أكثر الأحلام أوهام .

وقص حسام على أخته رؤياه.. فقالت:

- يمحو الله ما يشاء ويثبت ... وعلى كل حال فعند جهينة الخبر

اليقين...

* * *

جلست ميسون وحيدة أمام المدفأة كانت تفكر في حياتها لقد كسبت
الجولة الأولى على ما يبدو ان اقتناع حالتها يعني ان والدتها ستوافق.. لكن
والدها لا يمكن تغيير موقفه...

ما الذي جناه حسام لكي يعامل بهذه الطريقة؟! هل لأنه اختار الحياة
بكرامه؟ هل لأنه سلك الطريق الشائك.. لأنه رفض الانحناء للطغاة؟
وقعت عينها على بيت شعر كان بداية تعرّفها على أنعام وعلى حسام
ابتسمت وقد اشتعل في ذاكرتها مشهد أنعام وهي تقول لميسون ذات
صباح:

- اين الفاعل في هذا البيت:

مانالني في ودها لا والذي عز وجل

أظن أن البيت ناقص ولا وجود للفاعل...

نالني: فعل ومفعول به في ودها جار و مجرور ومضاف ومضاف إليه..

لا: نافية ثم يأتي القسم ..

- دقيقي جيداً .

- الفاعل ضمير مستتر تقديره... .

- الاجابة خطأ
- البيت ناقص
- البيت كامل والفاعل ظاهر.
- والله يدوّخ
- انا مثلك في الدوخة
- شنو قصدك؟
- الحقيقة أخي حسام طالب في كلية الطب المرحلة الخامسة اختبرني بعدما دخت كشف عن اللغز...
- وين اللغز؟
- دققي في الشطر الثاني في كلمة عزّ وجل.. الحقيقة ان القسم والذي عزّ نقطة أما وجل فمعناها خوف وهي الفاعل ...
- مضبوط يكون المعنى: ما نالني وجل في ودّها لا والذي عزّ
- انظفاً المشهد ليشتعل مشهد آخر.. كانت برفقة أنعام ومعهما طالبة اخرى تدعى ايمان.. ذهبن معاً إلى مرقد الإمام الكاظم.. وقرأت دعاء كميل بصوت شجي حتى أنها رأت دمعة في أهداب أنعام..
- وعندما خرجن إلى الصحن أشارت ميسون إلى جمع من النسوة المتلفعات بعباءات جنوبية وقد عصبن رؤوسهن:
- كلهن أمهات يبكين على أولادهن في السجون الله يساعدهن..

قالت أنعام:

- الله يكون بعونهن .

- الله ينتقم من كل ظالم بجاه الإمام الكاظم.. .

وفي ذلك اليوم بدأت أنعام تلوح من بعيد إلى ضرورة العمل على التغيير وان المؤمن أقوى من الجبل.. وان العمل المنظم هو المطلوب.. وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾.

أوصى الإمام علي بذلك في قوله: اوصيكم بتقوى الله ونظم أمركم..

أخيراً قالت أنعام بعد كلام طويل :

- الحقيقة أنا مكلفة بمفاتحتك بموضوع العمل الحركي..

اشتعل مشهد آخر أنعام ترافقها في اروقة الكلية ثم إلى ركن في

الحديقة.. تفتح حقيبتها وتخرج دفترًا صغيراً :

- هذه مجموعة من القصائد نقلتها من كتب ومجلات أعجبت بها أنه

هدية لك..

- وهل فيها ألغاز؟

- بالتأكيد في بعضها لغز كبير.. ولن أخبرك به أبداً حاولي أن تكتشفي

بنفسك..

انظراً المشهد..

ميسون ماتزال وحيدة في بيت خالتها.. التي لم تعد بعد ألقت نظرة على رف صغير حيث اصطفت فيه بعض الكتب ولاح دفتر أنعام انبعثت رغبة في أن تقرأ بعض قصائده.. وفي هذه المرة كان طيف حسام يلوح في صفحاته.. لاشك في أن حسام هو من وراء هذه الخطوة.. لقد تعرفت على خط أنعام ان هذا الخط لا يشبه خطها..

كانت قد وجدت بعض الكلمات وقد شطبت لا يمكن قراءتها.. ان هذا الدفتر يعبر عن وجود رسالة ضمنية قرأتها بدقة.. راحت تتصفح الدفتر من جديد وتوقفت أمام كلمات حزينه مفعمة بالثورة ودّت لو تعرف صاحبها :

- في النجف الأشرف

يا بلادي الحزينة

يا قلعة الأبطال يا بيارق المدينة

ولدت مثل شعلة تعبر وجه الدرب

تنور الفيافي الخضراء

كنت لها البرعم ان اقحلها الأعداء .

يا وطني يا قلعة الإباء

يا مرفأ الأئمة الأطهار

يا جنينة السماء

ماذى جرى؟!
سماؤك الزرقاء مكفهرة
وارضك الخضراء
تحرقها بنادق الاعداء
تركت فيك الف الف بيرق
والف الف نائر
والف الف قائد
يعانق السماء
يلوي وجوه القدر الغاضب كالعنقاء
ماذى جرى؟!
أما ترى ايران
قد ثارت بلا هوادة
تدك حصن الظالم المارد بالدماء
وتعشق الموت بلا وسادة
يا وطني!
ماذا جرى؟!
وراحت تقرأ قصيدة أخرى لثائر مجهول:
- مقدمة

ثلاث مرّات سقطت بغداد تحت الاحتلال الهمجي
فمرّة حين غزا تراها المغول
ومرّتين حينما جاء للحكم بها النغول.
ومرّة رابعة ذلك يسمى المستحيل
القصيدة :

- حين يفتش في الليل عن الأحباب
ويقادون إلى حيث يقيم البعثيون
الحفلة كل مساء في السرداب
تقطيع الايدي
تكسير الأرجل ثقب الركبة بالمثقاب
آلات يعرفها الشرف البعشي
وتشق مئانة عبد السادة بالسيخ المحمي
ويذوب عبد الصاحب بالتيزاب
حين تكون الخسة قانوناً
يحكم في بغداد بغير كتاب
والشرطي الأول ذا أنياب
لا يتورع حتى عن أكل رؤوس الأطفال
لا تمنعني أن آخذ سيفي

وأقاتل ضد عصابات البعث نظام الإرهاب .

أغلقت الدفتر واعادته إلى مكانه .

كان اللهب الأزرق والسكينة التي تغمر المنزل تلهب الذاكرة فتتألق

المشاهد الواحد تلو الآخر..

إنها لن تنسى أول حوار لها مع حسام كانت إيمان وأنعام حاضرتين

لكنها لم تشركا في الحديث.. فالتعليقات الجديدة التي جاء بها حسام من

رأس الخلية واضحة ومنطقية..

توقف فوري عن توزيع المنشورات داخل الجامعة قالت ميسون:

- لماذا؟

- لأن هذا يثير الأمن ويدفعهم إلى تشديد المراقبة

- ولكن توزيع المنشورات جزء أساسي من العمل الحركي؟! !

- إذا كان الهدف من ذلك نشر الوعي وفضح حقيقة النظام فإن الأمر

قد بات واضحاً للجميع.. ليست المشكلة في جهل الناس بالحقيقة كل

العراقيين يعرفون حقيقة هؤلاء لكن المشكلة تكمن في هذا الجدار من

الخوف الذي يجب تحطيمه قالت ميسون:

- ان توزيع المنشورات يسهم في تحطيم حاجز الخوف فالطالب عندما

يقرأ هذه المنشورات التي تهاجم النظام وتفضح أساليبه فإن ذلك سوف

يقلل من مخاوفه.. لكن إذا استمر الطالب يسمع عبارات التأييد للنظام

وصدام ويرى الشعارات التي تمجّده فإنه سوف يتشرب هذا الواقع المزور..

انني أذكر جيداً ماقلته سابقاً في ان قوة النظام نابعة من احساسنا بالخوف منه..

- ليس هذا فقط وايضاً من حب الحياة بأي ثمن.. على أي حال أنا اشاطرك الرأي لكن هناك رأي يصرّ على التحضير لعمل أقوى يزعزع هيبة النظام ويكسر حالة الخوف في النفوس أكثر..

أنها لن تنسى ذلك الموعد الخطير عندما سلمتها أنعام ورقة صغيرة تتضمن كلمات معدودة.. إنه ينتظرها غداً صباحاً أمام بناية مدينة الطب.. حدثت بأن المهمة التي ستقوم بها ستكون خطيرة هذه المرّة. كان حسام ومع شاب آخر يتحدثان، عندما وصلت ميسون التي تظاهرت بأنها تسأل عن شيء قبل أن تدخل البناية..

وبكلمات مختصرة جداً وإشارات تمثيلية قال حسام :

- سلّة البرتقال تصل إلى العلاوي بعد ساعتين من الآن الشخص الذي يحملها يرتدي بدلة رصاصية.. كوني حذرة جداً..
ولا تنسي بقية الاشارات..

شكرت ميسون حسام واتجهت إلى داخل البناية لتخرج بعد دقائق متجهة إلى المكان المحدد..

استلمت سلّة البرتقال في المكان والزمان المحدد.. وساورها هذه المرّة
شعور بخطورة ما تقوم به لقد حملت عشرات المنشورات بل مئات. وكانت
تشعر بأهمية ما تقوم به.. أنها تسهم في توجيه ضربة لنظام البعث الهمجي..
سوف نزيح عنك كابوس الاحزان ايتها العزيزة.. بغداد ترتدي حلّة الحداد..
لقد سلب النظام الفرحة حتى من وجوه الأطفال..

أنها لن تنسى كلمات أنعام: اخبرني حسام بان العملية الجراحية تمت
بنجاح كامل وتمكن الجراح من القضاء على امتداد سرطانني وانتشر خبر
انفجار قناني غاز في مبنى المنظمة الحزبية في الكاظمية..

وكانت الفرحة واضحة على وجه والدها الذي عاد يحمل علبة
حلويات ولما سألته أمها عن مناسبة ذلك قال:
- يعني إلا بالمناسبات.

آه لو يعلم والدها من قدّم له هذه الفرحة في هذا الزمن المرّ؟! !

الفرات - 18

أرأيت كيف تتلقى الأرض العطشى غيث السماء.. أرأيت كيف يتسم الأفق مع أول خيط للضياء؟ هكذا كان قلب حسام وهو يتلقى النبأ الذي رسم في عينيه اقواس قزح وفجر في قلبه نبأ من الفرح.. أخيراً وافقت الأسرة على استقباله... قال لأخته:

- معقولة بس هذا الحلم ما تفسيره؟

- أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين..

كان على أنعام أن ترتب لقاءً بين أخيها وميسون وكان أفضل مكان في ظلال ضريح الكاظمين..

كان الوقت ضحى مفعماً بشمس دافئة وقد مللم شباط رياح العجوز ولاحت بشائر آذار.. وقفاً معاً في مكان زاخر بحمام الزاجل وكانت ميسون تجدد في هذا راحة نفسية كبيرة لأنه يثير مشاهد من ذكريات الطفولة. أحياناً تثير الرائحة والأصوات قوّة على استعادة الماضي البعيد

كان منظر الحمام كافياً في أن تستعيد ميسون ذكريات طفولة بعيدة كانت تنظر إلى الحياة فتراها مفعمة بالنور والسلام أما الآن فإن مرارة الواقع يسلب المرء الاحساس بالحياة لولا نوافذ مفتوحة في السماء لعم الظلام الأرض أنها الآن تقف على بقعة تنفتح عليها السماء وتقف إلى جانب الإنسان الذي تحب.

قال حسام وهو يحدق في منظر الحمام وهو يلتقط الحب..
- إذا ماتمانعين يكون موعد زيارة الأهل الخميس القادم.
قالت بدلال:

- ولماذا العجلة يا حسام !

قال وهو يقلد صوتها:

- ولماذا التأخير يا ميسون؟

قالت وقد أحاطت وجهها المضيء هالة من الحياء:

- أليس لكل فتاة مهر؟

- انني أضع قلبي وروحي على طبق من الاخلاص لك.

- أنا واثقة من شعورك.. لكن المهر الذي أطلبه لا تطلبه غيري..

- لا أكاد أفهم شيئاً .

- مهري يا حسام هو تنفيذ العملية.. أنت تعرف..

قاطعها بأدب:

- ما رأيك في أن نتمشى إلى النهر.. أظن أن حديثنا سيطول ومن الأفضل عدم البقاء هنا أكثر من هذا الوقت..

- كما تحب

في غمرة العاطفة المتأججة في قلوب المحبين نسيا أنعام وغادرا الصحن بعد أن انحنيا تحية إجلال لسجين بغداد الشهيد..

عندما عادت أنعام لم تجدهما فابتسمت، انهما معذوران على كل حال!!
كان حسام وميسون قد شارفا الوصول إلى شواطئ دجلة وكانت المياه الغرينية تتجه جنوباً في رحلتها اليومية إلى الخليج.. حيث يجلس الغريب يسرح البصر الحزين..

قال حسام وقد تتأججت العاطفة في قلبه:

- إن الله الذي قدر لدجلة والفرات أن يلتقيا وأن يؤلفا نهراً واحداً يصب في البحر.. قدر لميسون وحسام أن يلتقيا وأن يتوحدا ليؤلفا كياناً واحداً يصب في بحر الحياة..

قالت ميسون منتشية:

- لا أدري هل أنت طبيب أم أديب

- كلاهما يهتم بالحياة.. كلاهما يعشق الحياة..

- أتريد أن تقول أن لا فرق بين الأدب والطب!

- الطب وسيلة للحفاظ على حياة الإنسان.. والأدب يتغنى بالإنسان
والحياة..

وعندما وصلا الضفاف قال حسام وهو يبستم
- نعود إلى صلب الموضوع كما يقول الشيخ الوائلي:
قالت ميسون بهدوء تام.

- أنت تعرف خطورة العملية القادمة أنها مصيرية.. لهذا رأيي تأجيل
الخطبة الى مابعد التنفيذ.. وحينئذ أشعر انني حصلت على مهري..
همس وهو يتخيل نجاح العملية :

- مهر ميسون.. ايمكن أن يحصل ذلك وتزاح كوابيس الخوف والرعب
عن صدر العراق الحبيب؟

ما أسماك ياميسون، حتى مهرك عجيب.. ليس من ذهب ولا فضة إنه
مضمخ بصهيل ذي الجناح.. لم يسحرك رنين الذهب.. انك لا تتطلعين إلى
هذا الرنين الذي يخطف العقول، إن ما يسحرك ويشدك رنين تحطم
السلاسل والأغلال عن ملايين المعذبين..

تذكر كيف جاءت أنعام تروي له حكاية تعرفها على فتاة..
فتاة كأنها حورية في مظهرها في براتها ونقاء روحها.. وما أثار دهشتها إنها
من عائلة ثرية لكنها لم تر في يديها أساور من ذهب أو فضة.. بل إنها لم تصدق
أن والدها يملك محلاً للحلي الذهبية في شارع النهر..

ما أنبلك يا ميسون وأنت تطلبين الحرية للعراق مهراً، أي مهر هذا الذي تنشده فتاة لما تبلغ العشرين بعد؟ !
من يصدّق هذا الانعتاق من أسار المادة في زمن الحرب في زمن تتزلزل فيه القيم الأخلاقية.. وتستيقظ فيه الغرائز تعربد وتدمر.. وتعتقل فيه الإنسانية لتودع في سجن تغمره الظلمات..
قال حسام:

- تسلّمت خرائط جديدة وهامة لكننا ما نزال في بداية الطريق.. وعرفنا المهندس على أخ مثقف وقدير وله تجربة سابقة اطلق سراحه من الاعتقال قبل أشهر.

اننا ندرس الموضوع من كل جوانبه..

- أنا متفائلة جداً رأيت قبل ليلتين اني أطيّر في فضاء سماوي اللون حرّة طليقة وكنت اتعجب لخفة انتقالي.. اظن وزني اخف من الريشة لقد كنت سعيدة.. سعيدة جداً.. لهذا أنا متفائلة.. ان نصر الله قريب.

اتفق حسام وميسون على تأجيل الخطوبة الرسمية واجراءات العقد إلى ما بعد تنفيذ واحدة من اخطر العمليات الجهادية المصرية..

سألت ميسون وهي تتطلع إلى يوم الخلاص:

- متى سيكون اليوم الموعود؟

- إنه قريب.. قريب جداً.. في شهر حزيران إن شاء الله، إنها عملية

حساسة جداً والمعلومات فيها.. يجب أن تكون دقيقة للغاية وأغلب
الأخوة لا يعرفون تفاصيلها.
وانطلقت ميسون تحلق في أرض الخيال عصفورة حرّة تطير في فضاء
سماوي فتري وطناً يرفل بالحرية وينعم بالأمان والسلام....

دجلة - 19

ميسون في طريقها إلى مرقد الإمام كانت ليلة جمعة.. الربيع يللمم بعض
أزهاره قبل ان يحرقها لهيب صيف قادم..
لأول مرة وهي تزور الضريح الطاهر تتخيل الإمام أنها تزوره سجيناً
في إحدى زنانات سجن المطبق الرهيب..
وقفت في إحدى الزوايا المرصعة بمئات المرايا وانسابت كلمات الزيارة
لتندمج مع همسات الزائرين.. هنا تمتزج الدموع والأحزان والأمانى
والأحلام والدعوات والأمل بغد أفضل.. حقاً أن أعظم ما يملكه فرد أو
أمة هو الإيمان وصدق الإمام الشهيد وهو يقول:
ما قيمة ان يربح الإنسان العالم كله ويخسر نفسه..
السلام عليك يا ولي الله وابن وليه السلام عليك يا حجة الله وابن
حجته..

السلام عليك يا نور الله في ظلمات الأرض..
السلام عليك يا امام الهدى.. السلام عليك يا علم التقى..

السلام عليك ايها الإمام الصالح

السلام عليك ايها الإمام الزاهد

السلام عليك ايها الإمام العابد

السلام عليك ايها المقتول الشهيد

السلام عليك يا بن رسول الله وابن وصيه

السلام عليك يا مولاي ورحمة الله وبركاته .

أشهد أنك قد بلغت عن الله ما حملك وحفظت ما استودعك وحللت
حلال الله وحرمت حرام الله وأقمت أحكام الله وتلوت كتاب الله
وجاهدت في الله حق جهاده..

وأشهد أنك مضيت على مضي عليه آباؤك الطاهرون الأوصياء
الهادون.. وأنك أديت الأمانة.. وأمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر
وعبدت الله مخلصاً حتى أتاك اليقين..

أتيتك يا بن رسول الله زائراً عارفاً بحقك لائذاً بضرحك مستشفعاً بك
إلى الله..

بابي أنت وأمي ونفسي وأهلي يا بن رسول الله أتيتك متقرباً بزيارتك إلى
الله تعالى ومستشفعاً بك إليه فاشفع لي عند ربك ليغفر ذنوبي ويدخلني
الجنة ويغفر لي ولآبائي ولاخواني واخواتي ولجميع المؤمنين والمؤمنات في
مشارك الأرض ومغاربها..

بدا أبو ميسون أكثر قلقاً عندما سمع بأن ميسون قد طلبت تأجيل الخطبة إلى وقت آخر وكان في قراره نفسه لا يصدق بأن ابنته ربما راجعت نفسها وأعدت التفكير في هذا الموضوع..

أراد ان يفتحها في الأمر. ولكنه فضل التريث لأيام أخرى فقد توصل إلى رأي نهائي وينتهي كل شيء بسلام.

حتى أنعام عندما سألتها عن السبب أكتفت بالقول: أنها اتفقت مع حسام في ذلك.. وكان موسم الامتحانات كافياً في تفسير هذا التأجيل الذي لم يكن متوقفاً..

ولم تكن أنعام على علم بما يجري في الآونة الأخيرة.. فحسام لم يفتحها في شيء ولهذا فقد كانت تخمن أن الأمر لا يعدو سوى الحصول على بعض الخرائط التي تحدد مواقع قوات الحرس الجمهوري...

تسلم حسام قبل أسابيع قصاصات ورقية مكتوبة باليد وبخط رديء إلا أنها كانت في غاية الأهمية لأنها تتضمن بعض تفاصيل عملية الدجيل التي كادت أن تضع حداً لمأساة الشعب العراقي.

بالرغم من اخفاقها إلا أنها أودعت بذرة الأمل.. حقاً ان الجماهير أقوى من الطغاة.. كان الثمن باهضاً جداً شرّد الكثيرون واعتقلت عوائل نساء ورجال وأطفال في سجن صحراوي واختفى آخرون.. عشرة آلاف شجرة مشمرة تم قطعها وسويت عشرات المنازل بالأرض..

وللمرة الثانية التقى حسام ذلك الشاب الذي زكاه المهندس أحمد قال
أنه اعتقل بعد تخرجه من معهد التكنولوجيا واطلق سراحه سنة ٨٢ .
التاريخ يشير إلى يوم الجمعة العشرين من مايس سنة ٨٤ كان حسام
جالساً مع أحد رفاق الدرب من الذين يعرفون بالتحضير لعملية ما، لكنه
يجهل طبيعتها.. قال حسام وهو يحدق في وجه صديقه الذي بدا كسماء
ملبدة بالغيوم:

- حاول أن تنظر إلى الوجه الآخر من العملة !

أجاب بألم:

- هذه ليست عملة يا حسام.. الحرب تزهق ارواح الاف الضحايا..
والمشائق تحصد مئات الشباب.. ارتفعت وتيرة الإعدام بعد هزيمة النظام
في خرمشهر.. كل من يعتقل يعترف من شدة التعذيب والبعض ينهار
بشكل خطير:

- تقصد يعترف على اخوته؟

- أبعد من ذلك قد يتعاون معهم.. يصبح وكيل أمن يصعب كشفه..
شعر حسام بشيء ينغز قلبه ولأول مرة يشعر بالقلق راوده شعور بأن
ذلك الشاب الذي زكاه المهندس أحمد ربما يحاول الاندساس بينهم
وكشف نشاطهم.. طرد حسام هذه الأفكار كما يطرد المرء ذبابة تحط على
انفه.. لهذا قال بثقة عالية وإيمان راسخ:

- ان شاء الله مابقى على نهاية المأساة إلا شعرة.

قال صديقه بلهجة فيها أسى ويأس:

- هذه المأساة لا تنتهي إلا برأس الطاغية صدام

قال وهو يمزج كلماته بابتسامة أمل:

- نعم يا صديقي.. إلا برأس الطاغية..

لم تحصل أنعام على أجابة مقنعة حول موضوع تأجيل الخطوبة والعقد..

وظل الموضوع أشبه ما يكون باللغز..

كانت ابتسامة حسام وهو يتحاشى الإجابة وضحكة ميسون أيضاً

عندما حاولت الاستفسار منها هو كل ما حصلت عليه أنعام التي اكتفت

باجابة شقيقتها بأن الموعد قد بات قريباً

في مساء يوم الجمعة ٢٥ مايس بدا حسام حزيناً قلبه فارغ لا يدري

لذلك سبباً.. ظل يتقلب في فراشه وقد اجتاحه احساس بالضيق كانت

شقيقته قد أوت إلى غرفتها في وقت مبكر لكي لا تتأخر على وقت

المحاضرة شعر بالحاجة للحديث.. لكن استحال رأسه إلى ميدان تجول فيه

خيول مجنونة تتناهبه شتى الأفكار.. وكانت مشاهد قديمة من الذكريات

تظهر وتنفجر كفقاعات في بركة إثر زخة مطر ربيعي.. وراحت الصور

تبدو وتختفي إلى أن ظهر وجه ميسون ملائكياً مفعماً ببراءة لا حدود لها..

وحيث غادرت الخيول المجنونة الوادي لينعم بالسكينة والسلام.. وفي

تلك اللحظات الغارقة بالطمأنينة غمضت عيناه لتفتحان على عالم الأطياف.. كانا يسيران معاً في طريق ريفي هو وهي وقد تشابكت الأصابع في توحد جعل منهما كياناً واحداً.. قد انصهرا في بوتقة حبّ سماوي واحساس بأنّ قدميه لا تلامسان الطريق وكانت الساقية التي ترافقهما تدندن بصوت هاديء كطفل يشدو.. كانا يسيران في طريق ليست له بداية وليست له نهاية لكنهما ينتميان إليه وانه جزء من الروح المتوحدة في عالم يمتد من الازل إلى الأبد.

دجلة - 20

ميسون واقفة تصلي في زاوية الغرفة ونسائم مابعد منتصف الليل تتسلل
برفق عبر النافذة وقد بدت شجرة البرتقال متألقة وهي تلقي ببعض
أغصانها المورقة على الحائط..

راحت تنظر إلى سماء صافية وقد بدت النجوم في أغوارها السحيقة
قلوباً تنبض بالحب.. ويكاد يخيل لمن يراها أنها تريد أن تحلق بروحها إلى
الملا الأعلى..

وتدفق في قلبها النابض حنان من ذلك الحنان الخالد الذي يترقرق في
القلوب الطاهرة.. وراحت تدعو لوالديها.. تستمطر لهما رحمة السماء
وبركتها.. وتألق وجه حسام تحيطه هالة من نور الحب فانسابت كلمات
الدعاء رقيقة مؤثرة وتهدج صوتها الهامس تدعو له ولكل أبناء العراق
الذين يواجهون فرادى وخلايا صغيرة نظاماً همجياً بربرياً .

كان قلبها يتفتح كزهرة ربيعية في ذلك السحر وتلاشت احزان غروب
يوم الجمعة ان منظر الغروب عادة ما يثير الحزن ولكن الأحزان تجتمع

كلها في غروب يوم الجمعة حتى عندما كانت طفلة لاتعرف من الحياة
سوى الفرح كانت تلح احياناً على والدها ان يقصدا دجلة في تلك الساعة
عندما يتلامس قرص الشمس في الأفق الغربي.. آه كم هي عميقة اسرار
الحياة.. والإنسان!!

لم تكن أنعام تجهل سبب تأجيل شقيقتها موضوع الخطبة فحسب بل
أنها لم تشعر بسفره إلى النجف.. ولقائه بشاب موفد من أحد مقرّات
المجاهدين في الأهوار..

لقد كشف له عن وجود جذوة ثورة حقيقية في الأهوار لقد تمكنت ثلثة
من أولئك الأبطال من فتح جبهة على البعثيين.. انهم بحاجة الى دعم...
تم اللقاء من خلال تنسيق مع المهندس أحمد.. لكن موقف حسام لم
يتغير، إن رصاصة واحد تطلق في بغداد أكثر دويماً من المدفع.. وان تصفية
أحد رموز النظام المجرم أجدى بكثير من قتل من يدفع بهم النظام من
شرطته وقوات أمنه ..

لهذا عاد إلى بغداد وهو أكثر قناعة.. لكن ذلك لا يمنع من يريد
الإلتحاق بالثوار في الهور فاليد الواحدة لا يمكنها التصفيق وعلى الجميع
العمل وبحسب الظروف للإطاحة بنظام العفالقة..

ميسون ترسل نظرات ساهمة عبر النافذة ولم تتبه إلى بدء المحاضرة ولم
تجد نفسها متحمسة إلى مناقشة الاستاذ حول اعتماد التقسيم السياسي

للعصور الأدبية في العهد العباسي .. وإن اعتماد التاريخ الهجري أجدى
بكثير في تقسيم الشعراء والأدباء .. لأنه تقسيم حضاري وثقافي مستقل ..
بدأ الجو مغبراً وقد ألقى بكآبته على النفوس، الابتسامة التي عادة ما
تشرق على وجه ميسون غابت فقد خامرها احساس غريب .. يقال ان
الحمام يستشعر خطر الزلازل قبل وقوعها ..
لو كان حسام شاهداً ورأى وجه ميسون في هذه الصبيحة لأدرك
اقتراب الخطر ..

كان أصحاب العيون الزجاجية قد انتشروا في جامعة بغداد.
فجأة دخل رجال غلاظ وجوهم بدت وكأنها منحوتة من الصخر من
شدة قسوتها .. توقف أحدهم عند ميسون ومدّ يداً غليظة إلى ضفيرة ذهبية
ليجرّها .. ولمحت ميسون اثنين يقبضان على أنعام وإيمان ..
أمر عجيب إن ميسون تبدو في كامل هدوئها تغمرها سكينه هل كانت
تتوقع ما حصل ..

غادروا الجامعة على عجل كانت ميسون تسير وسط أولئك الذئاب
كقمر محاصر بالغيوم أو حمامة وسط قطع من الذئاب قبل أن تصل السيارة
إلى مبنى مديرية الأمن العام عصبوا عينيها فحل ظلام دامس وغمرت
الظلمات مرثيات الدنيا لكن قلبها انفتح ببصيرة نافذة على عالم الحقائق ..
كل شيء في هذا العالم ثابت راسخ مغمور بالسكينه والجلال، ما أسرع أن

ينتقل الإنسان إذا كان مؤمناً من عالم الأباطيل إلى عالم الحقيقة؟!
الوحوش يقودون ميسون في مبنى غامض عبر سلام ودهاليز لتقف في
مكان موحش.. كحمل وديع في غابة ظلماء تملأها الذئاب.. راحت تتلقى
السياط من دون سؤال ولا استجواب لقد حدثها حسام عن «القاط
الخفيف»..

الضابط جالس في غرفته وأمامه ملف يقلب في أوراقه..
ميسون غازي..

طالبه في كلية الأداب جامعة بغداد سنة ثانية مواليد ١٩٦٦ .

السكن الكاظمية منطقة علي الصالح..

يملك الوالد محل بيع الحلبي الذهبية في شاعر النهر..

الأم معلمة..

دخل أحدهم وأدى التحية..

- سيدي..

رفع ضابط رأسه وراح ينظر إلى ميسون التي كانت تحاول ان تتناسك
من شدة الضرب.. وبالرغم من كل ذلك فقد بدت أميرة وقعت في الأسر،
استخرج بضعة أوراق وسأل من دون أن ينظر إليها:

- ما علاقتك بحسام!

- خطيبي..

- تكلمي..
- الجواب على قدر السؤال..
- فوجئ الضابط:
- زين منو مسؤولك بالتنظيم؟
- ..-
- ليش سكتي؟!!
- السؤال غير مفهوم.
- شعر الضابط بالتحدي..
- زين راح تفهمين السؤال بعدين..
- صاح الضابط.
- رائد عامر..
- وما أسرع ما دخل رجل بدين قاس الملامح شارب كث ووجه منتفخ
باللحم وعينان تقدحان شرراً..
- نعم سيدي..
- الظاهر ما افهمت اسئلتني.. خذها فهمها..
- نعم سيدي..
- دفعها إلى خارج الغرفة..
- يله ليج تحركي

بادر شرطيان يدفعانها بقسوة إلى غرفة أخرى

قال بقسوة:

- علكوها من شعرها..

- تخطفها الشرطيان وقاما بربطها من شعرها بقلاب في السقف..

- انهالت «الصوندات» على جسمها. كانت تحاول المستحيل لكي

تصمد فلا تصدر عنها صرخة ألم..

تفجرت الآلام في كل خلية من خلاياها.. أشار الجلاد فتوقف

الضرب..

- نحن نعرف كل شيء لكن اريد اعترافات حتى يكتمل التحقيق كانت

ميسون تعرف ان ما يقوله هذا النذل هو مجرد أسلوب للحصول على

الاعترافات..

راح يذكر بعض الأسماء ثم اخرج من جيبه بعض الصور:

- تريدن رؤيتها؟! قضيتك خطرة تنظيم محظور وسلاح.

راح يدور حول ميسون التي استعادت وعيها نظر إلى شعرها الذهبي

إلى قوامها وبرقت عيناه بالندالة:

- غبية.. لومو غبية ما اخترتي هذا الطريق.. انت جميلة وغنية.. منو

ورّطك بهذا الطريق؟

- الطريق الذي أسير فيه هو طريق الأنبياء..

واستحال إلى ثعلب ماكر:

- وهل الأنبياء يقبلون بخيانة الوطن!؟

- نحن نفدي الوطن بأرواحنا .

- بتقديم معلومات عسكرية للفرس المجوس!؟

- الشعب الإيراني مسلم ونحن أخوة بالعقيدة..

- بكلامك هذا تضحكين عليّ أم على نفسك..

..-

- لقد خدعوك.. فأنت تملكين ما يتسابق الرجال من أجله..

..-

وفي اليوم التالي اعترفت ميسون بعد تعذيب وحشي ثم وضعوا أمامها
عدّة صور تثبت اتهامها بنقل متفجرات وهكذا سيقّت إلى أحد الأبنية
المظلمة حيث تحتجز عشرات النساء والفتيات..

كان الجلاد يكشر عن انيابه ويصعقها بأن الشاهد من بينهم.. لكننا نريد
الحصول على خيوط أخرى...

الفرات - 19

اقتيد حسام من مدينة الطب المجاورة لكليته دفعوه إلى داخل سيارة تحمل اسم شركة مقاولات انشائية.. عصبوا عينيه بالقرب من مديرية الأمن... وفي تلك اللحظات لم يفكر في مستقبله وفي نيل شهادة البكالوريوس وقد كانت حلمه ووعدته الذي قطعه لأمه.. قفز وجهه ميسون وأنعام وايمان انه يخشى عليهن من الاعتقال.. انتابته الهواجس هل اعتقل أحمد؟

فالأسرار الخطيرة يتقاسمها معه فقط.. هل وقع خطأ؟! راحت وجوه الذين التقاهم وتعرّف عليهم تظهر وتختفي، مع كل وجه.. بضعة صفات عرفهم بها.. وتجسم له وجه رفيق كتاب ذلك الشاب الذي تعرّف عليه مؤخراً. انه رغم ثقافته العالية رغم إنه كان معتقلاً في سجون النظام لكنه لم يشعر ازاءه بالارتياح.. حتى إنه لام نفسه على ذلك فهو لم يشر في تصرّفه الشكوك كما أن أحمد قد زكاه بقوة وهو يعرف الشباب الدعاة في حذرهم.. إذن أين الخطأ؟

هل هناك اعترافات؟! إن الخلية تكاد تكون محدودة الارتباط.. منذ شهور طويلة جداً انقطعت جميع الاتصالات فالأخوة الذين هاجروا إلى خارج الوطن بدأوا يعلقون آمالهم على الحرب خاصة بعد الانتصار الحاسم في سنة ٨٢ واستسلام زهاء عشرين ألف جندي وقد كان والده أحد الذين سلّموا أنفسهم..

اقتادوه إلى مكان بعد أن صعّدوا به السلام أوقفوه.. فجأة احتوشته الذئاب كان أصعب شيء إنه لا يدري من أين سيضرب وفي أي جزء من جسمه ثم جاءتته ضربه عنيفة أسقطته أرضاً.. لا يدري كم مضى من الوقت عندما انتبه إلى نفسه وجد نفسه موثوق الأيدي والأرجل ولا يدري كم مضى من الوقت عليه عندما عاد إليه وعيه.

وبدأ الكيبل يفجر الألم على باطن قدميه وكانت الضربات سريعة متوالية وسمع من يقول بصوت أجش:

- حضره للتحقيق.

- نعم سيدي .

وبعد أن كف عن الضرب قال لحسام..

- لك أحسن تعترف قضيتك حولها للذيب.

لك والله يمزّك..

وبدأت جولة من جولات التعذيب وراح الرائد عامر يعوي كالذئب..
ادرك حسام لماذا يدعى هذا الجلاد بالذيب:
كلمات قصيدة سمعها ذات يوم وحفظها عن ظهر قلب تنبعث فيها
الحياة فكأنها تنشد من جديد وتألق وجه أمه كبدر في الظلام ..
آه أنها تنتظر عودته كما تنتظر عودة زوجها ولكن...
حين يفتش في الليل عن الأحباب..
ويقادون إلى حيث يقيم البعثيون الحفلة كل مساء في السرداب.
في هذه الأقبية تعيش وحوش كاسرة.. هنا يمارس مصاصو دماء
الأبرياء الجرائم باعصاب باردة بل انهم يتلذذون في ذلك...
هنا يقطعون الأيدي والأرجل هنا تنتزع الاظافر وتثقب الأقدام
والاكف بالدريل . هنا مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب
إنسان.. هنا يتجلى الكائن البعثي على حقيقته.. هنا يأكل الشرطي البعثي
رؤوس الأطفال .

كان حسام يشعر بالخدر يدب في جسمه المهشم لكن روحه ماتزال
قوية.. لقد اعترف لا بسبب همجية التعذيب بل لأن الاختراق كان قوياً..
- قضيتك منتهية.. إعدام..

قال حسام:

- أنت تبشرني بالشهادة..

- أنتم خونة خمينيين.

- أنتم الخونة.. كل الأحرار يعشقون السيد الخميني.. لأنه حرّر بلده

من الدكتاتورية..

- كلكم عملاء شلون تخونون بلدكم وتقدمون خرائط لإيران حتى

تحتل العراق..

- حزب البعث هو المحتل وهدفنا تحرير العراق وانقاذه من هذه

العصابة المجرمة..

- أبوك وين أسير بإسرائيل لو بإيران ها؟

- بالعكس والذي الآن يشعر بالحرية.. بعد ما تنظلي هذي الخدع على

الناس لو كان هناك إيمان بهذه الحرب ما سلّم الجنود بالآلاف.. والذي

اشترك بحرب تشرين ضد إسرائيل.. اخبرنا عن صمود لواء خالد بن

الوليد المحاصر.. ابيد اللواء كلّه ولا جندي عراقي واحد سلّم لإسرائيل..

اسأل نفسك ليش؟!

- هذا الكلام يخدع البنات من أمثال ميسون وأنعام و.. وايمان..

واطلق حسام آهة حبيسة ولاذ بالصمت فهو يعرف كيف يحاولون

استدراج المعتقلين للحصول على اعترافات بالمجان..

- لك هذا مهر تقدمه لميسون بدل ما تلبسها أساور ذهب تعطيهها قنابل

ومتفجرات..

- عرضت عليها اساور وقلائد.. رفضت..
- مجنونه.. ليش رفضت؟
- قالت لن اضع في يدي اساور ذهبية الا بعد أن نحطم القيود والسلاسل والأغلال..
- صحيح هذه مجنونة.
- او افكك أنها مجنونة.. هي اعترفت بذلك قالت حب الحسين اجنني..
- لسانك هذا يراد له كص..
- شنو تنتظرون..
- بعدين .. الآن نحتاجك تغني بعد ؟
- انتهت جولات التحقيق والتعذيب وكُشفت نشاطات الخلية.. واقتيدت ميسون وأنعام وإيمان إلى القبو الخاص بالنساء حيث تتراكم الظلمات بعضها فوق بعض وحيث يتجمع الظلم في سراديب مديرية الأمن العام.
- أما حسام ورفاق الدرب فقد أخذوهم إلى أقبية أكثر ظلمة واشدّ عذاباً..
- ومع ذلك فقد ابقى الجلادون القضية مفتوحة على أمل الامساك بخيط جديد أو الحصول على اسرار أخرى..
- اقتيدت ميسون وأنعام وإيمان إلى قبو في نفس مبنى مديرية الأمن

العامه.. القبو كان عالماً تتكاثف في الظلمات لا نسمة هواء تنفذ ولا شعاع..

وفي هذا العالم الموحش سطعت روح ميسون فأضاءت لمن حولها..
وجدت عشرات الفتيات والنساء اللائي اعتقلن لنشاط أزواجهن أو
اخوانهن كن رهائن حرب النظام الهمجي ضد شعب أبي..

ومنذ أن لامست قدماها المكان امتدت روحها لتعبر اعمدة القرون إلى
طامورة في سجن المطبق الرهيب حيث سجن الإمام موسى الكاظم .

كانت روح ميسون تستمد النور والعزم من ذلك الإنسان الذي قال لا
في زمن هارون في زمن يصلب الأنبياء.... في زمن رديء .

تعرفت ميسون على بعض الساكنين في هذا العالم الرهيب عالم لا تشرق
فيه شمس ولا يطلع في سمائه قمر.. ولا تومض نجوم..

أمر عجيب أنها لم تشعر بالسكينة كما تشعر الآن.. ان نبعاً من الحب
الاهي يترقرق في اعماقها فتألق عيناها بالأمل في غد مشرق تغيرت نظرتها
إلى الحياة.. هناك وراء جدار العمر يوجد عالم مفعم بالصفاء يرفل فيه
الإنسان بنعيم لا يزول..

أي حبّ صهر في بوتقته قلب ميسون؟! حتى حبها لحسام انما هو
انعكاس للحب الإلهي.. أنها لا ترى السعادة إلا في بحبوحة الرضا وعندما
يصفو القلب فإنه يستحيل إلى مرآة ينعكس فيها رضا الله أو إلى بذرة غافية

تستشعر دفاء الربيع فتصحو وتنمو وتشق طريقها الى السماء ان ميسون عاشقة.. أنها تهيم بحب خالد وعظيم...
أن من شهد تجربتها سوف يجزم أنها قد مسّت في الذات الالهيه.. أنها تستحيل إلى فراشة مبهورة بشموع الحب السماوي ولسوف تطوف وتطوف إلى ان تحترق من أجل هذا كانت سيات العذاب التي تتلوى في وقعها المعتقالات قد جعلت منها أكثر إيماناً واسمى حياً كانت تحلم بلقاء المحبوب.. فكان حبه لحسام قبس من ذلك النور الساطع الذي اشرق على فؤادها..

أنها تحاول أن تبث روح الثبات والتحدي في قلوب من ضعفن تحت وطأة الظروف القاسية.. سمعت ذات يوم وقد مرّت أسابيع وأسابيع إحداهن تقول :

- ياربّ بعد ما نتحمل هذا العذاب..

همست ميسون في أذنها برقة:

- اختي! اصبري - قولي الحمد لله ان مواجهة هؤلاء الظالمين شرف

كبير.. لا تدعي الضعف يتسلل إلى قلبك..

سكتت لحظات ثم قالت:

- أكاد أسمع الشهيدة بنت الهدى تشدو بهذا النشيد الخالد:

وراحت ميسون تشدو بصوت عذب مفعم بالحماس:

قسماً وإن ملئ الطريق بما يعيق السير قدما
قسماً وإن جهد الزمان لكي يثبط في عزمها
أو حاول الدهر الخؤون بأن يرش إلي سهما
وتفاعلت شتى الظروف تكيل آلاما وهما
فترامت سحب الهموم بأفق فكري فادلها
لن انشي عما أروم وإن غدت قدماي تدمي
كلأ ولن أدع الجهاد فغايتي أعلى وأسمى
اسلامنا أنت الحبيب وكل صعب فيك سهل
ولأجل دعوتك العزيزة علقم الأيام يجلو

تأثرت أم نجم وانخرطت في بكاء صامت، فدنت منها ميسون وقبلتها

بحنان..

كانت ميسون اصغر معتقلة في الموقف حتى أنعام تكبرها بشهور أربعة
وان كانت تبدو أنها أصغر بكثير فوجهها الطفولي ورقتها يوحي بأنها لم
تناهز الثامنة عشر..

نامت العيون في ليل القبو الطويل..

إلا ميسون العاشقة.. كانت تصلي صلاة الليل.. كان تسبح وتدعو..

دمعت عيناها وهي تدعو لوالديها..

وتطلب المغفرة لصديقاتها والخلاص للمعتقلين..

حتى رسى قارب الدعاء على شاطئء حسام فدعت له طويلاً.. كانت
أم نجم ماتزال مستيقظة تصغي إلى كلمات الصلاة وساقية الدعاء تنساب
بصوت رقيق فيمتلأ قلبها نوراً رغم حلكة الظلام.. تذكرت زوجها
الشهيد سهيل البطاط تذكرت حياتها الهائثة مع رفيق الدرب وشريك
الحياة.. آه لقد رحل بعيداً.. التحق بالذين رحلوا على خطى الشهيد
الصدر في الطريق الذي رسمه الحسين.. تذكرت كلماته وهو يودعها..
سأذهب الى كربلاء.. يجب أن نُلبي نداء الحسين.. هل من ناصر.. لبيك يا
حسين إننا قادمون.. قالت له: ولكن الحسين قد استشهد قبل مئات
السنين؟ قال: الحسين لا يموت.. انه مايزال يقاتل.. وكل أرض كربلاء
وكل يوم عاشوراء..

هوّمت عيناها وغمض جفناها لينفتحان في عالم أخضر مليء بالمرج..
عالم بلا حدود. عالم مفعم بنور عجيب لا ينتمي لنور الشمس ولا ضوء
القمر.. آه هذا زوجها سهيل يرتدي ابهى حلة وجهه يضيء.. ومن هذه ا
لعروس التي تزف إلى شاب نوراني.. آه أنها ميسون ترتدي حلة العرس
وثياب الزفاف.. كانت الأجل.. أين جمال الحوريات من جمالها وسحرها..
وامتدت يد رقيقة لتوقظها لصلاة فجر..

- سامية! سامية! انهضي حان وقت الصلاة:

وعندما فتحت عينيها رأت ميسون مستغرقة في صلاة طويلة..

غمرتها حالة من الحزن لهذه الحورية.. التي تصوم نهارها وتمضي الليل في الصلاة والمناجاة وربما راحت تشدو ببعض الأشعار في الحب الإلهي.. كانت سامية تفكر في الآ تقول لميسون شيئاً لن تذكر لها مارأت ان تعبير الرؤيا واضح وقد يحزنها ذلك كانت ميسون تأنس بالحديث إلى سامية.. تتحدث إليها وإن كانت تحجم في بثها ما يموج في قلبها ولكن أم نجم تكاد تقرأ في عينيها حبها لخطيبها حسام اسرت لها أنها طلبت تأجيل مراسم العقد والزواج الى مابعد تنفيذ العملية.. لم تذكر لها طبيعة العملية.. اكتفت بالقول: كان الهدف منها هز النظام الظالم.. كانت تتحدث لها بحماس شديد.. حتى جعلها تأسف أنها لم تشارك زوجها سهيل في جهاده وجهوده.. سألتها عن تنفيذ العملية قالت.. أنها كانت ناجحة لولا ذلك الخائن المهندس في المجموعة..

- من هو؟

- ليس مهماً معرفة اسمه.. لقد وشا بنا وكشف أمرنا .

جاءها صوت ميسون رقيقاً حنوناً..

- ها أم نجم.. صافنه؟ وين وصلت؟

- شفت أبو نجم بالمنام.

- خير انشاء الله..

- شفته لابس بدلة العرس.. وشفت شاب نوراني يزفون له عروس..

- عرفتيتها..
- نعم أعرفها..
- منو؟ اقارب جيران..
- العروس كانت جداً جميلة أجمل من الحوريات..
- لم تشأ أن تذكر لها من هي فقالت وهي تبتسم وتقلد لهجة أهالي الكاظمية:
- ما حگول منو هي!
- ليش
- لأن انت تعرفيها..
- أعرفها؟!!!
- نعم..
- يعني هنا ويانا.. من حقها تعرف.. هذا رأيي طبعاً .
- أخاف تقلق.. تحزن..
- ليش شنو تفسير الرؤيا..
- فسرتها انه راح تنحکم بالإعدام!
- اللّي يعدموها هذوله الامويين يكون لها وسام.. وسام الشهادة.. لازم تفرح .
- من كل گلبج هذا الكلام؟!!

- اي والله من كل قلبي

- زين شنو رأيج إذا كنت أنت العروس بالرؤيا؟!!

فوجئت ميسون وما أسرع أن عانقت سامية بحرارة وقالت:

- الله يبشرج بالجنة يا أم نجم..

كانت ميسون في ذروة السعادة ذلك اليوم لقد بشرت بالشهادة على

أيدي هؤلاء الأوغاد: لقد انبعث الامويون من جديد ليعيدوا ارتكاب

المذبحة ... مذبحة كربلاء .. سوف يكونون أكثر اجراماً لأنهم قتلوا زينب

العصر .. بل إنهم يقتلون حتى الأطفال .. إنهم أكثر ايغالاً في الجريمة .

دجلة - 21

لم تعد ميسون من الكلية.. كان قلبه فارغاً وهو يهمس خائفاً مع نفسه..
لماذا يشعر بالقلق ربما هي الآن في بيت خالتها..
كانت أم ميسون تعد طعام العشاء ومعها بناتها..
ادار رقم الهاتف لكن لا احد يجيب..
لو لم يكن يوم السبت لظن أنها قد ذهبت إلى زيارة المرقد الكاظمي..
ولكن..

علت طرقات على الباب فقد كف الجرس عن الرنين منذ الصباح
بسبب انقطاع الكهرباء.. لقد حجزت المولدة الكبرى لقصر الرئاسة منذ
شهور وزادت معاناة الناس.. وبدأت الأزمة الاقتصادية تلوح في الأفق..
أسرع أبو ميسون إلى الباب ليرحب باخته زوجته بادرها..
- وميسون..

- ليش هي مارجعت من الكلية
شعر أبو ميسون بالخطر..

- الله يستر.. بس لا أخذوها؟!!

- ها شنو أبو ميسون.

جلس الجميع صامتين حتى أصبح صوت الساعة الجدارية واضحاً..

تيك تاك تيك تاك ..

- هذا الخفت منه طحت بيه!! والله كنت كلش خايف

- الله كريم.. ممكن راحت مع صديقتها أنعام..

- لحد الآن ما صاير شي.. حتى لو ماخذها بالعلاقات والفلوس

نخلصها..

كانت كلمات خالة ميسون أشبه بطوق النجاة مما يعانيه من هواجس

ومخاوف.. قلبه فارغ تماماً لا يدري ماذا يفعل؟!!

نهض:

- وين؟!!

- عندي صديق يمكن استفسر منه..

كان أبو ميسون يفكر ربما هناك معها تحقيق من المنظمة الحزبية في

المنطقة..

أكد أبو سمير له ان ميسون غير موجودة هنا واقترح عليه أن يسأل عنها

في الجامعة ..

بطيئة هي الساعات.. ساعات الليل.. لم يغمض له جفن لا يدري من

يلوم.. تصوّرّها بين مخالب الوحوش أنّه يعرف مدى قسوتهم.. آه
ياميسون وطفرت من عينيه دمعة يتيمة..
وظهر عمود الفجر من خلال النافذة المفتوحة.. و شعر باستسلام
كامل للقدر..

مع صباح الأحد بدأت رحلة البحث الطويل لمعرفة مصير ميسون..
وكانت الحلي الذهبية.. الاقراط الاساور تختفي من المحل وتتحول إلى
هدايا إلى هذا وذاك من الأوباش والأوغاد لمعرفة مصير ابنته .
وأخيراً حصل على خبر وجودها في معتقل مديرية الأمن العامة.. ألا
يمكن لقائها؟

- مستحيل احمد ربك أنها ماتزال على قيد الحياة .

بحث عنها ليل نهار.. لم يترك مكاناً وإلاً وسأل عنها لم يترك شخصاً
يمكن ان يعرف منه مصير ابنته إلا واتصل به.. إلا وقدم له هدية.. كاد
يفقد عقله من ضغط الاجهاد.. كانت زوجته تدعو ليل نهار لأن ينقذ ابنته
وها هو الآن لم يحصل إلا على خبر وجودها حيّة في موقف الأمن العامة...
كان بعض الأوغاد يندعونه يتظاهرون بأنهم قد يساعدونه للحصول على
الهدايا حتى الأشياء الضرورية التي اعدّها لابنته استلموها منه لكنها لم
تصل إلى ميسون وظلت ميسون دون أي خبر عن أهلها... .

كانت ميسون تدعو الله للقاء والديها لكي تودعها قبل الرحيل.. لكي

تطلب الغفران منها لما سببت لهما من القلق والأرق والعذاب..
كانت سامية تشعر بالاجلال لهذه الفتاة التي تبدو عليها آثار النعمة
والحياة المرفهة كيف احتفظت بابتسامتها في جحيم الأمن..
جحيم انهار فيه رجال ورجال كيف تأتى لزهرة رقيقة أن تصمد بوجه
الزمهرير..

ماذا يفعل الحب بالقلوب.. مرّة شاهدها واقفة كالتمثال ترسل نظرات
ساهرة تخترق ليس الجدران الأسمنتية بل إلى ما هو ابعد من ذلك.. أنها
تخترق السحب والغيوم وتعبر السموات.. كانت تتمتم بكلمات الدعاء
والمناجاة وما أكثرها.. ثم راحت تترنم بأشعار عاشقة:

فليتك تحلّو والحياة مريرة
وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر
وبيني وبين العالمين خراب
وهملت عيناها بالدموع وهي تناجي الله بصوت عذب:
- الهي من ذا الذي ذاق حلاوة محبتك فرام منك بدلاً.
ومن ذا الذي أنس بقربك فابتغى عنك حولا
إلهي فاجعلنا ممن اصطفيته لقربك وولايتك
وأخلصته لودك ومحبتك
وشوقته إلى لقائك يارب.

قالت سامية:

- أتجيبه بقدر ما يجبك ؟

تساءلت:

- منو تقصدين؟

- حسام ليش أكو غيره .

توردت وجنتها وابتسمت ولاذت بالصمت.. وكان صمتها ابلغ من

كل جواب..

الفرات - 20

كانت أم حسام ما انفكت تسأل ابن الجيران الذي طرق الباب في الليل.. فليس من عادة الناس القيام بذلك إلا لأمر هام..

- خالة أم حسام ردت اسأل عن اخبار حسام .

- يمه صاير شي؟!!

- لا زائرة

- جيتك بهذا الوكت؟!!! گلي إذا صاير شي!

- زائره هذا الحچي وكلامي لا يطلع من البيت... اليوم وصل استفسار

من أمن بغداد يسألون عن حسام وأنعام..

- استفسار.

- طلبوا أسماء أقرب أصدقائه.. ذكرنا بالجواب أن والد حسام أسير

من.. خالة آگول ماكو خبر عنه؟

- يمه وصلت رسالة صحته زينه وطلب صورة لحسام بالصدرية

والسماعة، چان بس يتمنى يشوفه دكتور.. الجای لا يبرد يمه.. امك

شلونه؟

- بخير

- ابن حلال يمه .

- هذا واجب . بالافراح خالة انشاء الله تكحلين عيونج بشوفة حسام

وأبو حسام..

- سلمنه على الزايرة .

- عليكم السلام..

* * *

حسام جالس القرفصاء ضمن الجالسين فقد وصل إليه الدور في الجلوس ، الموقف يضيق بهذا العدد الكبير بحيث اتفق المعتقلون لأن ان ينقسموا إلى ثلاث مجموعات .. مجموعة تنام ، تنهض مجموعة للوقوف اما الواقفين فيجلسون ثم يخلد الجالسون للنوم وهكذا...

وبالرغم من الضيق الشديد فقد انساح ذهنه بعيداً عن هذه الجدران الكونكريتية القاسية ..

لقد مرّت عليه أسابيع لا أكثر لكنه يشعر أنّ الزمن هنا يختلف تماماً فهو يمرّ ببطء شديد .. إنه يشعر بأنّه لبث في هذا المكان سنين طويلة ..

الزمن في مدينته الصغيرة الغافية على النهر يمرّ كالسواقني والجداول .. له وقع الخريز ونبض القلوب العاشقة ..

وعندما التقى ميسون اكتسب الزمن لونا آخر ونكهة أخرى اصبحت

دقائقه كفراشات ترفرف فوق مرج مليء بالزهور..
أحياناً تغمره حالة من العشق تحلّق به بعيداً إلى أجواء وآفاق مليئة
بالصفاء.. وعندما تجنح به الآمال فإنّه يفقد شعوره بالزمن ويلج كيانه إلى
عالم خارج الزمكان..

إنه امتحان صعب، كل هذه الأهوال مرّت عليه في سبعة أيام وثمانية
ليال بل ليل طويل.. وجد نفسه فجأة وجه لوجه أمام قطيع مخيف من
الذئاب وتجلّى له الوجه الحقيقي البشع لنظام البعث..

في أيام معدودات رأى ما لا عين رأت ولم يخطر على قلب بشر..
الضلوع المهشمة.. والأجساد البشرية المعلقة بالمرابح السياط
والكييلات.. الصعقات الكهربائية الآتية من أرضية الغرفة المنقوعة بالماء..
الجياح الظامئين الوجوه المحروقة..

والأكف المنزوعة الأظافر. الأوصال المقطعة.. أحواض الزيت
وأحواض التيزاب.. خبراء في التعذيب مستوردين من الخارج هذا هو
الشرف البعثي..

أحياناً تساوره شكوك في مصداقية أفلام شاهدها تتحدث عن غزو
كائنات فضائية متوحشة ترتدي اهاب البشر أما في حقيقتها فلا تمّت
للإنسان والإنسانية بصلة.. ان البعثيين يعيدون ارتكاب كل الجرائم منذ
فجر التاريخ البشري..

إن قابيل وقيدار ونيرون وهولاكو وجينگز خان والحجاج والسفاح
يبدون في براءة الحمام إذا ما قورنوا بهؤلاء النغول القادمين من مغاور إبليس
وأوكار الشيطان..

لقد صنعوا حياة جهنمية في بلاد الجنائن المعلقة انهم جنود الشيطان
الذي يريد الانتقام من الآدميين.. انهم يريدون سحق إنسانية الإنسان.. إن
أعظم نعمة شعر بها في هذا الجحيم هو إيمانه الراسخ بالله وبعدالة قضيته..
أحياناً يتصوّر نفسه أحد أصحاب الحسين كما كان يفعل في طفولته في
التشابه.. وان راية أبي الفضل العباس تحفّق فوق هامته.. حينئذ يشعر
بنسيم يهب من تلك البقعة التي شهدت أعظم ملحمة إنسانية على
الاطلاق..

آه إن الحياة تكتسب قيمتها ومجدها بالكرامة والحرية..
وإن الإنسان الذي يرضى بالسلاسل والأغلال قانعاً بالحياة تحت نير
العبودية والذل.. لا قيمة له ولا قيمة لحياته..

من يموت في العراق لا يخسر شيئاً سوى قيوده.. كما هو العبد..
عندما انتصرت الثورة في إيران أحس بدفء شمسها أن تباشير الفجر
تلوح في أفق العراق وسيولي ليل البعث إلى الأبد.. وكان ما حدث في
الدجيل بداية النهاية ولكن.. كان للقدر كلمته والتاريخ مساره..
إن الساعة آتية لا ريب فيها.. وتصوّر مشاهد الرجال الأشداء وهم

ينسلون من بين أحراش القصب في الأهوار ومن فوق ربي الشمال ومن وراء الحدود وحينئذ تتهاوى أو ثان البعث ويسقط الصنم الأكبر إلى الأبد.. اليوم أو غداً.. ويشهد هذا الجيل أو الجيل الذي يليه ساعة الخلاص ويوم النصر..

وصل التطواف بأُم حسام أخيراً عند أبواب مديرية الأمن العامة في الجانب الشرقي من شارع النضال..

راجعت السكن فوجدت غرفتيها خاليتين واغراضها مبعثرة وراجعت الجامعة ولكن مامن أحد يجيب.. بعض زميلات أنعام يبدن دهشتهم..

حتى مدينة الطب لم تجد أحداً يشفي غليلها.. عادت إلى الكلية تطرق الأبواب.. ولكن دون جواب.. وفيما هي تعود وقد دمرها القلق... إذا بفتاة ترتدي حجاباً تصادفها في الطريق ويبدو أنها كانت تطارد خطواتها عن بعد، وبعد أن شعرت بالأمان اقتربت منها.. وقالت لها أنها زميلة لأنعام.. وأنها انقطعت عن الكلية ورأت في يوم السبت البعض يقتادونها إلى الخارج مع طالبة أخرى ثم نصحتها أن تراجع مديرية الأمن..

وها هي الآن وقد لاحت شمس صباح كئيب من فوق المنازل المجاورة لم تكن وحدها فقد وجدت عشرات الأمهات عند باب الاستعلامات.. وأطل وجه قاس الملامح يتوسطه شارب كث ينبئ عما يدور في داخله

من غلظة وقسوة وإجرام.. وخرجت كلماته كما يعوي الذئب..

- لا أحد يلغي يله اكتبوا عرايض.

وراحت إحدى الأمهات تتلفت يمينا وشمالاً عمّن يكتب لها عريضة..

امرأة جنوبية من اللائي هاجرن إلى مدينة الثورة مع مطلع الستينات

رسمت عاديات الزمن خطوطها في غضون الجبين وتجاعيد وجه حزين

يستر وراءه إرادة لا تلين وصبراً دفيناً يستمدُّ منه هذا الجيل ملحمة

التضحيات. أيه ثقافة صنعت هذا الجيل من الأمهات المهدد بالانقراض؟!

كانت أم حسام تراقب عن كثب ما تفعله هذه المرأة.. فجأة فتحت باب

مجاورة وخرجت فتاة في الخامسة والعشرين أو أكثر بقليل يبدو عليها أنها

موظفة في دائرة ما من دوائر الدولة.. وجدت المرأة العجوز في هذه الفتاة

المضيئة الوجه طوق النجاة فبادرت إليها وهي تضع قدمها في الشارع:

- يمة فدوه اروحلج.. أريد تكتبين لي عريضة!

نظرت الفتاة في ساعتها.. ارادت أن تعتذر لكن نظرات المرأة كانت

تتوسل بقوة جارفة أخرجت قلماً وقالت:

- حاضر ماما.. تفضلي.. اسم ابنك؟

قالت بلهفه:

- يمه أربع ويلاد مو واحد..

- الله يساعدك.. اسماؤهم..

- الأول دكتور.. اخذوه سنة الواحد وثمانين والثاني مهندس اخذوه سنة
الثنين وثمانين وثالث مهندس.. وهم اخذوه سنة الثنين وثمانين والرابع دكتورة
عمت عيني اخذوها ويه رضيعها سنة الواحد وثمانين..
سجلت الفتاة الأسماء وبعض العبارات والجمل في الاستفسار عن
مصيرهم ونظرت إلى المرأة في حيرة :

- ماما هذي عريضة رسمية.. انت متأكدة من الأسماء؟
أجابت الام بأسى:

- على بختج يمّه.. لعد شلون هذوله اوليداتي..
شعرت الفتاة بألم كما لو ان سكيناً تنفذ في قلبها..
- العفو حجّية وين تسكنون..

- يمّه ابمدينة الثورة..

ثم استدركت على الفور:

- مدينة صدام.

وعندما رأت دهشة الفتاة التي بدا أنها تشاركها في ألمها اشارت إلى امرأة
اخرى وقالت:

- تشوفين يمّه ذبيح العجوز.. عدها خمسة كلهم اخذوهم صارها سنتين
تروح وتجي.

أرادت ان تواصل حديثها لكنها كفت فجأة عندما رأت الفتاة تجلس

على عتبة الباب وتتنحب.. كانت الفتاة تذرف الدموع وكأن نبعاً حزيناً
يتفجر في أعماق الروح..

جلست أم حسام قربها وراحت تبكي بصمت.. نهضت الفتاة ودخلت
لتخرج بعد دقائق وقد استبدلت بدلتها والغت فكرة ذهابها إلى عملها كانت
تحمل معها زجاجة من الماء البارد.. وراحت الفتاة تصغي إلى قصص لا
تصدق عن شباب مثقف من حملة الشهادات يخنفون فجأة فلا يعرف عن
مصيرهم شيء وبين شروق الشمس وقيل الغروب قرأت الفتاة وسمعت
عشرات القصص الحزينة لجيل يقتل بصمت...

لم تشعر أم حسام بجنوح الشمس إلى المغيب كما لم تشعر بالرهبة.. فكرت
أنها يمكن ان تبحث عن جيرانها الذين نزحوا إلى الثورة منذ مطلع
السبعينات.. لهذا عرفتها بأنها تبحث عن ابنها الدكتور واخته الطالبة
بالكلية.. وسألتها عما إذا كانت تعرف منزل جيرانها في الثورة.. قالت الأم
التي وجدت لها اختاً غريبة قادمة من الجنوب.

- وصلتني خيّه على بختج.. عادتنا انروح نزور الكاظم.. المعذب في قعر
السجون وظلم المطامير..

وفي ذلك الغروب الحزين انطلق سرب من الأمهات إلى مدينة
الكاظمية..

دجلة - 22

كان أبو ميسون يحدّق في أرضية الصحن وقد خلا من الحمام الذي حلّق إلى اعشاشه هنا وهناك فوق الأواوين.. كان قد ترك زوجته داخل الحرم تؤدي مراسم الزيارة وتدعو الله سبحانه أن يحمي ابنتها ويصونها من كل مكروه..

أما أبو ميسون فقد غادر الحرم وراح يجول في الصحن وبدأ الناس بالتوافد لصلاة الجماعة وراء السيد حسين الصدر..
انضم أبو ميسون إلى صفوف الجالسين انتظاراً للأذان غمره احساس بالسكينة فكل ما يجري هو بعين الله..

ومن باب المراد كانت نسوة جنوبيات يتوافدن للزيارة وارتفع صوت الأذان بالشهادة لله الواحد الأحد خالق الكون والحياة والصلاة على رسول الله وآله الاطهار..

وفي مقابل الضريح كانت كلمات الزيارة تنساب كنهر هادئ:
اللهم صل على محمد وأهل بيته وصل على موسى بن جعفر وصي

الأبرار وإمام الأخيار ووارث السكينة والوقار والحكم والآثار الذي كان
يجي الليل بالسهر إلى السحر بمواصلة الاستغفار. حليف السجدة الطويلة
والدموع الغزيرة والمناجاة الكثيرة..

المعذب في قعر السجون وظلم المطامير ذي الساق المرضوض.. بحلق
القيود والجنازة المنادى عليها فوق الجسر الذي مضى شهيداً مسموماً
مظلوماً..

السلام عليك يا ولي الله السلام عليك يا حجة الله

السلام عليك يا نور الله في ظلمات الأرض

السلام عليك يا ابن رسول الله

السلام عليك وعلى آبائك .

السلام عليك وعلى ابنائك وعلى أوليائك

اشهد انك قد اقامت الصلاة واتيت الزكاة..

وامرت بالمعروف ونهيت عن المنكر وتلوت الكتاب حق تلاوته

وجاهدت في الله حق جهاده حتى أتاك اليقين..

أتيتك زائراً عارفاً بحقك موالياً لأوليائك معادياً لاعدائك.

وراحت عينا أبو ميسون ترنوان إلى تلك النسوة المتلفعات بالسواد وقد

اجتمعن في الصحن و جلسن قرب باب الرجاء مقابل الضريح يذرفن دموع

الحزن ويندبن بصوت شجي فلذات أكبادهن في ظلم مطامير البعث..

وكانت امرأة جنوبية قد اجتازت الستين تندب ابنها الذين اختفى منذ سنة
تسعة وسبعين فبدأ مهرجان الأمومة بصوت غاية في الحزن والأسى:
- هزيت مهد الوفه ولو لیت.. لو لیت وتنطريتك لمن ملّیت
ياضوه عیونی وشمعة البيت.. شمعة البيت خلصن سنینی اشعجب
ماجیت..

يا الولد یابنی..
وراح الانین یخبو.. فانطلق صوت آخر بصوت مترع بالأسى:
- خیه اعله بختج جابلینی..
إونتج اکثر یو ونینی..
های سنین تمطر ماي عینی..
ملت نهران یاخیه بدمعها..
وانبعث صوت أم ثکلی:
- امگابل یخیتی اگابلنج
وبونتی لتعدّه ونج
عینی المزن حدهن جزنج
إومن البچی اتغیر طبعها.
وتدفقت ساقیه حزینة لأم قد بّح صوتها:
- خیه الحزن وجّر بلفاد

راحوا من ايدي اثنين وويلاد
وسفه غضوا بيدين جلاّد
وهروش الغلب كلها كطعها.
واستأنفت الأناث انطلاقها بصوت امرأة أُخرى:
- اثنين الحج وشصار ما صار
وتلثه عدّي چنهم اگمار
ازرع وتاني اجني الاثمار
أم الدهر حاصد زرعها
وانبعث صوت أم مفجوعة ترى محنتها قد عمّت أمهات العراق، من
أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال الشرقي:
- والله ينجيه نكبع اهموم
كلنه شراکه انطیح و نگووم
يمته الفرج يطلع فرد يوم
و يتامنه ينشف دمعها
وراح أبو ميسون ينظر إلى السماوات وكأنه ينتظر نزول الفرج ويوم
الخلاص... إلهي أما لهذا الظلم من نهاية!!
اتجه قلبه إلى الراقد في الضريح إلى باب الحوائج.. وعاد إلى المرقد الذي
تظله آلاف المرايا هزّ الشباك وانتحب باكياً لقد عصف الزمن بحوريته

والقت بها العاصفة المجنونه في غمرة الأمواج انه يسمع أصداً تفرق...
شعر بالعجز التام والإستسلام للقدر انه لا يستطيع ان يفعل شيئاً سوى
التطواف لقد بعثر ما لديه على ذئاب هذه المدينة لكي يحمي ابنته من المصير
الرهيب .

دجلة - 23

في نهاية تشرين الأول من سنة ١٩٨٤ كانت ميسون تترقب حدوث أمر ما ان قلبها لا يخطف.. قلبها يحدثها انها قد ترى خطيبتها الذي مضت أربعة شهور على انقطاع اخباره... في ليلة الاثنين رأت في عالم الرؤى وجه حسام يبتسم ثم يختفي...

أطل صباح الاثنين بارداً برود الموتى... كانت ميسون حزينة وكانت سحب الهموم قد بدأت تتشكل وتغطي سماء قلبها الذي هوى النور وهفا نحوه... لقد ألمها كثيراً ان تسمع من تحاول عن غير قصد اثاره روح الفرقة والافتراق في مثل هذه الظروف حيث يوحد الصراع كل القلوب ويصهرها في بوتقه المواجهة ضد نظام همجي.

همست في اذن من تصغي لها أن المحنة قد عمّت وأن علينا أن نتحد جميعاً - فطريقنا واحد وغايتنا واحدة... وجاء صوت اجش ينادي على ميسون لقد اغلق ملف التحقيق نهائياً ورفعت قضية (مهر ميسون) إلى محكمة الثورة.

ساد الوجوم وجوه النساء وهن يشاهدن ميسون تنهض إلى حيث يحاكمها الجلادون.. كانت أميرة بالرغم من عبائتها الممزقة.. مرفوعة الرأس كانت تخطو... ولو كشف الغطاء لرأوا على هامتها تاجاً يتألق نوراً أنه تاج الكرامة الإنسانية.. إنه هبة الله للإنسان حيث لا يحق له ابداً التنازل عنه .

صعدت ميسون السيارة إلى ستقلهم إلى هناك .

راحت السيارة تخرق شوارع بغداد في ذلك الضحى الملبد بغبار كئيب.. سيارة خاصة تحمل صندوقاً مستطيل الشكل فهي عبارة عن سجن سيار يشتمل على عشرة زنزانات حديدية انفرادية يفصل بينها ممر ضيق جداً.. ولكل زنزانة باب صدئ وقفل كبير ورقم...

صعدت ميسون أولاً ثم تبعها أنعام وإيمان...

وعندما فتح باب السيارة ليترجلن كانت الشمس قد تقرب من كبد السماء وقد تكاثف الغبار .

ورأت حساماً يتقدم الشبان إلى القاعة الكبيرة دخلت المجموعة القفص الحديدي إلى يسار منصة التي سيجلس خلفها أقزام صدام لإصدار الأحكام .

كانت ميسون تشعر بالفرح للقائها خطيبها الحبيب و تعانقت العيون التي تألقت بدموع الشوق دخل رجل ضيق العينين يرتدي الزي

العسكري تعلق صدره النياشين ورتبته تشير إلى انه لواء.. نعم دخل اللواء
عواد البندر وخلفه اثنان برتبة مقدم و عقيد...
نظر رئيس المحكمة في ملف القضية ونهض محامي للدفاع من المتهمين
معين من قبل المحكمة فطالب رئيس المحكمة بإنزال أشد العقوبات بحق
هؤلاء الخونة!!

كانت الأحكام جاهزة ولا أحد يدري السرّ في تمسك ألام النظام
البعثي بهذه الشكليات.. وخلال دقائق لا أكثر حكمت محكمة الثورة
العسكرية على: أحمد عباس وتوت وحسام حميد وميسون غازي وحسين
هاشم ومحمد المّلي بالاعدام شنقاً حتى الموت حسب المادة ١٥٦ ألف من
الدستور المؤقت وعلى أنعام حميد وإيمان عبد الله بالسجن المؤبد وفق المادة
٢٥٧ و سبع سنوات على مهندسين .

تلقت ميسون حكم الإعدام على أيدي هؤلاء الأمويين بابتسامة
فالإعدام على أيدي البعثيين يعني وسام رفيع يتألق بنور الاستشهاد في
الطريق إلى الله... وهذا هو جوهر الخلود .

انتهت المحاكمة التي لم تستغرق سوى عشر دقائق فقط...
وودعت ميسون خطيبها بنظرات تشع بالحب والفضيلة والحنان.
كانت سيارة مسلّحة تنتظر لنقل ميسون وأنعام وإيمان إلى سجن الرشاد
الواقع على مشارف مدينة الثورة من جهة الشرق حيث يوجد القسم

السياسي الثالث أمّا حسام ومن معه من الشباب فقد نقلوا إلى مدينة
السجون في أبي غريب السجن المركزي حيث الأقسام المغلقة.
لقد مرّت خمسة شهور على افتراقهما لكنها عندما رأتها وجدته كما هو
لقد اصابه الهزال لكن عينيه لم يخبو فيهما ذلك البريق النفاذ.. وتشعان
بالشهامة والأباء....

ورأت مجموعة من أزام النظام أنهم يتشابهون في بدلاتهم الأنيقة
وشواربهم الكثة ووجوههم القاسية وعيونهم الغائرة هذه هي الكائنات التي
تحكم العراق.. لك الله أيها الوطن المقهور... كل جيران العراق ينعمون
بالحرية والأمان أمّا هنا فان الرعب يكاد يخنق الأنفاس.. هل يأتي يوم
تنزاح فيه الظلمات عن أرض العراق و تشرق على ربوعه شمس الحرية؟ آه
يا لدفء الأمان وجمال الأمنيات.... هل يأتي اليوم الذي تنطفئ به نيران
الحرب لقد مرّت أربع سنوات وماتزال النار التي أشعلها صدام متأججة
ولا أحد يعلم متى ستكف طاحونة الموت عن ازهاق آلاف الأرواح!!

كانت ميسون ترسل نظراتها إلى شوارع بغداد... كم هي حزينه الناس
يرتدون السواد حزناً على أحبة لهم رحلوا.. توقفت السيارة المسلحة أمام مبنى
سجن الرشاد ونزلت ثلاث فتيات احداهن تشبه حورية هبطت من السماء ..
حتى العباءة التي مزقتها سياط الجلادين لم تنل من هالتها كانت تبدو
أميرة سبية..

كان الجوّ بارداً ورياح تشرين تهبّ فتنفذ في الاجساد المرهقة حتى تصل في العظم.. لكن ميسون لم يبد عليها الانكسار ابداً الحب الالهي يمدّها بطاقة روحية لم تكن شعرت بها من قبل... قادت الرقيبة أم سفيان ميسون إلى غرفة فيها سرير واحد في القسم الخاص باللائحي حكم عليهن بالاعدام وهو القسم السياسي الثاني.

كان وصولها إلى الرشاد حدثاً ليس عادياً كل السجينات كن يتطلعن إلى وجه يفيض براءة ونقاء حتى السجينات في الأقسام غير السياسية كن ينظرن إليها في ذهول ومازاد في اعجابهن أنها دخلت بشموخ مرفوعة الرأس بالرغم من حبل المشنقة الذي يلتف على عنقها .

ولم تفارق البسمة وجه ميسون إن أعماقها تنطوي على عالم مفعم بالحب والنور والسلام وهذا هو سرّ ابتسامتها والهالة التي تحيط وجهها...

احياناً عندما يسرح خيالها إلى اسرتها إلى والدتها ووالدها وخالتها الحنون فان غيمة رمادية تعبر في تلك السماء وتحجب الى حين البسمة التي تطل كالبدر من عينيها النجلاوين... أنها تدرك عمق المحنة التي حلّت بوالديها وتدرك هول المأساة التي نزلت على اسرتها تشعر بالأسى آه لو يعلم والدها أنها لا تشعر بالأسف ولم تشعر بالندم لقد اختارت طريقها عن وعي تام فهي لا ترى الموت في حب الله الآ سعادة ولا ترى للحياة تحت حراب البعثيين الاوغاد قيمة.. لقد اغتالوا مجد الحياة اغتالوا كل الأشياء

الجميلة وحولوا جنان العراق إلى غابة موحشة لا يسمع فيها الإنسان إلا
نهيق الحمير ونعيق الغربان وعواء الذئاب أما الاحرار فهم أما يعيشون
مشردين أو رحلوا بعيداً أو يرزحون وراء القضبان القاسية.. لك الله
ياشعب العراق ...

تلقى أبو ميسون النبا الرهيب بعد أيام من المحاكمة فانتفض كالمجنون
يطرق الأبواب هنا وهناك وتمكن من لقاء مسؤول نافذ وعده بتغيير حكم
الإعدام إلى المؤبد لقاء نصف مليون دينار انه يقدم ماتبقى من ثروته لكي
يرفع حبل المشنقة عن رقبة ابنته الحبيبة...

وكان يسعى للقاء ميسون لكن دون جدوى فالمواجهة ممنوعة منعاً باتاً
انهم يجرمونه حتى من رؤيتها.. ولكن لا بأس سوف يتحمل كل شيء لقاء
الغاء حكم الإعدام... نعم سوف يتحمل كل شيء... أما ميسون فقد
أدركت إن ما تبقى لها من العمر ربما بضعة أسابيع وربما بضعة أيام.. لهذا
اتجهت بكل وجودها إلى المحبوب الأبدي وبدأت رحلتها الروحية في
سباق مع الزمن، إن ساعة الرحيل إلى الأبدية قد ازفت وعليها أن تستعد
لللقاء الحبيب حتى حباها لحسام إنما كان مجرد قبس من ذلك الحب الخالد .

تلقت أم حسام الخبر بصبر... أحياناً يربط الرب على قلوب الأمهات
ولقد شاء الله أن تبحث الأم عن فلذتي كبدها فتلتقي أمهات ثكالي وأرامل
وترى دموع اليتامى.. لقد اكتوت بنار المأساة وانصهر قلبها في بوتقه

الصبر.. وعندما أصبحت قوية بما يكفي جاء النبا في صدور حكم الإعدام
بابنها البكر وبالسجن المؤبد على ابنتها...

تلقت الخبر برباطة جأش كنخلة جنوبية تواجه عاصفة مجنونة.. إن
خيمتها في مهب الأعصار فعمود الخيمة يعاني من الأسر وابنها ينتظر تنفيذ
حكم الإعدام وابنتها سوف تمضي شبابها وعمرها وراء القضبان إن قلبها
فارغ... وفي مثل هذه الظروف الحالكة ينبثق بصيص من نور الايمان بالله
فتفتح نافذة الأمل.. وكل شيء انما يجري بمشيئة الله فالأرض جميعاً قبضته
والسماوات مطويات بيمينه ...

بعد أكثر من ستة شهور التقى حسام أمه في عناق طويل كانت تشمه
وتذرف الدموع وكان حسام يهمس بكلمات يعرف أنها ستنفذ في قلب أمه
المسكينة.. ومن الذي يمكن ان يحول دون اسم الحسين وكربلاء وما قدمه
الإمام من توضيحات وما جرى على زينب من المصائب والأهوال .

- يمه انت رضعيتني حب الحسين.... وهذا طريق أبو عبدالله وأبو
الفضل وعلي أكبر.. وزينب العقيلة..

راح يسألها عن أنعام وعن والده واخوانه نظر إلى وجه أمه فرأى عينيها
يطلان منها حزن ورأى الشيب قد غزا شعرها عرف ذلك من بياض
ثلجي لخصلة نفذت من اسفل الشيلة..

أما هي فقد كانت تتفقد كل جزء فيه لقد هزل كثيراً وغار ماء الحياة في

وجهه.. لكن دفء صوته وكلماته آه يا بعد روجي اراد أن يسأل عن ميسون
لكن الحياء منعه فعاد للسؤال عن أنعام فقالت الأم وقد أدركت ما يعتلج
في فؤاده .

- يمه مانعين عنها المواجهة.. البنات كلهن يريدون خاطرها ومحبونها..
بالنهار صايمة وبالليل تصلي.
تساءل بشيء من الدهشه :
- أنعام تصلي صلاة الليل؟!
- يمه يا أنعام.. ميسون أحچيلك عن ميسون.. ما خلوني أواجهه.. انشاء
الله.

ولمحت في عينيه دموعاً فقالت له ملاطفة:

- يا عيني على الحب!

ابتسم على الرغم منه:

- صايرة بغدادية!!

فرح حسام برؤية بعض الصور ومن بينها صورة له وهو يرتدي
الصدرية ويقوم بفحص أحد المرضى في مدينة الطب.. وهي الصورة التي
التقطت له بناءً على رغبة من والده...

* * *

أبو ميسون اشتعل الشيب في رأسه.. لقد تجمعت كل مصائب الدنيا
لتنصبّ على رأسه مرّة واحدة...

قبل اختفاء ميسون ظهرت بعض الشعيرات البيضاء التي لا تكاد ترى
في شاربه إلا عن قرب حتى صدغه لم يجروء الشيب على الاقتراب منه.. أما
الآن فقد غزاه الشيب واطلق لحيته التي ظهرت في مثل بياض ثلوج
کردستان.. آه ياميسون لقد انكسر ظهري فأنا اليوم مجرد أب ذرّف على
الخمسين يدور في شوارع بغداد هذه المدينة القاسية يطرق الأبواب يبحث
عن ابنته التي تخطفها الذئاب في ليل البعث الحالك..

ما يزال يتشبث بالأمال والوعود.. لقد وعده أحدهم بتغيير الحكم من
الإعدام إلى المؤبد مقابل نصف مليون دينار.. وها هو يحمل إليه نصف
المبلغ وبعد تغيير الحكم يحول إليه النصف الثاني...

مرّت قبل أيام مناسبة اربعين الإمام الحسين وقد ذرف الدموع
الغزيرة.. وهو يتصور ابنته في موكب السبايا وقد انهار الشمر عليها
بالسياط...

انهم يضعون حبلاً غليظاً على رقبتها ويجرونها فوق رمال الصحراء..
فتصيح وتنادي وتطلب الغوث.. لكن صرخاتها واستغاثتها تذهب مع
الريح...

الفرات - 21

سأل حسام والدته عن زيارة الأربعين هل عندها أخبار؟ قالت:
- يمه الناس تمشي للزيارة. شبان يردون لأهاليهم.. وشبان ياخذونهم
للسجن. يا هو الیصدهم.. الناس تصیح ابد و الله مانسى حسیناه..
طلب حسام من والدته أن ترسل صورته إلى أنعام.. بعد أن كتب
خلفها بعض السطور.. واكدت له والدته مرة اخرى أنها لن تخبر والده
بأي شيء مما حصل..

كان تشرين الثاني يللم أيامه الأخيرة ويبشر بشتاء قارس البرد...
جاء مأمور السجن على عجل يستحث والدة حسام على مغادرة المكان
فوراً... ان المحكومين بالإعدام لا يمكن لأهلهم من زيارتهم يمكن فقط
استلام الطعام والأشياء الأخرى ثم تسلّم للسجين..
لكن لماذا سمح هذا المأمور باللقاء.. لقد كان يعاني من حساسية جلدية
فكتب له وصفة طبية ناجعة.. وقد تأثر السجنان القاسي بأخلاق حسام
فكان يحاول اسداء بعض الخدمات له ولمن معه...

حضر أبو ميسون مع زوجته للمواجهة ولكن دون جدوى فالمواجهة ممنوعه وهناك تأكيد خاص من قبل مدير السجن حسن العامري الرجل الغليظ القلب.

لقد رفضت الرقيبة أم سفيان استلام المواجهة كانت مجرد بعض الطعام والثياب..

لهذا ظلوا ينتظرون ريثما تنتهي المواجهة فيسألان عن حالها وعن الأحوال في السجن..

لقد بعثر آلاف الدنانير بل مئات الآلاف من أجل تغيير الحكم وهاهو الآن يحرم حتى من اللقاء...

رياح تشرين تلفح الوجوه الساهمة وهي تحدق في باب السجن.. خلف هذه الجدران وهذه الأسلاك الشائكة تقبع ابنته وقلده كبده.. لقد مرت شهور طويلة وهو يحلم بلقائها برؤية وجهها المشرق وضحكتها الجميلة.. اخرج صورة ملونة من جيبه.. كان قد التقطها لها قبل شهر من اختفائها... ميسون جالسة على كرسي مصنوع من سعف النخيل في وسط حديقة منزلهم الكبير.. فبدت لأولؤه في بحيرة من المرج الأخضر تحيطها ورود الجوري والقداح كما ظهرت شجرة البرتقال.. التي تذكره بطفولتها...

راح ينظر إلى ميسون وكأنه يحاول ان يطفى غليل الشوق المضطرم في أعماقه أن يعوض عن احساسه بالحرمان..

فتحت باب السجن وظهر وجه الرقيبة أم سفيان.. لا يدري لماذا تقدم نحوها:

- رجاءً وصلي هذي الصورة لبتتي.. ميسون غازي
- خبرتك انه ممنوع المواجهة.

قالت أم ميسون وهي ترى محنة زوجها لقد عصف الدهر به حتى
أوشك أن يتوسل بهذه الساقطة:

- يعني حتى الصورة ممنوعة.. صار ست أشهر محرومين من شوفته.. على
الاقل سلمياها هذه الصورة حتى تعرف احنا جينا للمواجهة.. والله
حنموت من القهر..

شاب كلماته شيء من غضب مكبوت. مدت الرقيبة يداً غليظة
وأخذت الصورة من أبو ميسون ودستها في جيب بدلتها الداكنة.. كان
وجهها عابساً قمطيراً، إن قلبها ولاشك ليس سوى كتلة من رصاص..
بدأت الأمهات يغادرن السجن وقد فاضت اعينهن بالدموع ورأت أم
حسام رجلاً مع زوجته فأدركت انها قد منعا من المواجهة اتجهت إليهما
كانت أم ميسون تتحدث مع أم خرجت للتو.. قالت أم حسام:

...سودة عليه ماخلوني أواجه أنعام...

انتبهت أم ميسون والتفت إليها..

- حجية انت أم حسام!!؟

- أم ميسون؟ !

تركت أم ميسون هذه الأم الجنوبية تعانقها...

أما أبو ميسون فقد انسحب من المكان متجهاً إلى سيارته التي تكاثف

عليها غبار شهور عجاج طويلة...

هل تدرك الفراشات ان عمرها قصير بعمر الربيع فهي تمضي ساعات

النهار تطوف في الحقول والمزارع وتنتقل بين الورود بخفة؟! وهكذا ميسون

ربما كانت تدرك إنها لن تبلغ العشرين من العمر كانت في الثامنة عشرة من

العمر عندما تخطفها ذئاب البعث وألقت بها في هذا المكان الموحش.. لكنها

ظلت كما هي تنظر إلى الحياة كفراسة ربيعية..

أشاعت ميسون بهجة في هذه المكان الموحش فوجوه السجانين العابسة

وقسوتهم والظروف السيئة حولت هذا المبنى العتيد إلى جحيم لا يطاق..

ثم حلّت ميسون على قدر...

كانت تشتمل على روح عظيمة جعلتها تسمو فوق الآلام فإذا هي

تبتسم وتشرق ابتسامتها على الجميع...

لهذا كانت تنتقل بين الأقسام بيسر لأن عطرها انتشر في كل مكان..

حتى المعتقلات اللاتي جيء بهن لأسباب لا تمت إلى النشاط الديني..

عكفت بعضهن على إعداد حلّه الرحيل... فلا أحد يدري متى

تُستدعى لتنفيذ الحكم.. ولم تكن تلك الحلة عادية فهي عبارة سروال طويل من القماش الأبيض محكم النهايات وقميص طويل أيضاً ومانتو.. ثم تأتي مرحلة كتابة سورة «يس» ودعاء الجوشن والعديلة .
أحياناً كانت ترغب في المشاركة في ذلك العمل ولكنها كانت تمنع من ذلك، لقد عرفوا مبلغ عشقها السماوي فتركوا لها الوقت تستثمره في العبادة..

كانت تحفظ نصوصاً رائعة من الصحيفة السجادية.. فإذا قامت في الليل للصلاة انسابت المناجاة بصوت رقيق شجي... كانت ميسون أشبه ما تكون بفراشة تطوف حول شمعة الحب الإلهي.. ان وجهها يسطع نوراً.. انها على وشك الاحتراق..

ولهذا دبرت لها أخواتها في المحنة امر انتقالها إلى غرفة الهندسة لقربها من الحمامات بعد أن فاضت المجاري في القسم السياسي الثاني... ولم يكن الأمر يخلو من مجازفة ولكن ميسون تستحق التضحية...

كانت تعيش في قصر كبير كأميرة فتحت لها الدنيا أبواب حياة الرفاه.. لكنها رفضت إلا أن تكتوي بمحنة الوطن فاختارت الطريق الصعب اختارت الموت من أجل أن يجيا الوطن..

كانت مخلصه في حبها ولهذا كانت في غاية الرقة مع صديقاتها بل مع جميع الناس الطيبين وكانت قوية في مواجهة نظام همجي مدجج بكل

وسائل التعذيب والدمار..

فإذا هي ثابتة كالجبل قوية كالعاصفة طاهرة كقطرة ندى رقيقة خجولة
كوردة بنفسج.. كانت حورية شعرها يشبه حقول القمح عند اطلالة
الحصاد... وعيناها النجلاوان تفتحان على عوالم مفعمة بالصفاء...
بحيرتان من عسل مصفى ينهض على ضفافهما صف رشيق من النخيل وفي
قامتها كبرياء وشموخ الجبال فإذا تكلمت انسابت كلماتها كساقية من
الشهد فإذا رآها المرء حسبها حورية هبطت من علياء الفرووس..
يجلوها أحياناً أن تقف إلى جانب النافذة الصغيرة تنظر إلى النجوم في
أغوارها السحيقة.. كما تفعل في هذه الامسية.. اقتربت منها أم إيمان وهمست:
- ميسون ماذا تتأملين .

أجابت وعيناها تسافران في المدى البعيد البعيد:

- أتساءل مع نفسي متى يجين إعدامي لأعبد الله أكثر وأحظى بقربه
أكثر..

غمغمت المرأة :

- ويح نفسي أنا احسب العبادة تكليف وعبء ينتهي مع انتهاء حياة
الإنسان وهذه الفتاة تريد أن تعبد الله حتى بعد هذه الحياة!!
انسحبت وتركت ميسون في رحلتها عبر آفاق الوجود وجاء صوتها
عذباً رقيقاً وهي تشدو بحبها الخالد :

- أحبك يا بديع الكون.. يا تسبيحة الزمن...
وبي شوقاً إلى مرآك.. في الأحشاء يحرقني..
أحبك يا صباح الروح يا أنسي لدى الشجن..
كانت السكينة تغمر المكان وكان صوتها كجدول يدندن يملأ وادي
الوجود بصوته الرقيق...

- لأنك في دروب العمر بالحسنى ترافقني..
وتسمع صوتي الواهي وحين أزلُّ تدركني..
ولو ينسى وجودي الناس تبقى انت تذكركني..
ويتركني جميع الخلق لكن لست تتركني..
أحبك يوم ترأف بي على نعشي وفي كفني..
ويوم يهيل فوقي الموت نسياناً فيسترنى..
أحبك مدركاً اني على سوئي ستقبلني..
وتفتح بابك العلويّ وفي الفردوس تدخلني..
أحبك يا صباح الروح يا تسبيحة الزمن...
وتهدج صوتها وامتلات عيناها بدموع الشوق :
- إلهي من ذا الذي ذاق حلاوة محبتك فرام منك بدلاً؟!
ومن ذا الذي أنس بقربك فابتغى عنك حولا؟!
إلهي فاجعلنا ممن اصطفيته لقربك وولايتك !

وأخلصته لودك ومحبتك!

وشوقته إلى لقائك!

كانت الدهشة ماتزال مسيطرة على أم ايمان وهي تتطلع بعينين متعبتين

إلى ميسون تناجي حبيبها قالت وهي على وشك أن تغمض عينيها :

- ميسون !

- نعم

- عندي سؤال؟

- تفضلي

.. -

- أشو سكتي! شنو السؤال؟

- ماتخافين من الموت؟

.. -

- أنا أعتذر.. بس بصراحة نظرتك للحياة والموت ما مألوفة..

- زين كل هذه الأحاديث الواردة عن أهل البيت شنو فهمنا منها..

الدنيا ممر وليست مقر فخذوا من ممركم إلى مقركم خلقتم للبقاء لا للفناء..

اسمعي هذه الرواية.. جاء رجل الى الإمام علي الهادي عليه السلام .. أخبره أن

فلاناً قد نزل به الموت وهو الآن يحتضر ويبكي خوفاً، الإمام توجه إلى داره

وجلس قربه وراح يصور له الموت بهذا الشكل: إنسان يرتدي ثياباً رثة قد

تراكم عليه الوسخ أفلا يجب أن يدخل الحمام فيغتسل ويزيل عن جسمه
الوسخ ثم يرتدي ثياباً نظيفة؟ ثم أقسم الإمام قائلاً: والله هكذا الموت
فابتسم الرجل وأغمض عينيه..

أما إذا كان الموت شهادة فقد قال الله سبحانه ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا
فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ
فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا
هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ان اشرف الموت قتل الشهادة. و ما أعظم ان يقتل الإنسان
على أيدي هؤلاء الأمويين..

سكتت لحظات ثم قالت:

- صدقيني أحياناً أقول مع نفسي ماذا قدمت لكي احصل على مجد
الشهادة في سبيل الله؟! هل هذا كاف أم تريد المزيد؟! !

... -

- أم ايمان!!

همست وهي تبتسم...

- صار لي ساعة أخطب لوحدي.. راحت ادراج الرياح.. وجاءها

صوت فاطمة :

- أبداً كلماتك ستبقى خالدة.. خلود الشهداء.. وسوف يسمعها الناس

ذات يوم.

- حبيبي فاطمة حرمتك من النوم.. صحيح؟

وجاء صوت فائقة!!

- يابنات خلّونا ننام.

همست فاطمة:

- ميسون لاتنسي القصيدة.. يوم الجمعة مجلس عزاء بمناسبة وفاة النبي

والملاية كلثوم تريد قصيدة بالمناسبة .

قالت ميسون بصوت هامس:

- حاضر...

في قلب الليل سكينه تغمرها ظلمات متكاثفة وكانت السماء مرصعة

بالنجوم وقد غاب القمر... وقلما يصادف المرء سماء صافية في نهايات

تشرين الثاني.. لكن ميسون التي وقفت إلى جانب النافذة في تلك الليلة

الخريفية رأت آلاف الملايين من النجوم.. انسابت كلمات مفعمة بالحب..

كلمات مضمخة بالدموع.. تصاعد من قلب كسير تلقى الاشراق فأدرك

الحقيقة.. لا شيء سواه وحده...

وبدت النجوم قلوباً تنبض بالحب.. آه ما أجمل الكائن البشري وهو

يبحث في رحاب الوجود.. يمدّ كفيّه إلى نقطة تتجه لها بوصلة القلوب

العاشقة..

واصغت الكائنات لكلمات فتاة عاشقة هائمة في الحب الكبير..
العارفون العاشقون.. و العاشقون العارفون هم وحدهم من يعرف
اسرار الكلمات في اعماق الليل المترع بالظلمات.. وفي قلب السكينة.. من
أجل هذا ينفضون عن اهدابهم سنة النائمين فكؤوس الحب لاتنال إلا
العشاق..

يارب.. وتنساب كلمات مفعمة بالعشق الإلهي لتؤلف لحناً سماوياً يتألق
بالنور..

هذه السماوات المكتظة بآلاف الملايين من النجوم.. المجرات والسدم..
والشموس إنما هي جزء من ظلك الوراف يا إلهي! كل شيء خاشع أمام
قدرتك.. مستسلم لإرادتك.. تبارك اسمك..

وما الأشياء يا إلهي إلا ظلالك وما هي إلا انعكاس لجلالك وفيض
وجودك اللانهائي... وجودك المطلق الممتد من الأزل إلى الأبد..
قلبي بين يديك.. اجعله يا إلهي صادقاً مؤمناً عاشقاً والهأ ومتياً
بحبك..

اجعله يا إلهي مؤمناً بك وحدك.. املاً جنباته بنورك الذي أشرقت
الأرض واطءت له السماوات..

املاًه بفيض وجودك.. حتى لا أكاد أرى سواك ولا أرى شيئاً غيرك...
حتى نفسي.. أيها الحبيب...

أنت البداية وأنت النهاية..

وغمرتها قشعريرة سرت في جسمها كما يسري التيار الكهربائي.. لم تكن لبرودة الهواء صلة بما اعترأها فقد شعرت بأنها ترتفع عن الأرض... وتتخفف من عبء الحياه...

إنها تطوف بين النجوم.. وكانت تلهج باسم حبيب الله.. فتبلغ سدرة المنتهى.. أنها تكاد تلمسه وتشم فيه شذى الحب الالهي.. وان اسمه الجميل يغدو انشودة ترددها الكائنات في تلك الليلة التي بدت في ظلمتها راهبة في معبد واسع تتدلى من سقفه آلاف الملايين من المصابيح..

آه إنها ليلة الذكرى الحزينة.. يوم رحل السلام إلى الرفيق الأعلى.. فإذا الأرض مظلمة.. والآفاق تضج.. بعواء الذئاب.. إنهم ينسلون من مغارات الجهل والعنصرية والطائفية ويحاولون إعادة التاريخ إلى الوراء إلى عصور الهمجية..

وتنسب كلمات تشكو إلى الحبيب ما يفعل أعداؤه القدامى .

عزائي فيك يا نعم الرسول
وذكراك التي ليست تزول
وأشكو سيدي ظلم الزمان
وطاغ سام شعبي بالهوان
فبالاحزان دهري قد طواني

وبالحسرات دمعي قد كواني
فهاك اسمع بلائي يارسول
أنا في أمة فنيث عذابا
وطالت محنتي والقلب ذابا
ودمعي لم يزل جارٍ سكابا
لمن شكواي ابدى والعتابا
سواك اليوم اسمع يارسول

وفي اليوم الثاني أقيم العزاء على صاحب الذكرى وجرت الدموع.. آه
إن حرائر العراق سبايا تلهب سياط الجلادين أبدانهم.. وكان الغروب قد
تكاثف حزنه كعادته في كل يوم جمعة..

وقفت ميسون في الشبكة وهي عبارة عن مساحة من الأرض الخالية كفلاة
مقفرة يسمح السجنانون أحيانا للسجينات في الخروج إليها..

والساحة يحيطها جدار مرتفع من البلوك الاسمتي ثم أسلاك على ارتفاع
ثلاثة امتار لهذا لم يتسن لميسون رؤية الأشجار التي نبتت على مقربة من السور
حتى أشجار الكالبتوس السامقة.. ولم يكن لها هم في ذلك فقد كانت ترنو إلى
السماء كطائر سنونو يترقب ساعة الرحيل إلى أرض الربيع.. وتسلسل صوتها
العذب عبرة النافذة وهي تشدو في حضرة الحبيب..

فليتك تحلو والحياة مريرة

وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر
وبيني وبين العالمين خراب
ذهبت أم ميسون إلى منزل أختها وقد ترك أبو ميسون لها الحرية في أن
تمضي أوقاتها بعد سماعها بالنبأ كيف ما تحب .
أحياناً كانت تنطلق إلى زيارة باب الحوائج موسى بن جعفر فتقف في
باب المراد ذاهلة عن نفسها ثم تلج إلى الداخل وفي اغلب الاحيان كانت
تذهب إلى الزيارة ومعها ابنتها الصغيرة..
أما في هذه المرة فقد اثارت استغراب زوجها الذي أوصلها بالسيارة إلى
منزل أختها دون ان تصطحب أحداً معها..
عاد أبو ميسون أدراجه يجتر أحزانه ويفكر في سرّ ذهاب زوجته إلى
منزل أختها في هذا الغروب الخريفي البارد..
يقولون إن الخريف يثير الحنين والأشواق وكانت أم ميسون في الأيام
الأخيرة تتخيل طيف ابنتها وهي ترتدي ثوب الزفاف سعيدة تشرق
الفرحة من عينيها...
وعلى هذه الصور الملونة تغفو وتصحو.. اجتاحتها رغبة في أن تذهب
إلى منزل أختها حيث تحتفظ هناك بحلة العرس وبعض الاساور والاقراط
وعقد من اللؤلؤ..

تبادلت الاختان كلمات ودودة...

وضعت أمامها علبة كبيرة من الكارتون وصندوق صغير من الخشب..
فتحت أم ميسون الكارتون واستخرجت حلة الزفاف كانت ناصعة
البياض كغيمة رباب.. لم تحمل المشهد فاستغرقت في بكاء صامت.. آه يا
ميسون! ما أحلاك وأنت ترفلين في ثوب الزفاف!! .

همست ميسون في أذن فاطمة، أبدت رغبتها في رؤية حلة الرحيل.. لم
يكن لدى أي منهن ترحيب بذلك فرؤية الكفن أمر يبعث على الاكتئاب..
لكن نظرات ميسون التي أودعتها توسلات صامته كانت أقوى من أن
ترفض قدمت لها منديلاً مورداً فتحتة برفق واستخرجت حله الرحيل
البيضاء... كانت مطرزة بكلمات مقدسة. نشرت القميص فظهرت لها
آيات من سورة يس قلب القرآن الكريم..

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ * إِذْ أَرْسَلْنَا
إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ﴾..
﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ *
اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مَهْتَدُونَ﴾..

﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي
مِنَ الْمُكْرَمِينَ * وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا

مُنزِلِينَ * إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيِّحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ * يَا حَسْرَةَ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ ﴿١٠﴾.

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾.

﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٢﴾.

ثم راحت تتأمل في مقاطع من دعاء العديلة..

شهد الله أنه لا إله إلا هو وأولوا العلم قائماً بالقسط.. لا إله إلا هو

العزير الحكيم.. إن الدين عند الله الإسلام..

أشهد لمنعمي وخالقي ورازقي ومكرمي كما شهد لذاته وشهدت له

الملائكة وأولوا العلم من عباده بأنه لا إله إلا هو ذو النعم والإحسان

والكرم والامتنان.. قادر أزي عالم أبدي حي أحدي موجود سرمدني

سميع بصير...

أشهد أن الموت حق والميزان حق والكتاب حق والجنة حق والنار حق

وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور.. اللهم فضلك

رجائي.. وكرمك ورحمتك أمني..

تشفعت إليك بالنبى وآله.. وأنت أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين..

وانتقلت عيناها النجلاوان إلى كلمات من دعاء الجوشن:

لك الحمد يارب من مقتدر لا يغلب.. وذى أناة لا يعجل صل على

محمد وآل محمد وأجعلني لنعمائك من الشاكرين ولآلائك من الذاكرين
الهي.. كم من سحائب مكروه جليتها وسماء نعمة مطرتها وجداول كرامة
أجريتها...

الهي وسيدي كم من عبد أمسى وأصبح مغلولاً مكبلاً في الحديد بأيدي
العداة لا يرحمونه فقيداً من أهله منقطعاً عن إخوانه وبلده يتوقع كل ساعة
بأي قتلة يقتل... و غرقت الكلمات في الدموع فأخذت فاطمة برفق بطرف
من القميص فانفلت من بين أصابع رقيقة...

وتصوّرت ميسون والديها يطرقون الأبواب ويستعطفون الذئاب بحثاً
عنها وسعيّاً إلى لقائها..

وانتقل خيالها الوثاب إلى حسام خطيبها الحبيب الذي نهض يقاتل ومعه
ثلة من الشباب نظاماً همجياً لا يرحم.
قالت إحداهن تريد أن تدخل شيئاً من المرح..
- يا عيني على الحب !

توردت وجنتها حياءً فكأنها تفتحت وردة جوري على خدّها..
وأطرقت برأسها ولاذت بالصمت..

من يراها في رقّتها وحيائها واطراقتها لن يصدق أنها جابهت ذلك
الوحش تردّ عليه بشجاعة هي قبس من شجاعة زينب التي وقفت أمام
يزيد سلطان الشرق الأوسط تقول له:

- ولئن جرّت الدواهي عليّ يا يزيد مخاطبتك اني لاستصغر قدرك..
ولعل ميسون قد شعرت بروح العقيلة وهي تقول أمام الوحش
المدجج بوسائل التعذيب...
- إنّ طريقي هو طريق الأنبياء ..
إننا نفتدي الوطن بأرواحنا ..

أم ميسون تغرق وجهها في حلة زفاف ابنتها فتمسح اختها على رأسها
وتبكي بصمت كسماء تمطر على هون..

دجلىة - 24

تدهورت صحة أم ميسون بشكل سريع ولم تتمكن من مرافقة زوجها إلى سجن الرشاد فاضطر للذهاب وحده عسى ان يسمحوا هذه المرة باللقاء..

رياح كانون تلفح الوجوه.. وكانت ميسون تترقب هذه المرة يوم المواجهة فكان قلبها يحدّثها بقرب الوداع.. كانت تتأمل في صورة تحاول اخفائها عن الأعين... تعيد قراءة الكلمات التي حفظتها فتندمج الدموع بالكلمات كانت ميسون في غفلة عن النظرات التي تبادلنها انهنّ يدبرن مؤامرة لمعرفة ما في الصورة..

اقتربت إحداهن..

- ميسون نريد رؤية هذه الصورة...

توردت وجنتها وناولتهم الصورة راحت فاطمة تتأملها فتاة في ميعة ا لشباب تجلس على كرسي مصنوع من سعف النخيل في حديقة غناء تكشف

عن بيت فخم يشبه القصر فالحديقة كبيرة وقد ظهرت شجرة برتقال زاهية
الخضرة. وميسون تلوح بيدها وترسم شارة النصر تجرأت فائقة لتقول :
- أما زلت تعدّين نفسك منتصرة؟

- ولم لا نحن نسير في طريق الحسين... لقد هوى صريعاً وفي جسمه
عشرات الجراح ومع ذلك فقد انتصر... لأن الدم ينتصر على السيف..

تدخلت إحداهن وهي تشير إلى صورة أخرى في يدها !

- نريد تلك الصورة!

- أبدأ!

- سنأخذها بالقوة.. أنت لن تتمكني من منعنا .

- فكري جيداً وكوني فتاة عاقلة ..

- لماذا هذا الحرص إنها مجرد صورة؟!

- قولي لنفسك هذا الكلام !

وفي الأثناء كانت فائقة تتسلل من خلفها ثم تمدّ يداً خاطفة فإذا الصورة

في يدها.. وراحت الصورة تنتقل من كف .

- وأخيراً رأينا صورة الخطيب .

- صورة الحبيب

كانت ميسون تذوب حياءً .

هتفت احداهن وهي تقرأ السطور خلف الصورة:

- سمعن يا بنات .

وراحت تقرأ بطريقة مسرحية:

- ابكيك فخراً إن بكوك حداداً .

فجأة كفت عن الاداء وتغيرت لهجتها. لقد أثر فيها الموقف جلست على الأرض وسوّت خصلة من شعرها الفاحم وراحت تقرأ الأشعار.. فهذا الفتى هو الآخر عاشق على وشك الرحيل وهذه حبيبته أسيرة خلف القضبان.. تهّدج صوتها وهي تقرأ ماكتبه الحبيب إلى حبيبته:

- أبكيك فخراً إن بكوك حداداً

وأذوب فيك محبة وودادا

واطوف في دنيا الصباية عاشقاً

دقّ الهوى في قلبه أوتادا

فدمي إلى دمك الشريف مسافر

وخطاي تسبقني إليك جيادا

كانت الصورة تنتقل من كف لكف والكلمات تطوف بين العيون وتسيل الدموع.. كانت فاطمة أكثرهن إحساساً بالفجيعة.

آه!! أهكذا يجيا العاشقون؟! لقد كان بإمكان حسام وميسون أن يلتقيا ويعيشا جبهما.. ولكن جبهما كان كبيراً اتسع ليشمل الوطن.. كان في جبهما شيء سماوي يختلج في النفوس المؤمنة والأرواح الطاهرة.. نعم أحب

أحدهما الآخر.. ولكن في ظلال السماء.. عشق أحدهما الآخر ولكن في
أحضان الوطن.. وعندما حانت لحظة اللقاء أيبا إلا أن تكون في عراق
يستحم بشمس الحرّية..

آه أهذا ما كان يقصده شاعر العراق العظيم:

لو جئت في البلد الغريب إليّ ..

ما كمل اللقاء..

الملتقى بك والعراق على يدي هو اللقاء!

همست إحداهن :

- ميسون أتبقى هذه الرسالة دون جواب؟!!

قالت ميسون وقد ماجت في فؤادها المشاعر

- هل من قلم؟

وما أسرع أن بادرت آمال تبحث هنا وهناك.. وأخيراً عثرت على قلم

في الرمق الأخير كأنه ينتظر ليكتب آخر رسالة حب:

أمسكت ميسون بالقلم وشرعت تكتب فوق صورتها كلمات عاشقة:

- يا قلب لا تجزع إذا عظك الأسي

- فإنك بعد اليوم لن تتألما

ويا قدمي ماسرت بي لمذلة

ولا ترتقي إلا إلى العزّ سلما

فلا تبطني سيراً إلى الموت وأعلمي

بأن كريم القوم من مات مكرما

قالت فاطمة:

- هذه الصورة يجب أن تصل بأسرع وقت إلى أنعام .

قالت أخرى:

- ستسلمها أنعام إلى أمها في المواجهة.

- وأخيراً ستصل إلى حسام...

- الحبيب الغالي ...

- تورّدت وجنتاها حياءً..

آه ما أسماك يا ميسون.. ما أنبلك وأنتِ ترفلين بحلل من الفضيلة

والحب والحياء...

دجلة - 25

لم يسمح لوالد ميسون في لقاء ابنته وطل ذلك الأمر لغزاً.. لقد بعثر
أمواله على هذا وذاك وكأنه يطلب منهم أن يفرّقوا بينه وبين ابنته إلى
الأبد..

رفضوا استلام المواجهة كعادتهم في كل مرّة كان يحمل معه برتقالة من
شجرة البرتقال لقد اثمرت هذا الموسم برتقالة يتيمة حملها أبو ميسون إلى ابنته..
كانت تقول عنها أنها اختي التوأم... ظهرنا إلى الوجود معاً..
رقت الرقبة نورية وقلما ترق فأخذت البرتقالة..

أما هو فعاد أدراجه إلى منزله كسير القلب مهيض الجناح .
لم تكن ميسون ابنته فقط، كانت حبيبته، لقد أصبح له بعدها بنون وبنات
ولكن ميسون ظلّت كما هي ترربع على قلبه وها هي الآن تستعد للرحيل..
لا أحد يدري كيف تمكنت زهراء من اقناع الرقبة نورية في السماح
لميسون بمقابلة أم حسام.. عندما وقعت عيناها الكليلتان على ميسون
عانقتها بلهفة حتى أنها لم تفعل ذلك مع ابنتها أنعام.. مرّرت كفها المعروق
على حقل ذهبي قبلتها وملأت صدرها من شذاها..

قالت ميسون:

- عندي طلب يا خالتي .. أرجوك لا تردّيه:

- اطلبي بنتي والله أنا حاضرة افديج بروحي

- اشكرج خالة أريد تروحين إلى أهلي وتطلبين يدي رسمياً!

عانقت أم حسام ميسون وهي تبكي

قالت ميسون وهي ما تزال في عناقها:

- أرجوك لا تردّي طلبي .. لأن عاهدت حسام وأريد أوفي بعهدي.

مررت ميسون أناملها الرقيقة على دموع المرأة التي ستشكل بفلذة كبدها

وخطيبته .

- بنتي ميسون اشگول إلهم وما ندري يا ساعة .

- ارجوك خالة!!

- صار بعيني حبيبة...

أبقت ميسون البرتقالة فوق وسادتها تسنشق عبيرها، إن كثيراً من

ذكريات الناس الحلوة والمرّة أيضاً ترتبط بروائح ما..

تكفي ورقة كالبتوس أن تعيد المرء إلى الوراثة أربعين سنة وكان لميسون

ذكريات مع شجرة البرتقال التي تنهض في زوايا الحديقة.. كانتا تنموان

معاً.. وسوف ترحل عن قريب لكن شجرة البرتقال ستبقى ذكرى لها حياة

لوالديها..

تحاملت أم ميسون على نفسها واستقبلت أم حسام بترحاب يليق
بضيف يشاركهم المحنة..

على عكس أم ميسون كانت أم حسام تبدو قوية إنها تنتمي إلى جيل
الأمهات اللائي يرى في الحياة الذليلة أسوأ من الموت والموت الكريم أحلى
من الحياة..

جلس أبو ميسون صامتاً بعد ان رحب بضيفته التي كانت على وشك
ان تكون أما لصهره..

أم ميسون أيضا كانت ساكته وإن بدت في حال لا بأس بها ... في عينيها
حزن عميق وانكسار.. ان ابنتها البكر ميسون التي فجرت في أعماق أمها
نبع الأمومة وأيقظت في قلب والدها بحر الأبوة سوف تزف إلى الموت
غريبة لا أهل ولا أصدقاء احتفلت بربيعها التاسع عشر وراء القضبان
الصدئة وفي زنانات البعث المقرورة بعيداً عن الشمس والهواء الطلق
بعيداً عن دفء الأسرة.

قالت أم حسام وهي تتحاشى النظر إليهما:

- جيت أطلب يد ميسون لابني حسام .

راح أبو حسام يبخلق في هذه المرأة ربما أصابها مس من الجنون فهي تهذي
أو سيطرت عليها الأوهام.. ولكن لا شيء يبدو على محياها أبدأ لقد كانت في
كامل اتزانها تحيطها هالة من الوقار.. ولكن مامعنى هذا الكلام!!؟

أجهشت أم ميسون بالبكاء قالت:

- حطمت بنتي شبابها.. ضيعت نفسها.. شنو فايده هذا الكلام يا أم

حسام؟!!

هل تخبرها بأن ذلك كان رغبة ميسون وقد أصرت على ذلك، هل تقول

لها أنها قطعت عهداً لحسام وعليها أن تفي بوعدتها؟

- يا أم ميسون الذي صار قسمة والمكتوب على الجبين لازم تشوفه

العين.. نظرت سنين يا سنين حتى يكبر حسام واشوفه دكتور.. تاليها صار

اللي صار وجرى اللي جرى.. وإذا الله كتب له الشهادة يروح فدوة لأبو

عبدالله الحسين وياما راحت شباب بهذا الطريق...

السجون تغص بالشباب والبنات أنعام تگول: ميسون فرحانة والله

العظيم من شفقتها تذكرت سكينه..

- انت قابليتها؟!!

- إي والله مثل الورد.. طلبت مني ازورككم و...

- تفضلي حيرد الجاي أم حسام .

بذلت أم حسام المستحيل لتحبس دمعة انبجست من عينيها

المكدودتين، كانت تنتظر اليوم الذي تشاهد فيه ابنها حسام عريساً ولكن يا

لقسوة هذا الزمان.. زمان الذئاب...

رياح كانون تلمح الوجوه والأشياء بالبرد والصقيع.. كل شيء بارد
مثلج في ساعات الصباح وكانت السماء مثقلة بغيوم كابية.. وفي السجن
يكون الشتاء اكثر كآبة حيث يتلفع السجن ببطانية منزوياً في مكانه
منسحباً إلى داخل نفسه.. وربما يقوم بانجاز عمل ما يبطء بضاهي
السلحفاة...

أما ميسون فقد غادرت غرفتها.. تنشر بخفتها وانطلاقها الدفء..
وخارج أسوار السجن كانت السواقي ماتزال متجمدة منذ الفجر
والأشجار منكمشة والشمس منطفئة وراء جبال من الغيوم..
وتنطلق الكلمات تشدو بها ميسون كعادتها وهي تشيع اجواء الدفء في
القلوب حتى لا تضعف أمام المحن وعاديات الزمن :

- هاج شوقي للفرات

والنخيل الباسقات

انني آت قريباً

ليس يشيني الطغاة

لطالما سمعت بالذين هاجروا وحملوا السلاح من أجل الإطاحة بالطغاة
وتحرير الوطن.. لطالما رحلت عيون الذين يرزحون تحت نير الظلم
ويتأوهون من وقع سياط الجلادين.. إلى هناك إلى الأرض التي أشرقت
فيها الشمس أنهم قادمون يحملون معهم النهار.. والربيع والفراشات..

سوف يطردون جيوش الظلام.. سوف يبقرون بطن الوحش.. ولكن متى؟! متى.. انهم قادمون ولا شك يغنون للقائد الغائب والشاهد الشهيد .

باقر الصدر منا سلاما	أي باغ سقاك الحماما
أنت أيقظتنا كيف تغفو	أنت أقسمت أن لن تناما
كيف تنأى بعيداً ولما	يبلغ المؤمنون المراما
قد فقدناك زعيماً لا يجارى	فبكيناك دماً دمعاً سجاما
غبت عنا سريعاً ولما	يطرد الشائرون الظلاما
يا شهيداً قام فرداً	ينتضي للطفاة حساما
أنت كالسبط حسين	قد أبيت الحياة مضاما

دمعت بعض العيون وتندت للكلمات التي تتغنى بالرجل الذي قال: لا في زمن مثقل بالخنوع..

اقرب صوت خطوات ثقلية أنها الرقيبة أم سفيان التي أطلت بوجهها الصخري الجامد:

- هاي شبيهة ميسون.. فاتحة لنا إذاعة من الصبح.. هاج شوقي للفرات.. أريد افتهم انت اشجايج على الفرات.. انت من بغداد هو من الناصرية.. دجلة وين والفرات وين؟! قالت ميسون تحاول اغاظتها:

- معلوماتج بالجغرافية ضعيفة .. دجلة والفرات يلتقون ويكونون نهر واحد .
- أصلاً انت شايفه الناصرية .
- لا .
- زين منو جابج على الفرات .
- الفرات نهر خالد بقلوبنا.. تعرفين معنى كل يوم عاشوراء وكل أرض كربلاء .
- لا .
- تعرفين معنى لا أرى الموت إلا السعادة والحياة مع الظالمين إلا برما .
- لا .
- تعرفين معنى : هيهات منا الذلة .
- لا .
- بس شنو تعرفين ؟
- حاولت أن تتأر لنفسها:
- أعرف آني راح اتزوج ويصير عندي ولد اسمه ..
- سفيان؟ !
- نعم سفيان.. وأنت راح يعدموج بعد يومين ثلاثه..
- تعرفين شنو الفرق بيني وبينج .

- واضح انت سجينه وأنا حرّة طليقة .
- بالعكس . ان تخافين حتى من خيالك .. ترجفين من يجي مدير
السجن . أنا وقفت بوجه المجرمين .. الإنسان الخايف مايعرف معنى
الحرّية ..

- هذي فلسفة ماتفيدج .
- الفرق بيني وبينك أنا عشت حياتي مثل الفراشة عمرها قصير لكن
سعيدة بالحقول والمزارع والورد والأزهار ..
- وآني شنو عيني ؟

- انت مثل الرّكة .. تعيش مية سنة وكلشي ما تفتهم من الحياة ..
فرّت الرقبة نورية بعد أن علت قهقهات الفرح في القسم .
ثم تصاعد نشيد من أفواه الجميع وكانت السماء قد بدت مشحونة
ترسل الصواعق ويهطل المطر .

أنا كنت أعلم أن درب الحق بالأشواك حافل
خال من الريحان ينشر عطره بين الجداول
لكنني أقدمت أقفو السير في خطو الأوائل
فلطالما نصر الإله جنوده وهم القلائل
فالحق يخلد في الوجود وكل ما يعدوه زائل
سأظل أشدو باسم إسلامي وأنكر كل باطل .

كفت رياح كانون عن الهبوب لكأنها شعرت بالاعياء وساد السكون..
فجأة دوى الرعد فقطع أوصال الأرض.. وتدفق المطر غزيراً.. فتكاثف
مشاعر الغربة في روح السجين..

في ذلك المساء كان صوت ميسون ينساب رقراقاً وهي تقرأ دعاء كميل
كلمات علي في احدى سجدياته سجلها الشهيد كميل بن زياد الذي واجه
جلاد العراق في العصر الأموي الحجاج بن يوسف.. هاهي ميسون تقرأه
وقد واجهت جلاد العراق في القرن العشرين..

تصورت نفسها في ظلال آلاف المرايا حيث تمتت العاشقين القادمين
لزيرة ائمة الهدى من آل الرسول.. كان صوتها شجياً لأنه يتدفق من قلب
عاشق رأى الجمال المطلق وهام به هاهي تمدّ كفيها إلى السماء وتبتهل :
- أسألك يا الله برحمتك التي غمرت الأشياء في هذا الوجود المترامي..
نورك وحده الذي أوجد كل شيء.. فخرجت من ظلمات العدم
خالق الكون وواهب الحياة.

وأسألك يا الله بعظمتك التي تغمر الوجود وما جلال الكون إلا شعاع
من مجدك..

وما هذه الطبيعة إلا بعض فيضك..

أسألك بوجهك الخالد.. حيث كل الأشياء ماضية إلى الزوال.. وأنت..

وحدك الباقي..

تباركت أسماؤك..

أنت وحدك تعلم مواقع ملايين الملايين من شمس ونجوم وكواكب
في السماء.. وتعلم مستودع ملايين الملايين من البذور في الأرض.. وتعلم
يا إلهي ذرات الرمال الغافية في الصحاري .

أسألك يا إلهي بنورك الذي أشرقت به السماوات والأرض..
أيها النور الذي يغمر الوجود.. أيها الأول بلا بداية والآخر بلا نهاية...
يا من هامت بحبك قلوب العاشقين.. وطافت حول عرشك الأرواح
المتيمة..

إن قلبي يتفتح لتلقي النور الذي يشرق على الأفئدة
أنا قادمة إليك.. أرى تألق جمالك وبهاء جلالك..

إلهي خذني إليك لأنعم بالقرب منك.. وليسطع اسمك على قلبي..
إلهي هذه كلماتي مضمخة بدموعي وآهاتي يا رب عندما أسجد في
رحابك أشعر بالأغلال تتكسر وبالقيود تتحطم وعندما أتضرع في
حضرتك أشعر بكرامتي وإنسانيتي إن انسام حرّيتي تهب من سماواتك
ونور الكرامة ينبعث من نور عرشك.. فما أعظم مجدك يا إلهي وما أسمى
جلالك وأبهى جمالك!

منزه أنت في سماواتك وأرضك..

كل شيء يهتف باسمك ويدلني عليك.. أنت الذي غمرتني برحمتك

وحنانك منذ كنت جنيناً في بطن أمي وبرحمتك نفخت في من روحك..

وها أنا قادمة إليك فاقبلني واصفح عني لغفلتي

أنت يا إلهي وحدك الذي تراقب الوجود والحياة والإنسان

يا من تسبح القلوب العاشقة في بحار إشراقه

ويا من تطوف حول عرشه الكائنات

اغمرني بعطفك وحنانك

يا إلهي مالي أحد سواك..

هذا فؤادي بين يديك.. اجعله يا إلهي صادقاً مؤمناً عاشقاً والهأ ومتياً

بحبك أنت وحدك..

ونظرت إلى الأعلى نظرة نافذة اخترقت حواجز الزمان والمكان.. كانت

تعيش لحظات عوالم بعيدة.. لحظات ليست من زمن الأرض.. يتحرّر فيها

الإنسان من اغلال الطين وسلاسل المادّة.. فإذا البصر حديد وإذا الروح

تنفذ من خلال خلايا الجسد ويفلت القلب من بين قضبان القفص

الصدري. فجأه يغمر نور باهر الكائن الإنساني كما ترتفع الطائرة النفاثة

فوق جبال الغيوم فجأة تجد نفسها تستحم في ضوء الشمس..

وشعت هالة من النور أحاطت بوجه ميسون.. نور عجيب شفاف لا

يشبه نور القمر ولا ضوء الشمس إنه نور ينبعث من أعماق النفس المطمئنة

بالإيمان..

من يراقب ميسون في تلك الأيام يدرك أنها تستعد للرحيل، إن القلب لا يخطئ أبداً..

كان وجهها يتألق نوراً والفرحة تشرق في عينيها النجلاوين.. إنها على موعد مع الحبيب..

وجئت للصلاة في استغراق طويلة ملكت مشاعرها وضميرها وانطلقت الروح إلى حيث تحلق ارواح العاشقين..

آه ما أقسى هذه الذئاب أنها تدوس بأقدام غليظة على ورود البنفسج فتذوي شهيدة، آه ما أقسى هؤلاء الأوغاد انهم يعربدون ويدمرون ويسفكون الدماء ويزهقون ارواح الأبرياء.. في نفس اللحظات التي سخر فيها الشيطان من آدم وقد تناول من الشجرة المحرمة وفي نفس اللحظات التي قتل فيها قابيل أخاه وأهدي فيها رأس يحيى إلى سالومي.. وفي نفس اللحظات التي هوى فيها سيف ابن ملجم على هامة علي وارتقى فيها الشمر صدر الحسين..

آه إن ميسون عاشت في لحظات زمن أطلق فيها صدام رصاص الغدر على صدر العراق.. وها هي الجنة تفتح أبوابها لتستقبل قوافل الشهداء..

إن ميسون على وشك الرحيل إنها الآن في قافلة فيها ألف فتى وألف فتاة.. تتبعها قوافل وقوافل حتى يبلغ الكتاب أجله وحتى تنزل سورة النصر .

آه متى يحين موعد الإعدام لألتقي الحبيب؟!
سوف تصعد المنصة وعندما يضعون الحبل على عنقها تكون قد
انطلقت بعيداً تاركة وراءها رداء الطين.. ترفل بحلّة بيضاء كطيور
النورس تحلق فوق شيطان بحر من نور..

هناك ستنعم بالنور اللانهائي .

بسم الله النور

بسم الله نور على نور

بسم الله الذي هو مدبر الأمور

بسم الله الذي خلق النور من النور

الحمد لله الذي خلق النور من النور وانزل النور على الطور في كتاب

مسطور بقدر مقدور على نبي محبور

الحمد لله الذي هو بالعز مذكور وعلى السراء والضراء مشكور..

دجلة - 26

أفطرت ميسون على شربة ماء وكسرة خبز ونهضت للصلاة..
استغرقتها حالة هيام يذهل فيها العاشقون عن كل ما يدور حولهم من
صخب الحياة..

غمرتها حالة من السكينة.. كل شيء يلفه سكون مطلق.. حتى أنين
الرياح انقطع وصراخ المعذبين الذي يراودها أحياناً في خلوتها تلاشى هو
الآخر... ان روحها تسطع تتوهج لكأنها تريد النفاذ من خلايا جسم ينتمي
إلى الطين..

فاطمة وزهراء وكل اللاتي التقين ميسون منذ أربعين يوماً أدركن إن
ميسون تستعد للرحيل وهي في هذه الأيام تشعر بدنو الأمر.. لقد ازفت
الساعة أو أنها بلغت في عشقها مرحلة الفناء في ذات المحبوب.. إن ميسون
ستبقى لغزاً يستعصي فهمه ليس على الجلاّدين بل حتى على الذين التقوا بها
في هذه الظروف العصبية..

ميسون تترقب ساعة الرحيل بشوق!! أي فتاة هذه ما الذي رآته ميسون؟

هل اخترقت جدار الطبيعة إلى ما وراء الطبيعة فرأت ما فجر شوقها !
في تلك الليلة الشتائية ارتدت ميسون قميصها الأبيض الطويل المطرز
بالآيات وأوت إلى فراشها وعندما اغمضت عينيها إذا بهما تفتحان على
عالم لم تره من قبل ... تلال خضراء يغمرها نور شفاف.. وأنهار صافية
تنساب مياهها بهدوء.. وحائم بيضاء كالفراشات..
يحلقن كغيمة قطنية..

فتيات يرتدين حلاً ملوّنة من الحرير وأطفال صغار كالبلور
يمرحون..

كانت تخطر على أرض عجيبة أنها ليست من تراب أنها تنقل خطواتها
فوق الياقوت والزبرجد واللؤلؤ.. عالم يغمره الصفاء المطلق.. وفوق كل
شيء ذلك النبع المتدفق من السعادة في القلب..

ولمحت فتى واقفاً على ضفاف نهر يرتدي حلة بيضاء ويتمنطق بنطاق
ارجواني.. وعلى ربوة ينهض بناء من الرخام الشفاف المزين بالأحجار
الكريمة.. شعرت ان هذا بيتها وان هذه الحوريات طوع ارادتها.. وان
هذا الفتى..

- ميسون! ميسون!

- أنها لم تتناول فطورها.. غابت عن الوعي...

- ميسون! عيني.. حبيبي..

فتحت ميسون عينيها فرأت وجوه أخواتها في المحنة ينظرون إليها
بإشفاق..

- ما الذي تفعله بنفسك يا ميسون؟!

همست ميسون :

- كنت في رحلة.. كنت على وشك اللقاء...

لم تخبر ميسون أحداً بما رأت.. لكنها راحت تشدو بقصيدتها الأخيرة
أنها نشيد الرحيل .

- النور ملء عيوني

والحور ملك يميني

وكالملاك أغني

لجنة وعيون

لجنة وعيون

أرى الحياة متاعاً

ورحلة وصراعاً

فاخترت دربي بنفسي

وسرت فيه سراعا

فصرت ناراً ونوراً
وغنوة وعبيراً
حتى مضيت شهيداً
مرحّباً بالمنون

في جنة الله احيا
في الف دنيا ودنيا
وما تمنيت شيئاً
إلا أتاني سعيًا

فلا تقولوا خسرنا
ولتسألوا الأمس عنا
إن كان في الخلد خسرًا
فالخير أن نخسروني

هذي الجنان مراحي
وعطرها من جراحي
سحر وروح وراح

يا نفس أي رواح

جلّاسي الأنبياء

واخوتي الشهداء

والله يضيفي علينا

ظلال حبّ حنون

ظلال حبّ حنون

أجل إن ميسون تحترق بنار الحب الخالد .. الحب الكبير.. إنها في حالة

فناء تام...

آه... أحقا ما يقال ومن الحب ما قتل!؟

بعد اليوم لم تعد ميسون تنتمي إلى هذا العالم... أنها تنتمي إلى عالم آخر..

عالم تحلّق فيه الحمام البيضاء.. وتطوف فيه الملائكة وتخطر فوق أرضه

حوريات الفردوس...

أجل إن ميسون على وشك العودة... وكأنها من حوريات الجنة هبطت

إلى الدنيا ثم أنّ لها أن تعود إلى أرض الوطن..

أجل ستبقى ميسون لغزاً محيراً وإلى الأبد... وسيبقى اسمها مضيئاً..

كلما ولدت قصّة فريدة من قصص الحب الإلهي .

الفرات - 22

تراكمت الغيوم بعضها فوق بعض وبدا الجو مشحوناً بالآف الصواعق. ثم هبّت ريح شمالية باردة قطعت أوصال السحب حتى كادت الشمس أن تشرق قبيل الغروب. كان حسام في زنزانة يذرف الدموع ذكريات الأيام الخوالي فجرت ينابيع الحنين إلى الماضي.. لم يكن أسفاً على شيء إلا على والدته.. كم سهرت من الليالي؟ كم عانت.. كم شقت.. وعندما آن لها أن ترى ولدها البكر طيباً وكان ذلك حلمها ثم عريساً إذا بالقدر.. آه يا زمن.. كانت تحلم أن ترى أنعام ترفل بثوب العرس.. فجأة عصف الدهر بأحلامها وأمانيتها..

فجأة توهج وجه ميسون.. آه إنها الجرح الأكثر ايلاماً شعر بطعنة خنجر يغوص في أحشائه ويمزّقه. ما كان عليه أن يشركها في نشاطه.. فالقتل والقتال قدر الرجال وعلى النساء جرّ الذبول.

واشتعل صوت عبدالزهرة الكعبي وهو يروي مقتل الحسين.. فقام عبدالله بن عمير الكلبي من بني عليم وكنيته أبو وهب وكان طويلاً شديداً

الساعدين بعيد ما بين المنكبين شريفا في قومه شجاعاً فأذن له وقال: احسبه للأقران قتالا..

وأقبل إلى الحسين يرتجز وقد قتلها معاً.. واخذت زوجته أم وهب بنت عبد الله عموداً وأقبلت نحوه تقول: فداك أبي وأمي قاتل دون الطيبين ذرية محمد (صلى الله عليه وآله) فاراد ان يردها إلى الخيمة فلم تطاوعه وأخذت تجاذبه ثوبه وتقول: لن أدعك دون أن أموت معك.. فنادها الحسين جزيتم عن أهل بيت نبيكم خيراً.. ارجعي إلى الخيمة فإنه ليس على النساء قتال...

آه يا ميسون.. يا لأحلام الشباب.. كانا يحملان بحياة هائلة.. تذكر يوم جلسنا معاً وقد غمرتهما شمس الشتاء بالدفء.. وعدنا بأن يبني لها بيتاً على ضفاف الشط.. أما هي فكانت تفكر في الفقراء.. عندما يفتح عيادته سيعالج الفقراء مجاناً.. يعالج الأطفال الصغار.. ويعيد البسمة للأمهات..
آه يا ميسون.. ما كان عليه أن يقبل بمهر ميسون..

طوال حياته الجامعية لم يصادف فتاة في مثل نقائها وثقافتها ونظرتها إلى الحياة.. عندما حدثته أخته عنها عن طبيعتها عن تواضعها عن أنسها بالطالبات الملتزمات خاصه القادمات من محافظات الجنوب.. وعندما التقاها.. ما كان ليصدق أن هذه الفتاة الموسرة التي تعيش في بحبوحة من العيش تنطوي على ذات الهموم التي يكابدها بل أنها تفوقه حماساً.. وعندما

اخبرته أنعام أنها لاتزين معصمها بأساور من ذهب أو فضة ولا تضع في
جيدها قلادة سوى قرطين صغيرين في أذنيها بينما والدها يملك محلاً للحلي
الذهبية في شارع النهر ظل يفكر في أمرها..

لقد وجد شريك العمر ورفيق الدرب..

تمنى أن صلتها بالخلية كان في حدود صلة أنعام وإيمان.. لنجت من
حبل المشنقة.. ولكن ماذا بوسعه أن يفعل لقد كانت في اندفاع العاصفة.
قالت له مرّة :

- نحن نسير في طريق واحد لهذا لا اسرار بيننا سرّنا واحد وهدفنا واحد
ومصيرنا واحد.. نعيش معاً أو نموت معاً...

لم يرها سعيدة مثلما رآها بعد انجاز الهجوم على ازالام حزب البعث
بالمفجرات التي اسهمت في نقلها وايقادها الى النقطة التي اتفق عليها..
كانت سعيدة لأنها تستطيع ان تفعل شيئاً من أجل تحرير الوطن من نير
عصابة البعث اللاإنسانية .

فاجأته مرّة وهي تقول :

- لقد تشربت كلمات بنت الهدى وعشت تجارب الشخصيات التي
كانت تحلم الشهيدة بميلادها وكانت تطمح إلى رؤيتها.. ولهذا فقد كانت
اول من بادرت للتضحية والسير في طريق الشهيد الصدر... إنها قدوتي
لست وحدي في هذا الطريق الصعب.. في هذه اللحظات التي نجلس فيها

معاً هناك فتيات في مثل عمري يتعرضن لأقسى أنواع التعذيب.. أكاد
أسمع صرخاتهن تضيع في اقبية البعث المنحط..
علينا يا حسام أن نؤدي دورنا ونقوم بواجبنا.. ربما لا نستطيع إسقاط النظام
ولكن يمكن أن نزعزعه.. يمكن أن نسهم في إسقاطه.. ألم يقل علي:
الموت في حياتكم مقهورين والحياة في موتكم قاهرين!!
ألم يقل نجله لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برماً..
إذا كنا نؤمن بالشهادة حقاً فإن الموت لا يعني شيئاً أنه مجرد قنطرة ليس
أكثر..

سمع وقع خطى ثقيلة تتردد في الممر فانتبه إلى نفسه.. ووقعت عيناه
على اسم علاء ونجيب وأحمد وكاظم وعشرات الأسماء والتواريخ.. على
هذا الجدار يسجل العراق تاريخه الحديث.. هنا تكمن حقيقة شعب ينشد
الخلاص وهنا تكمن إرادته المكبلة.

ولكن ما جدوى هذه الأسماء؟ ما فائدة هذه التواريخ، أنها تشبه
ذكريات قديمة على جدران مدن منسية...

ها هو الدجال قد أحكم قبضته لقد أضحي قدراً جائماً وسوف تسيل
أنهار من الدماء.. وتسير قوافل من الشهداء قبل أن يتحطم الوثن ويحترق
العجل.

راح يدندن بقصيدة شعر حفظها قبل سنين :

لا تقل لي أنه مازال في العشرين عودي
لا ترغبني الصدور البيض أوقب النهود
لا تؤملني جميل العيش في القصر المشيد
فلقد واعدني ربي بجنات الخلود
لا تقل عن ضنك السجن وعن ثقل القيود
لا تخفني بالهراوات ومحامي الحديد
لا تقل عن غرف التعذيب عن نزع الجلود
إنه الدرب الذي يعرفني قبل وجودي
إنه الدرب الذي ضم رفاقي وجدودي
درب عمار وفي متنيه آثار الحديد
وبلال في بطون الرمل في القيظ الشديد
بالذي ردّ به التمار للطاغي العنيد
بوصايا الثائر المصلوب على الأعواد زيد
بصمود ابن جبير وهو محزوز الوريد
ما الذي تعرفه الأجيال عن حجر الشهيد
دربهم دربي ومما وردوا القى ورودي
فاشهدي يا هذه الدنيا ويا كلّ الوجود
قد رفضت العيش في ذل فذا عيش العبيد

ورضيت الموت لم أخسر به غير قيودي
ولعنت الدهر ان يورق إلا في لحودي
مرحبا بالموت فالموت على ديني عيدي
ودوت في ذاكرته أصداء الصدر الشهيد في نداءاته الخالدة:
إن الشعوب قد تصبر ولكنها لن تستسلم..
ولعل هذا آخر ماتسمعونه مني.. اني صممت على الشهادة...
فعلى كل مسلم في العراق وعلى كل عراقي خارج العراق ان يعمل كل
ما بوسعه ولو كلفه ذلك حياته من أجل ادامة الجهاد والنضال لإزالة هذا
الكابوس عن صدر العراق الحبيب وتحريره من العصابة اللاإنسانية..
وراح حسام يسبح في عالم الأحلام..
الدموع.. دموع الأبرياء.. ودماء الشهداء تؤلف نهراً عظيماً تندفع
امواجه كالاعصار يعصف بنظام البعث ويقذف به إلى مزابل التاريخ
وتشرق شمس الحرية على هذا الوطن المقهور..
آه يا ميسون هل سيكتب لنا لقاء ذات اليوم؟!
وسمع صوتاً قاسياً:
- حسام حميد!
وحيداً كان يمضي إلى قدره.. غريباً وسط قطعان الذئاب البشرية..
سوف يلتحق بالقافلة.. قافلة الحسين.. تتبعها قوافل الشهداء قوافل تسري

خلال الزمان وقد ملأت التاريخ اصداؤها...

اللهم انا نشكوا إليك فقد نبينا.

وغيبة ولينا

وكثرة عدونا

وقلة عددنا

وشدة الفتن بنا

وتظاهر الزمان علينا .

دجلة - 27

جثمت الكآبة على تلك البقعة المسورة بجدران اسمنتية وبالاسلاك
الشائكة، كما يجثم نسر على غصن ميت في غروب شتائي.. وتراكم الحزن
كما تراكم الغيوم الداكنة..
اختفت الظلال تماماً كان صباح يوم الأربعاء في أخريات كانون سنة
٨٥ كئيباً..

جثمت سيارة سوداء عند مدخل سجن الرشاد...
تسلم أبو ميسون بلاغاً من ادارة سجن الرشاد يتضمن تصريحاً
بـ «المواجهة»..

فجأة شع الأمل في عينيه أن جهوده لم تذهب أدراج الرياح.. لم يهدر
ثانية واحدة انطلق إلى شرق بغداد وكان قلبه قد طار إلى هناك، زوجته
مرتبكة واختها إلى جانبها تشدّ على يدها.. أخيراً سوف يتحقق اللقاء بعد
انتظار طويل... مئتان وخمسون يوماً.. خمسة عشر ألف ساعة.. ذابت فجأة
كما تذوب حبات الملح..

سرى خبر قدوم السيارة السوداء في جميع الأقسام.. فوجودها ينبىء عن وجود تنفيذ حكم الإعدام.. ولكن من سيأخذون ومن هو الضحية؟ هناك خمس نساء محكومات بالأعدام شيوعيات.. وقضايا تجسس.. ميسون هي الوحيدة التي حكمت بالأعدام في قضية نشاط ديني مسلح.. ترجل ضابط يرتدي بزة بلون الظلام.. سلّم ادارة السجن كتاباً يحمل اسم ميسون غازي الأسدي كانت ادارة السجن قد امرت باخلاء الأقسام لاجراء ترميمات فيها فتم جمع السجينات في قاعة «المواجهة».

مرّت الدقائق ثقيلة ثقل خطوات الرقبة نورية...

التي ظهرت بوجهها الجامد جمود الصقيع.. نادت

- ميسون غازي..

جرت العادة في سجن الرشاد عندما تحضر سيارة الأعدام وينادى على الضحية أن تبادر بعضهن لأخبار الرقبة بأن المطلوبة للحضور في الحمام.. وما أسرع أن بادرت فاطمة لتقول:

- ميسون في الحمام...

تلقت ميسون النبأ بوجه طلق يشع بالفرح.. لقد حان موعد اللقاء.. وما أسرع أن اغتسلت ميسون غسل الشهادة.. وارتدت حلّه الرحيل البيضاء أحكمت نهايات السروال جيداً.. لاتريد ان يبدو جزء من جسمها لأن البعثين عندما يشنقون الضحية ثم ينزلونها من المشنقة يقومون

بسحلها من القدمين عبر البلاط الاسمنتي..
وميسون تلك الفتاة الطاهرة تأبى أن ينكشف سترها.. ارتدت المانتو ثم
ارتدت عباؤها.. واستغرقت في الصلاة.. صلت ركعتين وقرأت آيات من
القرآن وراحت تناجي الحبيب..
وجاء صوت نورية يستعجل ميسون فانبرت إحداهن..
- أنها في الحمام..

كانت ميسون مستغرقة في الصلاة والمناجاة .
أسألك باسمك يا الله يا رحمن يا رحيم يا كريم يا عظيم يا عليم يا حلیم
يا حكيم سبحانه يا لا إله إلا أنت الغوث الغوث خلصنا من النار يا رب..
يا من له العزة والجمال يا من له القدرة والكمال يا من له الملك والجلال
يا من هو الكبير المتعال يا من شيء السحاب الثقيل يا من هو شديد المحال..
يا من استسلم كل شيء لقدرته
يا من خضع كل شيء لهيبته
يا من انقاد كل شيء من خشيته
يا من تشققت الجبال من مخافته
يا من قامت السماوات بأمره
يا من استقرت الأرضون بإذنه
يا من يسبح الرعد بحمده

يامن لا يعتدي على أهل مملكته

ياعدّتي عند شدّتي

يارجائي عند مصيبي

يامؤنسي عند وحشتي

ياصاحبي عند غربتي

ياغياثي عند كربتي

يا دليلي عند حيرتي

يابديع السماوات

يا جاعل الظلمات

يا راحم العبرات

يا محيي الأموات

يا منزل الآيات

يا أحكم الحاكمين

يا عماد من لاعماد له

ياسند من لا سند له

يا من كل شيء يسبح بحمده

يا من كل شيء هالك إلا وجهه

يامن إليه يهرب الخائفون

يامن إليه يفزع المذنبون
يامن في عفوه يطمع المخطئون
يانور النور
يانور كل نور
يانورا ليس كمثلته نور
يامن له المثل الأعلى
يامن له الآيات الكبرى
يامن له الأسماء الحسنى .
يامن له السماوات العلى
ياحبيب من لا حبيب له
يارفيق من لا رفيق له
يا انيس من لا انيس له
ياراحم من لاراحم له
يادائم البقاء
ياسامع الدعاء
ياحبيب الفقراء
ياكنز الاتقياء
سبحانك يا لا إله إلا أنت

كانت ميسون مستغرقة في صلاتها ولم تنتبه إلى ان القاعة تضحج بالبكاء..
وقد وقفت أخوات المحنة ينظرن إلى حورية ستغادر إلى الأبد .. ان حبلاً
غليظاً كثعبان هائل ينتظر رقبة رقيقة سوف يلتف ويخنق انفاسها وكانت
أصداء رعود بعيدة تأتي من بعيد .

نهضت ميسون شاخة بقامتها كانت البسمة تشرق من عينيها ووجهها
المضيء يشعّ فرحاً كان الوجه يسطع نوراً انها تقرب من الحبيب وما هذا
النور إلا انعكاس لنور السماوات . .

ميسون في وسط صالة «المواجهة» بقامتها الرشيقة وهامتها الشاخة..
عيناها تنتقلان من وجه لوجه أنها نظرات الوداع.. كل الوجوه حزينة.. إلا
وجه ميسون كان يشعّ بفرح بريء كوجوه الأطفال.. كوجه عروس في ليلة
الزفاف كان مشهد الوداع رائعاً ميسون في مركز الدائرة واخوات المحنة
تحلقن حولها.

حتى الرقيات كن يتطلعن إلى ميسون وقد صعدت على كرسي لتتخذ
من منبراً فلديها ماتقول في هذه اللحظات الأخيرة .

- لماذا كل هذا الحزن والبكاء

بعد قليل سأرحل إلى أرض الأمانى

هناك سألتقي فاطمة الزهراء.. وزينب الحوراء

ان بشائر النصر تلوح في الأفق..

وما هذه المحن فانها امتحان للمؤمنين
﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ
الصَّابِرِينَ﴾ وخطاب المؤمن للطاغية: ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي
هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ .

أخواتي:

لا تياسن فالحق أقوى من الباطل وما النصر الا من عند الله .

أخوات !

أرجوكم لا تتفرقوا لطول المحنة وكونوا يداً واحدة:

﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ ...

ولوحت بكفها ترسم شارة النصر .. وهتفت

- النصر للإسلام والموت لصدام.

برقت عينا الرقيقة بالشر وانسلت من بين الجمع نزلت ميسون لتودّع

أصدقاء المحنة واحدة واحدة كانت تمسح الدموع بأناملها الرقيقة وتعانقها

وكانت كلمات الوداع قصيدتها الأخيرة :

عانقت زهراء بحرارة وهي تشدو:

- النور ملء عيوني

والحور ملك يميني

وانتقلت كما الفراشة إلى فاطمة .

- وكالملاك اغني

لجنة وعيون .

وعانقت رجاء:

- أرى الحياة متاعاً

ورحلة وصراعاً

واحتضنت سعاد:

- فاخترت دربي بنفسي

وسرت فيه سرعاً

كلمات ميسون تندمج مع بكاء من وقفن للوداع..

الكلمات المندمجة مع النشيج تؤلف سيمفونية وداع فريد:

- فصرت ناراً ونوراً

وغنوة وعبيراً

حتى مضيت شهيداً

مرحباً بالمنون

وشدّت على يدي مريم وهي تشدو:

- في جنة الله أحيا

في ألف دنيا ودنيا

وما تمنيت شيئاً

إلا أتاني سعيّاً

وقبلت جبين كلثوم وكفكفت دموعها :

- فلا تقولوا خسرنا

فلتسألوا الأمسَ عنا

إن كان في الخلد خسر

فالخير أن تخسروني

وعانقت شروق:

- هذي الجنان مراحي

وعطرها من جراحي

سحر وروح وراح

يا نفس أي رواح

واحتضنت أنعام مسك الختام :

- جلاسي الأنبياء

وأخوتي الشهداء

والله يضيفي علينا

ظلال حبّ حنون .

كان الضابط ذو البزة السوداء يتميز غيضاً بسبب التأخير صرخ بأحد
أزلامه :

- أبو وداد!

- نعم سيدي.

- اشتتظر؟ ابن الكلب !

قفز أبو وداد كالجرذ لكنه ما إن اجتاز الدهليز إلى القاعة حتى استحال
إلى ذئب شارب كث وجسم مترهل وعينان تبرقان بالجريمة صاح بالرقبية
نورية .

- أم سفيان .

كانت الرقبية نورية تتطلع إلى مشهد الوداع..

ميسون توصي أخواتها برجاء:

- أخوات رجاء لا بكاء .

هتفت زهراء:

- صلوات على رسول الله محمد وعلى آله..

وانطلقت زغرودة شروق.. وتبعتها زغردات وامتزجت الصلوات

بالزغاريد...

وظهر الجلاد أبو وداد يحمل أساور حزب البعث كان في غاية الإنزعاج

بسبب التأخير وأثارته الزغردات فقال :

- يله اشطلعت هاي.. شنو عدنه؟ زقة عرس؟!
مدت ميسون يدين رقيقتين فوضع الجلاد القيد على المعصمين..
كان الضابط المسؤول قد بدا متأثراً لمشهد هذه الفتاة وهي تتقدم إلى
الموت في شجاعة..
في مكتب إدارة السجن، كانت الرقبة مي تفح في أذن مدير السجن..
غادرت بعد أن أدت التحية..
رفع مدير السجن سماعه التلفون..
- ميسون غازي. في طريقها إليكم..
حولت مراسم التوديع إلى مهرجان خطابي وهتفت بسقوط السيد
الرئيس القائد!!
عبرت ميسون الدهليز إلى ساحة السجن.. وقفت أمام ضابط المفرزة
بشموخ.
عادة ما يكون هذا المشهد على نحو آخر.. عندما تقاد الحكومة
بالإعدام فهي تمشي كسيرة ترمق الضابط بنظرات متوسلة وقد تبكي
وتتوسل بذل.. حتى الشيوعيات اللاتي كن يحاولن الظهور بمظهر
الصمود كن يتخاذلن في هكذا لحظات..
يا له من مشهد رائع.. ميسون برقتها تقهر وحشية النظام تلتفت إلى
أخواتها ترفع يديها عالياً تكوّر كفها اليمنى علامة القوة.. أنها قوة الحق..

وترسم بكفها اليسرى شارة النصر..

أجل يا ميسون!

سوف تنتصر قوة الحق على حق القوّة.

أجل يا ميسون!

سوف يسقط النمرود..

ولعلك رأيت مشهد سقوطه.. فأنت تنظرين بنور الله. ربما رأيت سقوطه في اللحظة التي قتل فيها الصدر الشهيد واغتال شقيقته بنت الهدى

أجل يا ميسون.. لعلك رأيت سقوطه منذ اعوام منذ اللحظة التي دوت فيها اصدااء الانفجارات في مؤسسات البعث المنحط.. ان الطغيان هو بداية النهاية..

ماذا يجري هنا؟! إن ميسون تقهر كل صخور القسوة في أعماق الرقبة أم سفيان.. إنها تبكي وهي ترافق ميسون إلى السيارة السوداء الجاثمة..

لوحت ميسون للمرّة الأخيرة لأخوات المحنة ورفيقات الدرب الصعب الطويل.. أشرقت ابتسامة ملائكية قبل أن تغيب داخل السيارة وهي تصغي إلى الزغردات والصلوات .

نفثت السيارة كتلة من الدخان الكثيف وهي تغادر مبنى سجن الرشاد إلى سجن أبو غريب...

وفي لحظات استحوالت قاعة المواجهة إلى مناخة كبرى وانطلق صوت
الملاية كلثوم:

ياكوكباً ماكان أقصر عمره
وكذا تكون كواكب الأسحار
إن الكواكب في علو محلها
لثرى صغاراً وهي غير صغار .

لمح أبو ميسون وهو يقرب من سجن الرشاد سيارة سوداء تغادر المبنى
العتيد.. نغزه قلبه وانتابه شعور غامض.. كان المكان موحشاً..
طرق على الباب بقبضته.. انفتحت نافذة صغيرة وأطل وجه كالح لم
يكن وجه الرقيبة أم سفيان..

قالت صاحبة الوجه الكالح :

- ماكو مواجهة ليش هذي الخبصة !
- استلمت بلاغ حول مواجهة ميسون غازي.
- ما عندنا سجينة بهذا الاسم .

تقدمت خالة ميسون:

- ست أم سفيان موجودة .
- راحت بمأمورية لأبو غريب .
- اريد مقابلة مدير السجن !

- ماكو مقابلات ..

- اريد مواجهة بنتي ميسون صار..

- بلا كلام.. ليش متروح لأبو غريب تسأل من أم سفيان..

اغلقت النافذة الصدئة وظل أبو ميسون جامداً في مكانه..

مرّت لحظات لا يدري ماذا يفعل انفتحت النافذة وجاء صوت :

- الحگ بنتك بأبو غريب..

ادرك على الفور ان السيارة السوداء كانت تحمل ابنته الحبيبة لتنفيذ

الحكم ولهذا قالت له الرقيبة: ما عندنا سجينه بهذا الاسم .

كانت أم ميسون تراقب من داخل السيارة ما يجري وسألت زوجها عن

ابنتها فاكتفى بالقول :

- نقلوها لأبو غريب..

كان أبو ميسون قد ترك محرك السيارة يدور للتدفئة فزوجته ماتزال

تعاني من ضعف شديد والشوق لرؤية ابنتها بعث في جسمها قدراً من

الطاقة وجاء بها إلى هنا..

انطلقت السيارة نحو أبو غريب.. إلى حيث يقبع في هذه المدينة

الفولاذية آلاف الأحرار الذين قدّر لهم ان يقفوا بوجه الطاغية..

كانت السيارة السوداء تسلك طرقاً ملتوية خارج المدينة وخيل إلى

ميسون أنها شاهدت قبة ذهبية و منائر فهاج بها الشوق إلى أرض

الذكريات.. ذكريات الطفولة ما أحلى تلك الأيام.. سالت دمعة يتيمة أنها
دمعة شوق إلى أيام الصبا أيام الفرح البريء إلى أيام كانت كل الأشياء تبدو
ملونة.. بألوان الفرح وأقواس قزح...

قبل انتصاف النهار في ذلك اليوم الغائم الكثيب وصلت ميسون إلى
مدينة السجون الموحشة..

نظر مسؤول قاطع الأعدام إلى ميسون وأطرق برأسه..
قال في نفسه: أيمن أن تكون هذه الفتاة.. أحقاً أنها نددت بالنظام
وبشرت بسقوط صدام رنّ جرس الهاتف..

- نعم سيدي !

يبدو ان مسؤولاً كبيراً يزوده ببعض التعليقات المشددة .

- نعم سيدي.. نعم سيدي .

اعاد سماعه التلفون وصاح على أحد الحرس
أمر ضابط قاطع الأعدام بأن تودع السجينة في إحدى غرف القاطع
النسوي..

رفع سماعه الهاتف..

- حصل تغيير في نوع الحكم.. سيحضر ضابط من القصر الجمهوري
للأشرف..

وصل أبو ميسون إلى مدينة السجون.. كانت زوجته متهاككة إلا من

بصيص أمل.. أما اختها فقد بدت وكأنها تقاتل لدفع القدر..
تمكن أبو ميسون ترافقه خالة ميسون من مقابلة الضابط كان في داخله
مايعتمل لمعرفة بعض خيوط هذه القضية ربما لأول مرة تأتي أوامر من
القصر الجمهوري في قضية تنفيذ الأعدام...
كان أبو ميسون في حال يرثى لها فكأنه سيق إلى الموت بدا منحني الظهر كما
لو أنه ينوء بحمل هموم جيله من آباء فجعوا بفقد ابنائهم.. كانت نظراته
تستعطف... في عينيه انكسار وشعاع أمل على وشك ان يجبو وينطفئ..
تقدمت المرأة من الضابط الكبير الذي تربع وراء مكتبه ومن خلال
النافذة كان ثمة مبنى ينهض فوق قاعدة اسمتية قالت المرأة التي تجاوزت
الأربعين :

- ميسون ماتزال طفلة.. اسجنوها مؤبدا.. بس لا تعدموها...
خلوها بالميزان وبقدر وزنها ندفع ذهب.. بس لاتعدموها...
والله حرام .. ثوب الزفاف...
نهض الضابط من وراء المكتب واتجه إلى النافذة والقى نظرة على المبنى
المقابل وقال بصوت اجش:

- القضية مو بيدي.. كل شي انتهى..

- يعني شنو؟

التفت الضابط و صوب نظرة ثاقبة .

- السيد الرئيس وقع على اعدامها.. وانتهى الأمر .
- غمغم الأب بصوت كسير:
- أريد مواجهتها..
- ممنوع .
- ليش ممنوع ... اريد. أودعها..
- التعليقات تمنع مواجهة المحكومين بالإعدام..
- حاولت خالة ميسون ان تستعطف.. لكن الضابط
- بلا كلام.. تفضلوا برّا..

دجلة - 28

ميسون في غرفة الانتظار مستغرقة في الصلاة .. ميسون وحيدة غريبة في
هذا المكان الموحش... المليء بالذئب والوحوش الضارية..
الرقبية نورية واقفة خارج الغرفة كما تقضي الأوامر..
تصفي بدهشة إلى مناجاة ميسون..
جاءت امرأة بشعة الوجه أسنانها صفراء طويلة.. تحمل القصة..
رغيف صغير من الخبز صحن من الرز وكاسة فيها قليل من المرق..
قالت الرقبية..
- لا فائدة ميسون صائمة.. صار لها مئة يوم ما شفتها تتغدى أبداً.
دخلت المرأة الشمطاء الغرفة وقبل أن تضع القصة على أرضية
الغرفة.. نظرت إليها ميسون بوجه مشرق وهزت رأسها وهي تتمتم..
لم تكترث المرأة لذلك وغادرت المكان بطريقة آلية ما إن غابت المرأة في
الدهليز حتى دخلت الرقبية وأخذت القصة والتهمت الطعام على
عجل...

قالت خالة ميسون وهي تنظر إلى اختها من بعد :

- حتموت أختي إذا افتهمت .

- خليها عايشه بأمل ..

قالت أم ميسون بصوت متهالك ..

- أبو ميسون خلوك تقابلها ..

قال وهو يتحاشى النظر إليها :

- أجلوا اللقاء .

- ماحددوا وقت .

قال مشفقاً:

- اللقاء قريب ..

قالت أختها :

- أم ميسون الله كريم ماكو غير الصبر....

والتفتت إلى أبو ميسون...

- إذا تسمع .. اختي تستريح يمي تحتاج رعاية .. أمل هماتين موجودة...

توقفت السيارة امام منزل خالة ميسون وبادرت الخالة إلى مساعدة

اختها.. وعاد أبو ميسون ادراجه إلى أبو غريب..

آه لو استطيع ان ادفع عنها شبح الموت... سوف يلتف حبل المشنقة على

وردته ويخنق انفاس الربيع.. سترحل إلى الأبد.. دون وداع.. آه ياميسون

ان جراحك لن تندمل إلى الأبد..

انزاحت الغيوم عن الأفق الغربي وظهرت الشمس مصفرة وهي تجنح
إلى المغيب.. وصل ضابط من القصر الجمهوري ومعه ورقة صفراء..
لقى مسؤول قاطع الأعدام نظرة على الكتاب فقال موفد القصر
الجمهوري .

- تم تغيير حكم الإعدام من الشنق إلى الكرسي الكهربائي..
تساءل الضابط المسؤول..

- لكن لماذا؟

- لأنها ألفت خطاباً في سجن الرشاد هاجمت فيه السيد الرئيس وقالت
بالحرف الواحد يسقط صدام... يحيا الإسلام...
- وهل هذه عقوبة جديدة..
- كلاً سنجعلها تندم على ذلك.. أنها آخر حفلة تعذيب إن هدفنا هو
تخميم إرادتها..

- لقد جرت العادة انه لا تعذيب بعد صدور الأحكام..
هل تتحمل مسؤولية ذلك..

- أنا أنفذ توصيات السيد الرئيس القائد..

وأخرج من جيبه كراسة صغيرة.. وراح يقرأ:

- «أوصي الأجهزة الأمنية إلغاء أي حدود لممارسات التعذيب ضد

أعداء الثورة دون أي حرج أو خشية من مسائلة». .
«من وصايا الرفيق المناضل صدام حسين» .
- هل يعني أنك ستشرف على تنفيذ الحكم الجديد ؟
- ستقوم بعملك وسأقف إلى جانبك ..
ساد صمت ثقيل مدّة لحظات قبل أن يقول ضابط قاطع الأعدام:
- لقد تقدمت السجينة بطلب وافقت عليه .
- ما هو ؟
- طلبت مقابلة خطيبها وهو محكوم بالأعدام في نفس القضية ..
حاول ضابط القاطع أن يرى علامة تأثر في وجه موفد القصر ولكن
دون جدوى ..

قال الضابط الموفد :

- متى يتم تنفيذ الحكم ؟
- مع غروب الشمس .

استيقظت أم ميسون من نومها قبيل الغروب .. .
كان قلبها يدق كطبل افريقي .. ياله من حلم اشبه بكابوس .. رأت
ابنتها ميسون ترتدي ثوب الزفاف لكنها كانت حزينة ولم يكن حولها من
أسرتها أحد رأت اناساً غرباء وجوهم مخيفة .. وكانوا يعوون كالذئاب ..

قدمت أمل قدحاً من الماء إلى والدتها دخلت الغرفة المجاورة.. لتخرج بعد لحظات وهي ترتدي ثوب زفاف ميسون وتحمل صندوقاً خشبياً صغيراً... دخلت الرقيبة وخاطبت ميسون:

- يله اطلعي...

قادتها إلى قاطع تنفيذ أحكام الإعدام... قال الضابط المسؤول بلهجة رسمية جافة..

- لقد تم تغيير الحكم من الأعدام شنقاً إلى الأعدام بالكروسي الكهربائي. لم يبد أي اكرات على وجه ميسون وظلت تنظر خلال النافذة إلى آخر أشعة الشمس وهي تقرض المبنى الاسمتي..

استطرد الضابط متسائلاً:

- لديك ما تقولين؟

- أريد رؤية خطيبي حسام!

قال الضابط:

- سيتم احضاره.

وهي هذه اللحظات يدخل حسام يرافقه اثنان من الحرس.. قاعة كبيرة..

تعانقت العيون في عناق نظر الضابط إلى ساعته...

- خمس دقائق..

نظرت إلى الرقبة أم سفيان..

- بلا زحمة.. شويه ماي

بادرت الرقبة لاحضار قدح من الماء ولكن نظرات موفد القصر كانت

محذرة ومهددة..

اشار ضابط الإعدام إلى بدء الوقت..

أجلست المرأة الشمطاء ميسون في الكرسي المخيف. وضعت يديها

فوق المسندين وراحت تقيد معصمها بأذرع حديدية نصف دائرية

موصلة بالأسلاك الكهربائية..

أم ميسون تنظر إلى العروس أختها تضع في معصمها أساور ذهبية..

قيدت المرأة الشمطاء قدمي ميسون بأذرع حديدية هي الأخرى نصف

دائرية موصولة بالكهرباء..

خاله ميسون تستخرج من الصندوق تاجاً مزيناً بورود الياسمين

الصناعية المطلية بالذهب كانت خاله ميسون تريد تقديمه هدية إلى ميسون

في ليلة زفافها..

وضعت المرأة الشمطاء طوقاً حديدياً فوق رأس ميسون كان قلب ميسون يستعر عطشاً طلبت جرعة ماء..

أشار موفد القصر إلى الرقبة بأن تحضر قدحاً من الماء..

عندما أرادت أم سفيان مساعدة ميسون لأن تشرب نظر الضابط الموفد شزراً واخذ القدح بعنف.. ثم خاطب ميسون بقسوة:

- كل شي بثمان.. اهتفي بحياة الرئيس القائد مثل ما هتفتي بالرشاد..

أدركت ميسون سرّ تبديل الحكم إنهم يريدون تحطيمها بلعت ريقها بصعوبة وقالت:

- عاش العراق .

ردّ الضابط بفظاظة..

- العراق هو صدام.. عاش القائد صدام..

إنهم يريدون إذلالها.. أجل يمكنهم تمزيقها ارباً ارباً ولكن من

المستحيل أن يهزموني... هتفت:

- عاش العراق !

أشار الضابط إلى البدء في ارسال الصعقات بشكل متقطع لتعذيبها

صاح الضابط:

عاش صدام!!

ارتعدت أوصالها بسبب التيار الكهربائي.. ثم توقف، شعرت أن

النيران تشتعل في أعماقها أخرجت طرفاً من لسانها كان متخشباً أشارت إلى
شدة عطشها..

لوح لها الضابط بالقدح..

انتفض جسمها تحت وقع الصعق الكهربائي، بدا أنها تحاول أن تقول
شيئاً أشار الضابط بقطع التيار.. جمعت ميسون طاقتها :
- عاش.. الصدر الشهيد..

عاد جسمها إلى الانتفاض بشدة.. راحت تصرخ بسبب موجات الألم
الرهيب..

كانت صرخاتها تصطدم بجدران هائلة القسوة.. بدت ميسون كحمامة
برية بين فكي ذئب..

دمعت عينا الرقيقة.. ربما لأول مرة يتفجر الصخر عن قطرة ماء..
بان التأثير على ضابط الإعدام أما موفد القصر فكان يعوي بعصبية
ويلوح بالقدح :

- عاش القائد صدام...

كانت ميسون تجمع كل ماتبقى من طاقتها ارادت ان تلحق بالوحش
البعثي هزيمة ساحقة أنها تعرف مدى حقدهم على القائد الفاتح الذي
اطاح بطاغية بلاده.. جمعت كل ماتبقى لديها من رمق الحياة فدوى هتافها:
- عاش الخميني القائد !

راح الضابط يعوي كذئب متوحش ..
فيا كانت ميسون تنتفض تحت وقع صعقات هائلة ..
تخشب لسانها بعد ساعة من زمن البعث في اقبية التعذيب ..
كان ضابط الإعدام في قرارة نفسه ينظر إلى ميسون باجلال .. أنه لا
يفهم السرّ في قوّة هؤلاء ..
لقد أعدم مئات الشباب رآهم يتقدمون الى المشانق بشموخ .. كانوا
يسجدون يقبلون موضع السجود ثم يصعدون الى منصة الأعدام ..
هل كانوا يبثون ارض الوطن لوعة حبّهم هل كانوا يقبلون موضع
سجودهم لله لأن ذلك الموضع هو أقرب نقطة للربّ؟
ميسون تئن ... الحياة تغادر كل خلية من خلاياها ..
اصفرّ وجهها كوردة ذابلة .. كانت تتنفس بصعوبة .. إنها تموت بدت
كشمعة تجبو شيئاً فشيئاً إنها تذوي قليلاً قليلاً .. ثم توقف القلب وساد
السكون ..

الفرات - 23

حسام مغمض العينين مسجى بعدما أن قام أبو وداد بسحله..
كانت ملامح وجهه هادئه تماماً.. ينتظر قدوم والدته التي تم ابلاغها
بالحضور..

كان حسام بعد أن ودّع زوجته الحبيبة قد وضع في قاعة حيث تنهض
عشر مشائق.. سوف يشنق بعد قليل..
طلب فك قيوده ليصلي ركعتين..
حسام يصلي آخر صلاة له في هذه الدنيا...
تردد صوت في اذنيه..

- ماهي الدنيا؟! مجموعه من الأوهام.. لكن دنيانا أكثر وهماً من دنيا
الآخرين..

حسام مستغرق في نوم هادئ.. روحه البيضاء تحلّق بعيداً في عوالم
مجهولة.. أو تحوم حول ردائها الطيني أنها تحمحم كمهر حسيني مجنّح، إن
الشهداء أحياء لكن المخلوق الطيني لا يمكنه رؤيتهم وسماع صوتهم.. ولو

أمكن ذلك لسمعوا روح الشهيد المسجى تتساءل
- أنا لست ادري هل ستذكر قصتي ؟
أم سوف تذروها رحي النسيان؟
أو انني سأكون في تاريخنا متأمراً أم هادم الأوثان؟
كل الذي أدريه ان تجرّعي كأس المذلة ليس في امكاني
فإذا هويت هويت احمل عزّي
يغلي دم الأحرار في شرياني
أهوى الحياة كريمة لا قيد لا ارهاب لا استخفاف بالإنسان .

فتحت المرأة الشمطاء القيود.. وسُجيت ميسون فوق ارضية الغرفة..
غادرت الذئاب وراح أبو وداد يسحل الجسد من القدمين إلى القاعة..
ظهر الكفن المطرز بالكلمات المقدسة...
لمح أحد الذئاب ذلك فهرول باتجاه اسياده !
- سيدي.. سيدي.. اكو كتابة على الملابس.. يمكن معلومات حساسة..
كان أبو وداد يعرف حقيقة الأمر جيداً لكنه تركه يزهو باكتشافه!!
عاد الضابط المسؤول وألقى نظرة على الكلمات وقال :
- يله اقرأ..
راح ذلك الوغد يمعن النظر.. ويحاول قراءة الكتابة...
نهره الضابط :

- أثول.. يله اقرأ..

- سيدي يمكن انكليزي.. مكتوب يس .

- طيح الله حظك.. ياسين.. وآيات قرآنية وأدعية.

والتفت إلى أبو وداد قائلاً :

- ذبه سجن إلى أن يحفظ سورة الفاتحة .

- نعم سيدي..

ميسون نائمة لا تدري ما يجري حولها لقد غادرت هذا العالم الذي
يضج من عواء الذئاب..

روحها الطاهرة تحلّق بعيداً.. وجسمها مسجى... انطلقت إلى
الكاظمية راحت تطوف فوق القباب والمنائر.. ثم ولجت بيت خالتها
الحبيبة رأت أمها..

حمحت كمهرة مجنحة

- أماه قد عزّ اللقاء وفي غد

سترين نعشي كالعروس يسير

وسينتهي المسعى إلى اللحد الذي هو منزلي وله الجموع تصير .

قولي لترب اللحد رفقا بابنتي

جاءت عروساً ساقها التقدير

أماه لا تنسي بحق بنوتي قبري

لئلا يحزن المقبور

روح ميسون اللطيفة تحلّق إلى الرشاد.. الليل يغمر الأشياء وينشر
فوقها غلالة مليئة بالأسرار..

صديقاتها جميعاً مستغرقات في نوم...

الأرواح الشفافة تسيح في عوالم فسيحة..

التقت روح صديقتها شروق .

- ميسون !

- شروق !

- يا لها من حلّة رائعة.. أنت الآن أجمل حتى من الحوريات.

- ما أحلى الحياة هنا.. في هذا العالم.. انه مفعم بالصفاء لقد ارتحت من
شقاء الدنيا..

عندما ودّعتمكم بالأمس.. اخذوني صبّوا علي العذاب..

أما الآن فانا أنعم بالسعادة والراحة..

وداعاً فانا في شوق للقاء الحبيب..

- ميسون! ميسون!

امتدت كف لتوقظ شروق أنها تحلم...

تسلّم أبو ميسون ورقة صفراء تتضمن اعدام ميسون غازي وتصريح

بالدفن..

وقع أبو ميسون على تعهد بدفن ابنته ليلاً مع عدم اقامة مجلس عزاء أو
تلقي التعازي..
أخذوه إلى قاعة..

كانت ابنته نائمة.. وجهها تعلوه براءة الأطفال مرّت في خياله مشاهد
ملوّنة قديمة.. يوم تلقاها بذراعيه وهي تفتح عينيها للحياة...
ومشاهد من لعبها في رياض الأطفال.. مشهد ذهابها في أول يوم من بدء
دراستها الابتدائية.. وهي تنثر الحب للحمام في الصحن الكاظمي المغمور
بالضوء ... على ضفاف دجلة.. دخولها إلى الجامعة...
حملها بين ذراعيه كما لو كان يحملها طفلة صغيرة كانت نائمة مغمضة
العينين!

- ميسون! ميسون! حبيبتى افتحي عينيك يا طفلتى..

في جوف الليل في وادي السلام وقف الأب وإلى جانبه زوجته. ينظران
إلى التراب يغيب ابنتهم..
ظهر القمر من بين أكوام الغيوم ثم غرق مرّة أخرى.. فاحت رائحة
طيبة ملأت المكان.. وحبوبات التراب تنثال.. عاد السكون مرة أخرى
ليغمر الوادي حيث ترفرف آلاف أرواح من رحلوا وغابوا من دون
أمل بالأوبة...

روح بيضاء كهالة من انعكاس النور على شجرة برتقال في فصل الربيع

ترفر في فضاء الوادي تشدو بصوت شجي يشبه نشيج الميازيب في

مواسم المطر :

- يا حبيبات التراب ...

احضنيني ..

قبليني ..

مرري كفّ أبي .. أمي ..

على رأسي وعيني ..

وجبيني ..

ارحمي حبي وآلامي ..

ودمعي وشجوني ..

ردّدي هممة الحزن ..

وآهات انيني ..

واحفظي هذا الشباب ...

يا حبيبات التراب ...

يا حبيبات التراب ...

الفرات - 24

عندما انزلوه من المشنقة شعر بأن عذاب السنين ينزاح عن كاهله أصبح
شفافاً كحزمة من نور السماوات لم يكن يسمع شيئاً سوى انين الريح تسفّ
من خلال النخيل يعبر المسافات بينه وبين الشط.. ان أمي تبكي كسما
الشتاء الحزينة..

جاءت امه عانقته.. شعر بدفء قبالتها وشذى انفاسها وسقطت على
وجهه دموع أخيه..

انطلقت به السيارة إلى وادي السلام وكانت روحه تحلّق في الدجى.

ابكي يا أماه .. ابك يا وطني المقهور .

نحن في زمن يقتل الأنبياء .

وكان قدرني أن ارحل .

ها أنا الآن على تخوم الزمان

اهيلوا التراب فوق ردائي

أما أنا فحذار أن تظنوا بي الموت

أنا حيّ. وهؤلاء رفاق الدرب الطويل
لقد رحلوا قبلي وسوف يلحق بي آخرون
ربما نصبح جزءاً من التاريخ
لكننا سنبقى ذلك الجزء الحيّ
في نسيج الماضي.. انه باق ينبض بالحياة..
وأنت يا أخي!
ستنقل رسالتي للآتين.. إلى جيلي والأجيال القادمة اخبر جلاّدي!
انني حطمت سلاسله والأغلال..
انني ما زال انتظر الشمس التي ستشرق غداً أو بعد غد قل له: أن حبّي
لن تكبله قيودك
وأمنيّاتي الغافية ستشق تراب القبر..
ها أنا الآن أسمع صهيل ذي الجناح قادماً من كربلاء .
وان الدماء التي اريقت ستغدو فؤوساً
تهشمك..
وغداً.. عندما تشرق الشمس .
سنشهد انتصارنا.
وهزيتمك..
وداعاً يا أمّاه..

وداعاً يا اخي..

إني راحل للقاء الحبيب..

أخذت الأم الثكلي قبضة من ثرى الضريح مضمخة بدموع الأمهات..

همست..

- يمه وصية اخيتك أنعام..

وضع الأخ المفجوع جبهته على الثرى بثه حبه وهمس:

- عهد مني ان اسير في طريقك يا أخي...

أخي يا شهيد أخي يا شهيد.

مضيت فدربك درب الخلود.

عهدناك حرّاً طوال المدى

وفياً وكنت لنا مرشدا

وجدت بروحك يوم الفدا

فلوّن جرحك وجه الصعيد.

مضيت وكنت لنا هادياً

أضأت الطريق هدى سامياً.

علوت السحاب فطرا عالياً.

لأحلى الأمانى وعيشاً رغيد

عروجاً تحف بك الأنجم

مدار الشموس لك السلم .
بيوم الشهادة يزهو الدم
ويتلو على الكون احلى نشيد
وسام الشهادة أغلى وسام
به يفخر المرء بين الأنام
بنور الشهيد يزول الظلام
ويبقى لذكراه يوم مجيد
أخي يا شهيد.. أخي يا شهيد .

من دجى وادي السلام تحلق روحان .. طيفان مضيئان يخترقان السحب
الداكنة وركام الغيوم . يعبران الأفلاك .. ومدارات النجوم ..
حسام يرتدي ثياباً حريرية بيضاء ناصعة بلون قمم كردستان يشد شعره
التموج بعصاة ارجوانيه .. كفه تعانق كف ميسون .. أنها ترتدي حلة
فضفاضة ازهى وأجمل من حلة الزفاف .. أنها تبدو أميرة ..
ويسيران على ضفاف نهر ناعس وقد نبتت اشجار مكتظة بالشمار ..
الطريق مرصوف بالأحجار الكريمة ..
والمرج الأخضر مطرز بالورود وأطفال كالبلور يمرحون كفراشات
ربيعية .. وحوريات يحملن أطباقاً من الفضة ملأى بعنب كالياقوت
ورمان ..

كانت ميسون تشدو بسعادة لا حدود لها:

النور ملء عيوني

والحور ملك يميني

وكالملاك اغني

لجنة وعيون .

ومرّ عام و عام وعام.. في يوم ٢٦ / ٥ / ١٩٨٨ ..

كانت أم حسام ومعها أبو حسام.. وبينهما أخو حسام يحمل باقة ورد

يطرق منزلاً في مدينة الكاظمة في محلة علي الصالح..

جاء يطلب يد أمل وفاء للشهيد حسام وميسون وتحدياً لنظام البعث

الهجمي..

وإنه لطريق طويل.. طريق النضال ضد الطغاة.. والشعوب قد تصبر

لكنها لن تستسلم هكذا قال الصدر :

أي باغ سقاك الحماما

أنت أقسمت أن لن تناما

يبلغ المؤمنون المراما

فبكيناك دماً دمعاً سجاما

يطرد الشائرون الظلاما

يتنضي للطغاة حساما

باقر الصدر منا سلاما

أنت أيقظتنا كيف تغفو

كيف تنأى بعيداً ولما

قد فقدناك زعيماً لا يجارى

غبت عنا سريعاً ولما

يا شهيداً قام فرداً

أنت كالسبط حسين
يا أبا جعفر سوف تبقى
كذب البعث ما زلت فينا
نحن اقسمننا يميناً ان
دعوة قدتها قد تسامت
وشباباً دعوت فهبوا
وسبيلاً سلكت انيرت
ان ديناً شيدته
يهزم الكفر ويبقى
يا أبا جعفر نم قرير العين
قد عشقنا الشهادة ذوداً
قد أبيت الحياة مضاماً
رائداً للورى وإماماً
كالخميني تهدي الاناماً
أو نرى الاسلام شرعاً
ثورة هدفاً والتزاماً
يرخصون الدماء كراماً
بالضحايا وطابت مقاماً
أمة بالدماء يتسامى
يملاً العالمين سلاماً
إننا هجرنا المناماً
عن حمى الدين حتى يقاماً

النهاية

نيسان 2002

بورك الحب

لن يطول الزمان
فاللقاء الذي انتظرناه
قادم من وراء الدخان
عرسنا قائم هناك
انني اسمع منذ الآن
شدو الاغاني
وارى في عيون الصبايا
الضحاك
بزوغ الأمانى
لن يطول الزمان
سيولد القمر بسمة في السماء
سما العراق
والنجوم التي استشهدت في المساء
ستغدو منابت ورد
وتلك الدماء
التي قد أريقت

ستغدو فوؤساً
تهشم وجه الذي قال إني إله
إله العراق
إله انهاره والمياه
إله أشجاره والنخيل
ذات يوم سيكبر أطفالنا
فجراً سيخرجون من رحم الليل
يمتطون عتاقاً من الخيل
هنالك يبهت نمرود
في بابل

ألا فانظروا
انظروا ها هناك
انني المح الآن عروساً
وراء تلال الضباب
ضباب السنين
آه تلك ميسون
وذاك حسام